مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (٢٣)

شرح رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف

عَبْد العزيز بنِ عبْد اللّه الرَّاجحي

شرح العبودية
لشيخ الإسلام ابن تيمية

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م

تم الصف والإخراج
بمركز عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي
للإستشارات والدراسات التربوية والتعليمية

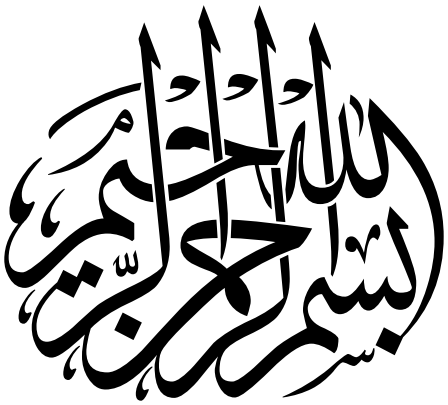
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

❐ التعريف بالمؤلف:

فإن رسالة العبودية لشيخ الإسلام الإمام العلامة أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني، الإمام المجاهد الصابر العالم العامل ـ رحمة الله تعالى عليه ـ كانت ولادته رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ستمائة وإحدى وستين هجرية، وهو إمام مشهور معروف وشهرته تغني عن الكلام عنه، وهو إمام عظيم أظهر مذهب أهل السنة والجماعة ومعتقدهم في وقت كاد أن يندثر، واستفاد من علمه في حياته وبعد وفاته الجم الغفير من الناس، فكم من إنسان هداه الله على يديه في حياته وبعد وفاته، ولو لم يكن من ذلك إلا العلامة ابن القيم ـ رحمة الله عليه ـ لكفى؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هداه على يديه، وكم من إنسان انحرف عن معتقد أهل السنة والجماعة فهداه الله على يديه في حياته وبعد مماته، وقد قرأ كثير من الناس كتب هذا الإمام العلامة واستفادوا وأفادوا.

وهو إمام عظيم في أصول الدين، وفي الفقه، وفي الحديث وفي التفسير، وفي سائر أنواع العلوم. ولا يعرف له قول خطأ في أصول الدين ـ رحمه الله تعالى عليه ـ، وأقواله واختياراته في فروع الدين مسددة.

كانت وفاته سنة سبعمائة وثمان وعشرين ـ رحمة الله تعالى عليه ـ وله من

العمر: ثمانية وستون عاماً.

❐ التعريف بالرسالة:

هذه الرسالة رسالة عظيمة، وهي رسالة العبودية على اسمها؛ تتعلق بعبودية الله سبحانه وتعالى، وهي جواب لسؤال أُلقي على الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، سئل فيه عن العبادة ما هي؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها؟ وهل هي أعلى مقامات الدين أم هناك شيء فوقها؟ فأجاب بهذه الرسالة.

وكثيرمن رسائله رَحِمَهُ اللَّهُ تكون جواباً لسؤال أُلقي عليه؛ **كالعقيدة الواسطية** ـ وهي من أحسن كتب شيخ الإسلام في المعتقد ـ جواب لسؤال من بلدة واسط فسميت الواسطية، **والفتوى الحموية** جواب لسؤال من بلدة حماة فسميت الحموية، **والتدمرية** جواب لسؤال من بلدة تدمر فسميت بالتدمرية، وهكذا هذه الرسالة.

❐ طريقة الشرح:

وقد تم تناول هذه الرسالة بالشرح والتقريب،شرحًا متوسطًا، بالتدليل والتعليل، وتوضيح المشكل، وذكر أمثلة للقواعد والبراهين، وإبراز المعنى، وتمييز الشاهد، وتفصيل القول فيما يحتاج إلى ذلك.

ـ ونسأل الله تعالى أن ينفع بالرسالة وشرحها، ونسأله تعالى للجميع العلم النافع والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

---

* تم إثبات كتاب العبودية من النسخة التي حققها الشيخ/ زهير الشاويش رَحِمَهُ اللَّهُ ـ طبع المكتب الإسلامي ـ بيروتُ الطبعة السابعة ١٤٢٦ من الهجرة.
وهذه الرسالة مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩ وما بعدها.

بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم وَبِه نستعين

إِن الْحَمد لله نحمده ونستعينه وَنَسْتَغْفِرهُ ونعوذ بِاللَّه من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنَا من يهده الله فَلَا مضل لَهُ وَمن يضلل فَلَا هادي لَهُ.

وَأَشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ وَأَشْهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله.

أما بعد: فقد سُئِلَ شيخ الْإِسْلَام وَعلم الْأَعْلَام نَاصِر السّنة وقامع الْبِدْعَة أَحْمد بن عبد الْحَلِيم ابْن تَيْمِية رَحمَه الله عَن قَوْله عز وَجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١] فَمَا الْعِبَادَة؟ وَمَا فروعها؟ وَهل مَجْمُوع الدَّين دَاخل فِيهَا أم لَا؟ وَمَا حَقِيقَة الْعُبُودِيَّة؟ وَهل هِيَ أَعلَى المقامات فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة أم فَوْقهَا شَيْء من المقامات؟ وليبسط لنا القَوْل فِي ذَلِك.

الشَّرح

هذا هو السؤال الذي وُجه للإمام العلامة رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد سئل عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ خطاب موجه إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، عربهم وعجمهم، أحرارهم وعبيدهم، كلهم موجه إليهم هذا الخطاب، وكلهم مطالب بالعبادة وهذا أول أمر في القرآن الكريم في سورة البقرة، أول أمر وجهه الله إلى الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١]، فسئل الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية الكريمة.

يقول السائل: الله تعالى أمرنا بالعبادة، فما هي العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل في العبادة أم هناك شيء يخرج منها؟ وما حقيقة العبادة؟ وهل هي أعلى المقامات أم فوقها شيء من المقامات؟

بمعنى أنه سؤال له فروع، وسيأتي في الجواب إن شاء الله أن العبادة تشمل جميع الأوامر والنواهي، ومجموع الدين كله داخل فيها؛ **وحقيقة العبودية**: أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وهي أعلى المقامات حتى إن أفضل الناس وهم الأنبياء والرسل، أعلى مقاماتهم العبودية والرسالة، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام أدرك أعلى المقامات: العبودية والرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ١]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٠].

فَأجَاب رَحمَه الله:

الْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة.

الشَّرْح

○ قوله: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة): هذا هو تعريفها، **والمراد أن العبادة**: اسم يجمع كل ما يحبه الله ويرضاه سواء كان هذا قولاً أو عملاً، وسواء كان باطناً أو ظاهراً، وسواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح، أو من أقوال اللسان، فكان ذلك داخل في مسمى العبادة مادام يحبه الله ويرضاه، فكل شيء يحبه الله ويرضاه فهو عبادة، سواء كان قولاً أو عملاً وسواء كان باطناً أو ظاهراً، وسواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلب، وسواء كان قول القلب أو قول اللسان أو عمل القلب أو عمل الجوارح، كله داخل في مسمى العبادة ما دام شيئاً يحبه الله ويرضاه.

بعبارة أخرى؛ العبادة هي: امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. فهي أداء الواجبات التي أوجبها الله قولاً أو فعلاً، باطناً أو ظاهراً، وترك المحرمات التي حرمها الله قولاً أو فعلاً، باطناً أو ظاهراً.

ثم مثَّل المؤلف رحمه الله فقال: (فالصلاة والزكاة والصيام والحج كل هذه من أنواع العبادة).

فالصلاة فيها أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان؛ فأعمال القلوب في إخلاص أدائها لله، وأعمال الجوارح في أدائها، وأقوال اللسان حيث أن فيها ذكر وقراءة وتسبيح وتهليل.

والزكاة كذلك: إعطاء وعقيدة، والصيام كذلك: إمساك بنية، والحج، ودعاء الله، والذكر، وقراءة القرآن، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار عبادة، وجهاد المنافقين عبادة، والإحسان إلى الجار عبادة، والإحسان إلى المسكين، والإحسان إلى المملوك من الآدميين. والإحسان إلى المملوك من البهائم، كل هذه عبادات.

وكذلك أيضاً مَثَّل لأعمال القلوب: فحبُّ الله ورسوله هذا عمل قلبي، خشية الله عمل قلبي، الإنابة إلى الله عمل قلبي، إخلاص الدين عمل قلبي، والصبر لحكم الله عمل قلبي، والشكر لنعم الله عمل قلبي، والرضا بقضاء الله عمل قلبي، والتوكل على الله يجمع أمرين: يَجمعُ فعلَ الأسبابِ وتفويضَ الأمرِ إلى اللهِ، والرجاء لرحمة الله، والخوف من عذابه، كل ذلك من العبادة.

والخلاصة: أن العبادة تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأقوال القلب وأقوال اللسان.

- أقوال اللسان: مثل الذكر، تلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل، والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله.

- أقوال القلب: إقراره وتصديقه؛ وعمل القلب مثل ما سبق: حب الله ورسوله، خشية الله والإنابة إليه، إخلاص الدين لله، الصبر والشكر والرضا والرجاء والخوف، كل هذه من أعمال القلوب.

- أعمال الجوارح: الصلاة والزكاة والصلاة والحج، صدق الحديث، أيضًا هذه من أقوال اللسان.

ويمكن القول بأن العبادة تشمل: كل شيء جاء به الشرع، سواء ما أمر به الشرع، أو ما نهى عنه، وسواء كان هذا الذي أمر به الشرع أو نهى عنه قولاً أو فعلاً، وسواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلوب، وسواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح.

وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدَّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله.

وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خَلق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: ٥٩].

وَكَذَلِكَ قَالَ هود وَصَالح وَشُعَيْب وَغَيرهم لقومهم وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النّحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبيَاء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيَاء: ٩٢] كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]..

الشَّرْح

هذه منزلة العبادة عند الله، فهي الغاية المحبوبة لله والمرضية له، وما دامت العبادة هي الغاية التي يحبها الله ويرضاها، فهي أعلى منزلة، فأعلى منزلة لك أيها الإنسان أيها المخلوق أن تكون عبدًا لله وأن تحقق العبودية لله، وإذا حققت العبودية لله صرت محبوبًا لله مرضيًا له.

وأكمل الرسل تحقيقاً للعبودية هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الرسل تحقيقًا للعبودية هم أولو العزم الخمسة: نوح، وإبراهيم،

وموسى وعيسى، ونبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وأكمل أولي العزم الخمسة تحقيقاً للعبادة هما الخليلان: إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الخليلين تحقيقًا للعبادة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وبهذا يتبين أن أكمل الناس تحقيقا للعبودية: أكمل الخلق نبينا ﷺ، ثم يليه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم يليه موسى عليه الصلاة والسلام، ثم بقية أولي العزم، ثم بقية الرسل، ثم سائر الأنبياء ثم بعد ذلك الصالحون من عباد الله الصديقون، ثم بعد ذلك الشهداء، ثم الصالحون، هؤلاء هم أكمل الناس على التحقيق، **فالمراتب أربع**:

المرتبة الأولى: الأنبياء.

المرتبة الثانية: الصديقون.

المرتبة الثالثة: الشهداء.

المرتبة الرابعة: الصالحون.

وأكمل الصديقين: الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ ثم يليهم سائر المؤمنين، وفي مقدمتهم العلماء والأئمة والأخيار.

والعبادة هي التي خُلِق الخلق من أجلها، وهذا يدل على عِظم منزلة العبادة وأن كمال المخلوق أن يكون عبداً لله، ولذلك خُلق الخلق من أجلها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، وأرسل بها الرسل، فكل الرسل أُرسلوا إلى قومهم يأمرونهم بعبادة الله، كما قال تعالى عن نوح أنه قال: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعـرَاف: ٥٩]، وهـود قـال لـقـومـه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعـرَاف: ٦٥]، وصـالـح قـال لـقـومـه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعـرَاف: ٧٣]، وشعيب قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعرَاف:٨٥]، كل رسول بعثه الله يأمر قومه بعبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا

مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبيَاء: ٢٥]، ،وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيَاء: ٩٢]، وقال سبحانه مخاطباً الرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]

وبهذا يتبين أن أعلى مقام يكون للإنسان هو تحقيق العبودية لله، وأكمل الناس تحقيقاً لهذه العبادة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وَجعل ذَلِك لَازِما لرَسُوله إِلَى الْمَوْت كَمَا قَالَ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩].

وَبِذَلِك وصف مَلَائِكَته وأنبياءه فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبيَاء: ١٩-٢٠] **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٦].

وذم المستكبرين عَنْهَا بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافر: ٦٠]، **ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى:** ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسَان: ٦].

وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفُرقان: ٦٣] **الآيات.**

وَلما قَالَ الشَّيْطَان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر: ٣٩-٤٢].

الشَّرْح

هكذا تكون منزلة العبادة، فمنزلتها عظيمة بالنسبة للمخلوق، وإذا حقق العبادة فإن قربه من الله على قدر تحقيقه لهذه العبادة، ولا ينتصل أحد من المخلوقين ولا يخرج عن هذه العبادة أبدًا، وإذا ادَّعى رجل أن هناك أحداً تسقط عنه التكاليف ولا يكلف بالعبادة وعقله ثابت معه، وليس مخوَّفًا ولا مجنونًا ـ إلا الحائض والنفساء يسقط عنهم الصلاة والصوم في حال الحيض والنفاس ـ فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل

كافراً؛ كما نص على ذلك الأئمة كشيخ الإسلام وغيره ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ ولهذا جعل الله العبودية لازمة لرسوله حتى الموت، مع أنه ﷺ أكمل الناس ولكن الله جعل العبادة لازمة له، فقال: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]؛ واليقين هو: الموت[١]، يعني: استمر على عبادة ربك والزمها حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك.

وكذلك الملائكة والأنبياء فهم أفضل خلق الله، وقد وصفهم الله تعالى بالعبادة، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهذا عام، يعني: ملك السماوات والأرض، ثم قال: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، هذا وهم الملائكة والأنبياء والرسل أفضل المخلوقات.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن من استكبر عن عبادة الله فإنه سيدخل جهنم صاغراً، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، ونعت صفوة خلقه بالعبودية، فقال عن الأبرار: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ [الإنسان: ٦] هذه الإضافة إضافة تشريف وتكريم، وقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾

(١) جاء هذا التفسير عن ابن عباس، كما في «تفسير ابن الجوزي» (٤/ ٤٢٣)، الفخر الرازي (١٩/ ٢١٦)، «تنوير المقباس» ص (٢٨١). وجاء عن مجاهد «تفسير مجاهد» ص (٤١٩)، وورد في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٧) وابن الجوزي (٤/ ٤٢٣)، وورد في «تفسير مقاتل» (١/ ٢٠٠)، وأخرجه عبدالرزاق (٢/ ٣٥٢) عن قتادة، وأورده البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ (٨/ ٣٨٣) معلقًا بصيغة الجزم عن سالم بن عبدالله، وهو تفسير الجميع كما عبر الواحدي في «التفسير البسيط» (١٢/ ٦٧٥)، وانظر: الطبري (١٤/ ٧٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٩٧)، والزمخشري (٢/ ٣٢٠)، وابن العربي (٣/ ١١٣٩)، وابن عطية (٨/ ٣٦٢)، «تفسير القرطبي» (١٠/ ٦٤)، وابن كثير (٢/ ٦١٦ ـ ٦١٧).

[الفُرقان: ٦٣-٦٤]، فإضافتهم إليه سبحانه تشريفا وتكريمًا، وأخبر الله تعالى عن إبليس أن الله تعالى لما أنظره أقسم أنه سيغوي الناس واستثنى عباد الله المخلصين، فإنه ليس له سلطان عليهم، قال الله تعالى عنه: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحِجر: ٣٩-٤٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجر: ٤٢]، فأضافهم الله ﷻ إليه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾، وهذه الإضافة إضافة تشريف.

وَقَالَ فِي وصف الْمَلَائِكَة بذلك: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، **وقال تعالى:** ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مَريَم: ٨٨-٩٥].

الشَّرْح

هذا في وصف الملائكة، فقد وصف الله تعالى الملائكة بالعبودية، وأنهم لا يخرجون عن العبودية، فقال سبحانه: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبيَاء: ٢٦]، يعني: الملائكة عباد مكرمون، لا يخرجون عن العبودية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ٢٠٦﴾ [الأعرَاف: ٢٠٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ [مَريَم: ٨٨-٩٠] بيان تعظيم من نسب الولد لله، وأن هذا أمر عظيم، فمن نسب الولد لله وقال لله ولد فهو مشرك، وقد قال على الله قولاً عظيمًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩﴾ يعني: أمراً عظيمًا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ أي: أن هذا أمر عظيم تكاد تنفطرله السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال، حيث ادعوا للرحمن الولد: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ [مَريَم: ٩٢]، ثم قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مَريَم: ٩٣]، كل من في السموات والأرض يأتي يوم القيامة عبدًا لله معبد مربوب مقهور مذلل مصرف مدبر، تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته، ليس له من نفسه وجود ولا عدم ولا خروج له عن قدرة الله ونفوذ مشيئته.

وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية والبنوة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩] وَلِهَذَا قَالَ النَّبِي ﷺ فِي الحَدِيث الصَّحِيح: «لَا تطروني كَمَا أطرت النَّصَارَى عِيسَى ابْن مَرْيَم فَإِنَّمَا أَنا عبد فَقولُوا عبد الله وَرَسُوله»(١).

الشَّرْح

المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام نبي الله، وهو من أولي العزم الخمسة، وهو عبد لله لا يخرج عن العبودية، وادَّعت فيه النصارى الآلهية والبنوة، فادَّعوا أنه إله وأنه ابن الله، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومع ذلك فالمسيح عليه الصلاة والسلام عبدٌ لله، لا يخرج عن العبودية، عبدٌ لله فكيف يدعى فيه النصارى أنه ابن الله أو أنه إله؟! تعالى الله عن ذلك، ولهذا قال الله تعالى عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضمير يعود إلى المسيح: ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وجعله مثلاً لبني إسرائيل.

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٤٤٥)؛ ولفظه: "لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ"

وَقد نَعته الله بالعبودية فِي أكمل أَحْوَاله فَقَالَ فِي الْإِسْرَاء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسرَاء: ١]، **وَقَالَ فِي الإيحاء:** ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجْم: ١٠] **وَقَالَ فِي الدعْوَة:** ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ: ١٩]، **وقال في التحدي:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣].

الشَّرح

ونبينا محمد ﷺ أفضل الخلق، قال في الحديث الصحيح: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُاللَّهِ، وَرَسُولُهُ**» وهذا هو مقامه، وهذا مكانه، وهذه منزلته عبدالله ورسوله، «**لا تطروني**»[(١)]: **الإطراء هو**: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه، والغلو.

لا تطروني ولا تغلو فيّ فترفعوني من مقام العبودية والرسالة إلى مقام الألوهية، كما ادَّعت النصارى في عيسى عليه السلام.

هذه أعلى المقامات لنبينا ﷺ، ومع ذلك وصفه الله تعالى بالعبودية، وهي:

الحالة الأولى: حالة الإسراء، لما أسري به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسرَاء: ١]، إذاً رسول الله ﷺ عبدٌ وليس بملكٍ ولا إله، وليس ابنُ الله، كما تدَّعي النصارى في عيسى، بل هو عبد الله ورسوله.

الحالة الثانية: في مقام الإيحاء قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجْم: ١٠].

---

(١) سبق تخريجه.

الحالة الثالثة: في مقام الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ: ١٩].

الحالة الرابعة: في مقام إنزال الكتاب قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣]

ولو كان هناك شيء أعلى من العبودية لوصف الله به نبيه ﷺ، فهذه أعلى المقامات وأشرف الأحوال وصف الله بها نبيه ﷺ وهو أكمل الخلق، وأفضل الخلق، فدل على أنه ليس هناك أحد يخرج عن العبودية من المخلوقين أبدًا، **ومن ادَّعى أنه يخرج عن عبودية الله** فإنه يكون كافرًا مرتدًا، ومن ادَّعى أنه يتجاوز العبودية وأنه لا يكون عبداً لله فهذا مستكبر عن عبادة الله، ومن استكبر عن عبادة الله فهو كافر، ومن عبد الله وغيره فهو مشرك، وكلٌ من المشرك والمستكبر كافر.

فالدين كُله دَاخل فِي الْعِبَادَة.

وَقد ثَبت فِي «الصَّحِيح» أَن جِبْرِيل لما جَاءَ إِلَى النَّبِي ﷺ فِي صُورَة أَعْرَابِي وَسَأَلَهُ عَن الْإِسْلَام قَالَ: «الْإِسْلَام أَن تشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا رَسُول الله وتقيم الصَّلَاة وتؤتي الزَّكَاة وتصوم رَمَضَان وتحج الْبَيْت إِن اسْتَطَعْت إِلَيْهِ سَبِيلا»، قَالَ: فَمَا الْإِيمَان؟ قَالَ: «أَن تؤمن بِاللَّه وَمَلَائِكَته وَكتبه وَرُسُله والبعث بعد الْمَوْت وتؤمن بِالْقدرِ خَيره وشره» قَالَ: فَمَا الْإِحْسَان؟ قَالَ: «أَن تعبد الله كَأَنَّك ترَاهُ فَإِن لم تكن ترَاهُ فَإِنَّهُ يراك» ثمَّ قَالَ فِي آخر الحَدِيث: «هَذَا جِبْرِيل جَاءَكُم يعلمكم دينكُمْ» فَجعل هَذَا كُله من الدَّين.

الشَّرْح

○ قوله: (فالدين كُله دَاخل فِي الْعِبَادَة): وهذه جملة مهمة، وهذا جواب سؤال من الأسئلة التي وجهت للمؤلف، فالصلاة داخلة في العبادة، والصوم داخل في العبادة، والحج داخل في العبادة، وبر الوالدين داخل في العبادة، وصلة الرحم داخل في العبادة، وحب الله ورسوله داخل في العبادة، وتلاوة القرآن داخل في العبادة، والتسبيح داخل في العبادة، والأمر بالمعروف داخل في العبادة، والنهي عن المنكر داخل في العبادة، والإحسان إلى الناس داخل في العبادة، وكف الأذى عن الناس داخل في العبادة، وهكذا جميع فروع الدين كلها داخلة في العبادة، ليس هناك شيء يخرج عن العبادة.

وهكذا ... في هذا الحديث العظيم حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما جاء جبريل عليه السلام وسأل النبي ﷺ؛ حتى يتعلم الناس ويستفيدوا، فسأل عن الإسلام، ثم سأل عن الإيمان، ثم سأل عن الإحسان، فذكر له أن الإسلام مبني على خمسة أركان، وهي: الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ثم

سأله عن الإحسان: قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم سأله عن الساعة، ثم سأله عن أماراتها، ثم سأل النبي ﷺ الناس قال: «**تدرون من هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**». يسمى هذا دين، الإسلام والإيمان والإحسان كله دين، ويكون الدين ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ولهذا قال: «**أتاكم يعلمكم دينكم**» وفي لفظ: «**أمر دينكم**»[(١)] فجعل هذا كله من الدين.

(١) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام (٢٦١٠)، الشريعة للآجري (٢/ ٥٦٨) (٢٠٥)، الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٦٤٠) (٨٢٧)، شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١١٢) (١٩).

وَالدّين يتَضَمَّن معنى الخضوع والذل يُقَال دنته فدان أي: أذللته فذل وَيُقَال يدين الله ويدين لله أَي يعبد الله ويطيعه ويخضع لَهُ فدين الله عِبَادَته وطاعته والخضوع لَهُ.

وَالْعِبَادَة أصل مَعْنَاهَا الذل أَيْضا يُقَال طَرِيق معبد إِذا كَانَ مذللا قد وطئته الْأَقْدَام.

لَكِن الْعِبَادَة الْمَأْمُور بهَا تَتَضَمَّن معنى الذل وَمعنى الْحبّ فهى تَتَضَمَّن غَايَة الذل لله بغاية الْمحبَّة لَهُ.

الشَّرْح

المتدين لله هو: الخاضع لله الذليل له، وغير المستكبر، يقال: دِنْتُه فدان، أي: دنته فذل. فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

فالعبد معبَّد لله مذلَّل خاضع ليس مستكبراً، بل هو منقاد يؤدي فرائض الله وينتهي عن محارم الله، ويستقيم على دين الله، ويقف عند حدود الله، هكذا العبد.

○ قوله: (وَالْعِبَادَة أصل مَعْنَاهَا الذل): ومن ذلك ما يقال في اللغة: طريق معبد، إذا كان مذللاً وطئته الأقدام، ويقال: جمل ذلول أي: منقاد.

والعبادة المأمور بها تتضمن: غاية الذل لله وغاية المحبة لله، يعني أن الإنسان يؤدي العبادة وهو خاضع لله محب له، وهكذا.

فهو يعبد الله وهو منقاد له خاضع له محبًا لله ﷻ، خائفٌ راجٍ، هكذا تكون العبادة، يعبد الله بالحب وبالخوف وبالرجاء والذلّ، والحب كما سيذكر المؤلف مراتب متعددة.

فَإِن آخر مَرَاتِب الْحبّ هُوَ التتيم وأوله: العلاقة لتَعلق الْقلب بالمحبوب ثمَّ الصبابة لانصباب الْقلب إِلَيْهِ ثمَّ الغرام وَهُوَ الْحبّ الملازم للقلب ثمَّ الْعِشْق وَآخِرهَا التتيم يُقَال تيم الله أَي عبد الله فالمتيم: المعبد لمحبوبه.

وَمن خضع لِإِنْسَان مَعَ بغضه لَهُ لَا يكون عابدا لَهُ وَلَو أحب شَيْئا وَلم يخضع لَهُ لم يكن عابدا لَهُ كَمَا قد يحب الرجل وَلَده وَصديقه وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحدهمَا فِي عبَادَة الله تَعَالَى بل يجب أَن يكون الله أحب إِلَى العَبْد من كل شَيْء وَأَن يكون الله عِنْده أعظم من كل شَيْء بل لَا يسْتَحق الْمحبَّة والخضوع التَّام إِلَّا الله. وكل مَا أحب لغير الله فمحبته فَاسِدَة وَمَا عظم بِغَيْر أَمر الله فتعظيمه بَاطِل. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

فجنس الْمحبَّة يكون لله وَلِرَسُولِهِ كالطاعة فَإِن الطَّاعَة لله وَلِرَسُولِهِ والإرضاء لله وَلِرَسُولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] والإيتاء لله وَلِرَسُولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩].

الشَّرْح

المحبة مراتب متعددة، وأول مراتب المحبة: العلاقة، **وسميت علاقة** لتعلق القلب بالمحبوب، يتعلق به ويميل إليه.

ثم يليها مرتبة الصبابة، **وسميت صبابة** لأن القلب ينصب إليه.

ثم الغرام من مراتب المحبة وهو الحب الملازم للإنسان، ومنه قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥] يعني ملازمًا.

ثم العشق، وهو من مراتب المحبة، وهذا لا يوصف الله به.

وآخر مراتب المحبة: التتيم، ومنه قولهم: (تيم الله) أي: عبدالله، فالمتيم: المعبد لمحبوبه.

وبيَّن المؤلف رحمه الله أن العبادة لابد فيها من: الخضوع والذل والمحبة، فالإنسان في عبادته، يخضع لله مع حبه له وإذلاله وتعظيمه؛

فإن خضع لشخص من المخلوقين وأحبه: صارت هذه عبادة.

أما إذا خضع لإنسان ولم يحبه: فلا تكون عبادة؛كما يخضع الإنسان لسلطان أو معتدٍ قاهر، فإنه يخضع له ولكن لا يحبه بل يبغضه فلا يكون عبادة.

أو أحب إنسان ولم يخضع له: فلا تكون عبادة، كما يحب الإنسان ولده وصديقه وزوجته لكن لا يخضع ولا يذل لهم.

فلا بد من اجتماع الأمرين خضوع مع محبة وإجلال، فذلك عبادة لا تكون إلا لله، أما إذا انفرد أحدهما فلا يكون عبادة(١).

وكل ما أُحب لغير الله تكون محبته فاسدة، وكل مُعظَّم بغير أمر الله فتعظيمه باطل، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، هذا فيه الوعيد الشديد على من قدَّم شيئاً من هذه الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التوبة: ٢٤].

فجنس المحبة تكون لله وللرسول، فالله تعالى والرسول ﷺ يحبان.

والطاعة كذلك تكون لله وللرسول، والإرضاء أيضا يكون لله

---

(١) قد بيّن المؤلف هذا المعنى في مواضع من كتبه؛ كما في مجموع الفتاوى له ١٣/ ٢٠٢-٢٠٣، والمصدر نفسه ٨/ ٣٧٨. والجواب الصحيح ٦/ ٣١. وجامع الرسائل ٢/ ١٩٦، ٢٥٤-٢٥٦. وأيضا تلميذه ابن القيم كما في: الفوائد (١٨٣)، طريق الهجرتين (٥١١، ٦٤٢)، مدارج السالكين (١/ ٩٢، ٧٤)، (٣/ ٤٤١).

وللرسول: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التّوبَة: ٦٢].

والإيتاء يكون لله وللرسول: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبَة: ٥٩].

أما العبادة والتوكل والخوف فهذا لا تكون إلا لله، فالعبادة خاصة لله فلا يعبد الرسول، والتوكل خاص بالله سبحانه وتعالى، والحسب خاص بالله سبحانه وتعالى، والدعاء خاص بالله، والنذر خاص بالله، والذبح، وهكذا، وسيأتي مزيد بسط لهذا قريبا.

ـ الخلاصة:

العبادة بأنواعهاخاصة بالله، ولا يُعبد الرسول، لكن الطاعة تكون لله وللرسول، والمحبة تكون لله وللرسول، والإرضاء يكون لله وللرسول، وهكذا.

وَأما الْعِبَادَة وَمَا يُنَاسِبهَا من التَّوَكُّل وَالْخَوْف وَنَحْو ذَلِك فَلَا تكون إِلَّا لله وَحده كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التّوبَة: ٥٩] **فالإيتاء لله وَلِلرَّسُولِ كَقَوْلِه:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: ٧].

وَأما الْحسب وَهُوَ الْكَافِي فَهُوَ الله وَحده كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]. **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفَال: ٦٤]، **أَي حَسبك وَحسب من اتبعك من الْمُؤمنِينَ الله وَمن ظن أَن الْمَعْنى حَسبك الله والمؤمنون مَعَه فقد غلط غَلطا فَاحِشا كَمَا قد بسطناه فِي غير هَذَا الْمَوْضُوع.**

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

الشَّرْح

هذا فيه بيان الحقوق الخاصة بالله والحقوق المشتركة بين الله وبين الرسول:

ـ **فالحقوق الخاصة بالله هي:** العبادة؛ فلا يشاركه فيها أحد بجميع أنواعها؛ من الذبح، والنذر، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فجميع أنواع العبادة كلها خاصة بالله، والحسب والكفاية تكون بالله، فلا تقول يكفينا الله ويكفينا الرسول، فالحسب وهو الكافي هو الله وحده ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

﴿١٧٣﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]، فلا تقول: حسبي اللهُ والرسولُ، لأن هذا حق خاص بالله؛ إذن فالحسب والعبادة بجميع أنواعها والتوكل والخوف والرجاء كل هذا من حق الله، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفَال: ٦٤]، أي: حسبك: الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين: الله، أما من ظن المعنى أن الله والمؤمنين يحسبونك يا رسول الله فقد أخطأ خطئًا فاحشًا، فالحسب خاصة بالله، ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ يعني يكفيك الله ويكفي اتباعك من المؤمنين، ليس المعنى أن الله والمؤمنين يكفونك يا محمد كما ظنه بعضهم، وقد نبه على ذلك المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفَال: ٦٤] يعني حسبك الله، والحسب: معناه الكفاية، حسبُك وحسبُ أتباعِك اللهُ.

- **وهناك حقوق مشتركة بين الله وبين الرسول**، مثل: المحبة فهذه تكون لله وللرسول، والطاعة تكون لله وللرسول، والإرضاء يكون لله وللرسول، والإيتاء يكون لله وللرسول: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبَة: ٥٩]، فلا يخلط الإنسان بين حقوق الله الخاصة به وبين الحقوق المشتركة بين الله والرسول.

- **وهناك حقوق خاصة بالرسول** وهي: التوقير، والتعظيم، والإجلال والتعزير، كما قال الله تعالى في سورة الفتح ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعزروه وتوقروه هذا للرسول، والتعزير والتوقير أي: التقدير والإجلال، ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفَتْح: ٨-٩] هذا خاص بالله، فالتسبيح والتكبير والتهليل هذا حق الله لأنها عبادة، فلا تسبح الرسول ولا تهلل الرسول ولا تكبر الرسول ﷺ.

وتحرير ذَلِك أَن العَبْد يُرَاد بِهِ المعبّد الَّذِي عبّده الله فذلّله ودبّره وصرّفه.

وَبِهَذَا الِاعْتِبَار فالمخلوقون كلهم عباد الله الْأَبْرَار مِنْهُم والفجار والمؤمنون وَالْكفَّار وَأهل الْجنَّة وَأهل النَّار إِذْ هُوَ رَبهم كلهم ومليكهم لَا يخرجُون عَن مَشِيئَته وَقدرته وكلماته التامات الَّتِي لَا يجاوزهن بر وَلَا فَاجر؛ فَمَا شَاءَ كَانَ وَإِن لم يشاءوا. وَمَا شَاءُوا إِن لم يشأه لم يكن كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٣].

الشَّرْح

هذا فيه بيان أن العبد له معنيان: عبدٌ بمعنى المُعبَّد، وعبدٌ بمعنى العابد.

فالقسم الأول: أن العبد بمعنى المعبَّد، أي: الذي عبَّده اللهُ فذَلَّله ودبَّره وصرَّفه، فتَنْفُذ فيه مشيئة الله وقدرته، وهذا يشمل جميع المخلوقين، فجميع المخلوقين كلهم عباد الله سواء كانوا أبرارًا أو فجارًا، وسواء كانوا مؤمنين أو كفارًا، وسواء عرفوا أو لم يعرفوا، وسواء اعترفوا أو جحدوا، كلهم عبيد، **بمعنى:** أن الله دبَّرهم وصرَّفهم ونَفَذَت فيهم قدرته ومشيئته فلا أحد يخرج عن قدرة الله، **فمثلاً** لا أحد يمتنع عن الموت، ولا أحد يمتنع عن المرض الذي يصيبه، فلا أحد يمنع ما أراده الله، ولا أحد يستطيع هذا.

إذن كل الناس عبيدٌ للهِ، وهذه هي العبودية العامة، فكل عبد لله، رضي أو لم يرض، شاء أو لم يشأ، علم أو لم يعلم، اعترف أو أنكر: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مَريَم: ٩٣].

القسم الثاني: أن العبد بمعنى العابد، الذي عبَد الله باختياره فأطاع أمره وأمر رسوله، فصلى، وصام، وزكى وأدَّى فرائضَ اللهِ،

وأطاع أمر الله وأمر الرسول ﷺ ووالى أولياءه وعادى أعداءه باختياره، هذا عبد الله على الحقيقة، هذه هي العبودية الخاصة، التي من حققها أثابه الله.

أما العبودية العامة فهذه بدون اختيار الناس وبدون اختيار المخلوقين، فهم عبيد لله بدون اختيارهم ليس لهم خروج عن عبودية الله.

والعبودية التي يُمدح الإنسان ويُثنى عليه بها، هي **العبودية الخاصة**، التي تكون عن اختيار وعن طوع.

فالعبودية العامة لا يذم فيها أحد ولا يمدح فيها أحد، لأن الناس كلهم مشتركون فيها مؤمنهم وكافرهم، فكل الناس عبيد لله بمعنى العبودية العامة.

والعبودية الخاصة تكون عن اختيار المخلوق ورغبته فيعبد الله باختياره.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ رب الْعَالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قُلُوبهم ومصرف أُمُورهم لَا رب لَهُم غَيره وَلَا مَالك لَهُم سواهُ وَلَا خَالق لَهُم إِلَّا هُوَ سَوَاء اعْتَرَفُوا بذلك أَو أنكروه وَسَوَاء علمُوا ذَلِك أَو جهلوه؛ لَكِن أهل الْإِيمَان مِنْهُم عرفُوا ذَلِك وآمنوا بِهِ؛ بِخِلَاف من كَانَ جَاهِلا بذلك؛ أَو جاحدا لَهُ مستكبرا على ربه لَا يقر وَلَا يخضع لَهُ؛ مَعَ علمه بِأَن الله ربه وخالقه.

فالمعرفة بِالْحَقِّ إِذا كَانَت مَعَ الاستكبار عَن قبُوله والجحد لَهُ كَانَ عذَابا على صَاحبه كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

الشَّرْح

ذكرالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم فلا أحد يخرج عن هذا، وأنه تعالى هو مقلب قلوب العباد ومصرف أمورهم، قال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٣].

ولكن أهل الإيمان علموا بذلك واعترفوا به، أما الجاهل أو الجاحد المستكبر على ربه فهذا لا يقر ولا يخضع، لكن هو عبد سواء اعترف أو لم يعترف، وسواء علم أو لم يعلم، سواء اقر أو لم يقر، لكن إذا عرف واستكبر على عبادة الله تكون هذه المعرفة عذابًا عليه،

كما قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، أي: جحدوا بالآيات التي جاءت إليهم، فنفوسهم مستيقنة ولكن جحدوا ظلما وعلوا، فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين، وقال الله سبحانه عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني: الرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعرفون أنه رسول الله لكن ما آمنوا، **فهل تنفع هذه المعرفة؟**

الجواب: لا تنفع، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾. وقال عن كفار قريش: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لا يكذبونك في الباطن لكن يجحدون في الظاهر.

فَإِذا عرف العَبْد أَن الله ربه وخالقه وَأَنه مفتقر إِلَيْهِ مُحْتَاج إِلَيْهِ عرف الْعُبُودِيَّة الْمُتَعَلّقَة بربوبية الله.

وَهَذَا العَبْد يسْأَل ربه ويتضرع إِلَيْهِ ويتوكل عَلَيْهِ.

لَكِن قد يُطِيع أمره وَقد يعصيه وَقد يعبده مَعَ ذَلِك وَقد يعبد الشَّيْطَان والأصنام.

وَمثل هَذِه الْعُبُودِيَّة لَا تفرق بَين أهل الْجنَّة وَأهل النَّار وَلَا يصير بهَا الرجل مُؤمنا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦] فَإِن الْمُشْركين كَانُوا يقرونَ أَن الله خالقهم ورازقهم وهم يعْبدُونَ غَيره قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

الشَّرْح

○ قوله: (فَإِذا عرف العَبْد أَن الله ربه وخالقه وَأَنه مفتقر إِلَيْهِ مُحْتَاج إِلَيْهِ عرف الْعُبُودِيَّة الْمُتَعَلّقَة بربوبية الله): إذن **فالعبودية العامة** هي المتعلقة بربوبية الله، وأن الله هو رب كل شيء وخالقه ومليكه ومدبره.

وأما **العبودية الخاصة** فمتعلقة بألوهية الله وبعبادة الله وتوحيده والإخلاص له عن طواعية واختيار ورغبة ورهبة.

○ قوله: (وَهَذَا العَبْد يسْأَل ربه ويتضرع إِلَيْهِ ويتوكل عَلَيْهِ): والعبد هنا بمعنى: العابد الذي عبَد الله باختياره عبودية خاصة، وهو الذي يسأل ربه ويتضرع إليه.

○ قوله: (لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه..): وهذه العبودية العامة، فإذا عرف الإنسان أن الله ربه وخالقه وعرف أنه مفتقر إليه فقد اعترف بالربوبية العامة، **لكن** لا يكفي الوقوف عند الربوبية العامة؛ لأن **الناس الذين يعترفون بربوبية الله ينقسمون إلى قسمين:**

- منهم: من عبد الله عن إرادته واختياره.
- ومنهم: من وقف عند الربوبية العامة ولم يعبد الله.

○ قوله: (وَمثل هَذِه الْعُبُودِيَّة لَا تفرق بَين أهل الْجنَّة وَأهل النَّار): فالعبودية العامة لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة وأهل النار كلهم عبيد لله بمعنى العبودية العامة.

○ قوله: (وَلَا يصير بهَا الرجل مُؤمنا): هذا فيه بيان بأن المشركين أقروا بربوبية الله، **لكن** ما نفعهم هذا لأنهم ما عبدوا الله وما انقادوا لرسوله ولا اتبعوه، **فلا ينفع الاعتراف بالربوبية العامة وحدها.**

وَكثير مِمَّن يتَكَلَّم فِي الْحَقِيقَة فيشهدها لَا يشْهد إِلَّا هَذِه الْحَقِيقَة وَهِي الْحَقِيقَة الكونية الَّتِي يشْتَرك فِيهَا وَفِي شهودها وَفِي مَعْرفَتهَا الْمُؤمن وَالْكَافِر وَالْبر والفاجر بل وإبليس معترف بِهَذِهِ الْحَقِيقَة وَأهل النَّار قَالَ إِبْلِيس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحِجر: ٣٦] و ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحِجر: ٣٩].

وَقَالَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [صٓ: ٨٢] وَقَالَ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٦٢].

وأمثال هَذَا من الْخطاب الَّذِي يقر فِيهِ بِأَن الله ربه وخالقه وخالق غَيره.

الشَّرْح

○ قوله: (وَكثير مِمَّن يتَكَلَّم فِي الْحَقِيقَة فيشهدها لَا يشْهد إِلَّا هَذِه الْحَقِيقَة): المراد: الحقيقة الكونية، وهي الاعتراف بربوبية الله ونفوذ قدرته ومشيئته، وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر، حتى إبليس مقرٌ بها، وفرعون أيضا مقرٌ بها.

والدليل على أن إبليس معترف بالربوبية: ما ذكره المؤلف من الآيات الثلاث، بل صرح في الآية الأولى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، فهو معترف بربوبية الله، لكن ما نفعه؛ لأنه استكبر عن عبادة الله وامتثال أمره، وتخلفت العبودية الخاصة فما نفعه ذلك.

وَكَذَلِكَ أهل النَّار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٣٠].

فَمن وقف عِنْد هَذِه الْحَقِيقَة وَعند شهودها وَلم يقم بِمَا أَمر الله بِهِ من الْحَقِيقَة الدِّينِيَّة الَّتِي هِيَ عِبَادَته الْمُتَعَلّقَة بإلوهيته وَطَاعَة أمره وَأمر رَسُوله كَانَ من جنس إِبْلِيس وَأهل النَّار.

فَإِن ظن مَعَ ذَلِك أَنه من خَواص أَوْلِيَاء الله وَأهل الْمعرفَة وَالتَّحْقِيق، الَّذين سقط عَنْهُم الْأَمر وَالنَّهْي الشرعيان، كَانَ من أشر أهل الْكفْر والإلحاد.

الشَّرْح

فأهل النار أيضا قد اعترفوا بالربوبية العامة ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ لكن ما نفعهم هذا؛ **لأن العبودية الخاصة تخلفت.**

وهكذا من وقف عند الحقيقة الكونية ولم يعبد الله لم ينفعه ذلك،فيكون من جنس إبليس، فإن كان يظن بعض أولئك أنه من الأولياء وأنه يسقط عنه الأمر والنهي؛ يظن أنه إذا استغرق في شهود الحقيقة الكونية سقط عنه الأمر والنهي ـ كما يقول بعض الصوفية ـ كان شرًا من أهل الكفر والإلحاد والعياذ بالله.

والصوفية كما سيفصل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ **يظن بعضهم** أنه يكفي أن ينظر إلى ربوبية الله وعموم مشيئة ونفوذ قدرته ومشيئته،ولا يتمثل أوامر الله ولا يجتنب نواهيه، وأنه تسقط عنه التكاليف، وهؤلاء كما يقول المؤلف: **شر أهل الكفر والإلحاد.**

وَمن ظن أَن الخَضِرَ وَغَيره سقط عَنْهُم الْأَمر لمشاهدة الْإِرَادَة وَنَحْو ذَلِك، كَانَ قَوْله هَذَا من شَرّ أَقْوَال الْكَافرين بِاللَّه وَرَسُوله، حَتَّى يدْخل فِي النَّوْع الثَّانِي من معنى العَبْد، وَهُوَ العَبْد بِمَعْنى العابد، فَيكون عابدا لله، لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه، فيطيع أمره وَأمر رسله، ويوالي أولياءه الْمُؤمنِينَ الْمُتَّقِينَ ويعادي أعداءه.

وَهَذِه الْعِبَادَة مُتَعَلقَة بالإلهية لله تَعَالَى وَلِهَذَا كَانَ عنوان التَّوْحِيد لَا إِلَه إِلَّا الله بِخِلَاف من يقر بربوبيته وَلَا يعبده أَو يعبد مَعَه إِلَهًا آخر.

فالإله هُوَ الَّذِي يألهه الْقلب بِكَمَال الْحبّ والتعظيم والاجلال وَالْإِكْرَام وَالْخَوْف والرجاء وَنَحْو ذَلِك. وَهَذِه الْعِبَادَة هِيَ الَّتِي يُحِبهَا الله ويرضاها وَبهَا وصف المصطفين من عباده وَبهَا بعث رسله.

وَأما العَبْد بِمَعْنى المعبّد سَوَاء أقرّ بذلك أَو أنكرهُ فَهَذَا الْمَعْنى يشْتَرك فِيهِ الْمُؤمن وَالْكَافِر.

الشَّرْح

بعض الصوفية يظن أن الخضر لما قتل الغلام وخرق السفينة، أنه سقط عنه الأمر، وهذا كذب، **والصواب**: أن الخضر نبي يوحى إليه، وفعله هذا بوحي، ولهذا قال الله تعالى على لسان الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾ [الكهف: ٨٢].

وحتى على القول الثاني أنه عبدٌ لله، لا يسقط عنه الأمر.

○ قوله: (حَتَّى يدْخل فِي النَّوْع الثَّانِي من معنى العَبْد): هذا النوع الثاني من العبودية: (العَبْد بِمَعْنى العابد)، فالأول العبد بمعنى: المعبّد، وهي العبودية العامة، وهذا العبد بمعنى: العابد، وهي العبودية الخاصة، (فَيكون عابدا لله، لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه، فيطيع أمره وَأمر رسله، ويوالي أولياءه الْمُؤمنِينَ الْمُتَّقِينَ ويعادي أعداءه) وهذه هي العبودية الخاصة.

○ وقوله: (وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الَّتِي يُحِبهَا الله ويرضاها): هذه العبودية الخاصة متعلقة بإلهية الله، وسبق بيان أن العبودية العامة متعلقة بربوبية الله، والعبودية الخاصة متعلقة بإلهية الله وعبادته، والذي ينفع العبد هي العبودية الخاصة.

أما العبودية العامة فهذه مشتركة بين المؤمن والكافر؛ فالعبادة الخاصة المتعلقة بإلهية الله هي التي يحبها الله ويرضاها.

○ وقوله: (وَأما العَبْد بِمَعْنى المعبّد): فهذه العبودية العامة، العبد بمعنى المعبد.

وبالفرق بَين هذَيْن النَّوْعَيْنِ يعرف الْفرق بَين الْحَقَائِق الدِّينِيَّة الدَّاخِلَة فِي عبَادَة الله وَدينه وَأمره الشَّرْعِيّ الَّتِي يُحِبهَا ويرضاها ويوالى أَهلهَا ويكرمهم بجنته وَبَين الْحَقَائِق الكونية الَّتِي يشْتَرك فِيهَا الْمُؤمن وَالْكَافِر وَالْبر والفاجر الَّتِي من اكْتفى بهَا وَلم يتبع الْحَقَائِق الدِّينِيَّة كَانَ من أَتبَاع إِبْلِيس اللعين والكافرين بِرَبّ الْعَالمين وَمن اكْتفى فِيهَا فِي بِبَعْض الْأُمُور دون بعض أَو فِي مقَام [دون مقَام] أَو حَال [دون حَال] نقص من إيمَانه وولايته لله بِحَسب مَا نقص من الْحَقَائِق الدِّينِيَّة وَهَذَا مقَام عَظِيم غلط فِيهِ الغالطون وَكثر فِيهِ الِاشْتِبَاه على السالكين حَتَّى زلق فِيهِ من أكَابِر الشُّيُوخ المدّعين للتحقيق والتوحيد والعرفان مَا لَا يحصيهم إِلَّا الله الَّذِي يعلم السِّرّ والإعلان.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخ عبد الْقَادِر[1] رحمه الله فِيمَا ذكر عَنهُ فبيّن أَن كثيرا من الرِّجَال (إِذا وصلوا إِلَى الْقَضَاء وَالْقدر أَمْسكُوا إِلَّا أَنا فَإِنِّي انفتحت لي فِيهِ روزنة فنازعت أقدار الْحق بِالْحَقِّ للحق وَالرجل من يكون منازعا للقدر لَا من يكون مُوَافقا للقدر).

الشَّرْح

لابد من التفريق بين العبودية العامة والعبودية الخاصة، فمن وقف عند العبودية العامة كان من أتباع إبليس، ومن عبد الله العبودية الخاصة فهو من أتباع محمد ﷺ، وإذا حصل له نقص في العبادة حصل له من النقص في دينه بحسب النقص.

○ وقوله: (وَهَذَا مقَام عَظِيم غلط فِيهِ الغالطون): إذ كثير من

(١) هو عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جبلي دوست، أبو محمد الجيلي، وقيل: الجيلاني، وقيل: الكيلاني، شيخ الحنابلة في وقته، وله كرامات وأحوال معروفة مما جعل البعض يغلو فيه وفعلوا الطريقة القادرية الصوفية، وله كتاب: (الغنية) وهو مطبوع، توفي سنة (٥٦١)، انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨/ ١٧٣)، تاريخ الإسلام (٣٩/ ٨٦)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩)، البداية والنهاية (١٦/ ٤١٩)، شذرات الذهب (٦/ ٣٣٠)، وغيرهم.

شيوخ الصوفية وقفوا عند الربوبية العامة؛ وظنوا أن هذا يكفي، واعتقدوا أنه يسقط عنهم الأمر والنهي فهلكوا مع الهالكين.

○ وقوله: (وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخ عبد الْقَادِر): يريد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان أن الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ وهو من علماء الحنابلة ورجل صالح له كتاب الغنية، لكن مع الأسف له قبر يعبد ويُطاف به ـ يقول: إن الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ فيما ذكر: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ـ أي: يستسلمون إلى القضاء والقدر ولا يتحركون ـ ويقول أحدهم: قدّر الله عليّ المعصية، ثم لا يتوب، بل يستسلم للقضاء والقدر، فيقول: هذا غلط أما (أَنا فَإِنِّي انفتحت لي فِيهِ روزنة) **الروزنة هي**: الكُوّة، (فنازعت أقدار الْحق بِالْحَقِّ للحق) يعني: أنا لم أقف عند القدر، بل نازعت أقدار الحق ـ يعني: رؤيا الله ـ بالحق ـ يعني من أجل الحق ـ **والمعنى**: أنني لم أقف عند القدر بحجة أن المعصية مقدرة، بل إذا قدر الله عليَّ المعصية أتوب إلى الله وأدفع قدرا بقدر، فأدفع قدر المعصية بقدر الطاعة والتوبة.

أما كثير من الشيوخ فيقولون: هذه معصية مقدرة عليّ، أو هذا الكفر مقدر ـ نسأل الله العافية ـ، فيقول الشيخ عبدالقادر: هذا غلط، لا تسكت وتستسلم بل إذا وقعت في معصية فتب إلى الله، ولا تقل: المعصية مقدرة، بل قل: التوبة مقدرة، ونازع القدر بقدر، فإذا حصلت المعصية أتبعها بحسنة «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]، فتفعل الأوامر وتجتنب النواهي ولا تقف عند النظر إلى القدر.

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.ا.هـ ومسند الإمام أحمد (٢١٣٥٤)، والمستدرك للحاكم (١٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.ا.هـ ووافقه الذهبي.

وَالَّذِي ذكره الشَّيْخ رَحمَه الله هُوَ الَّذِي أَمر الله بِهِ وَرَسُوله وَلَكِن كثير من الرِّجَال غلطوا فِيهِ فَإِنَّهُم قد يشْهدُونَ مَا يقدّر على أحدهم من الْمعاصِي والذنُوب أَو مَا يقدّر على النَّاس من ذَلِك بل من الْكفْر وَيشْهدُونَ أَن هَذَا جَار بِمَشِيئَة الله وقضائه وَقدره دَاخل فِي حكم ربوبيته وَمُقْتَضى مَشِيئَته فيظنون الاستسلام لذَلِك وموافقته وَالرِّضَا بِهِ وَنَحْو ذَلِك دينا وطريقا وَعبادَة فيضاهئون الْمُشْركين الَّذين قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وَقَالُوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وَلَو هُدوا لعلموا أَن الْقدر أُمرنا أَن نرضى بِهِ وَنَصْبِر على مُوجبه فِي المصائب الَّتِي تصيبنا كالفقر وَالْمَرَض وَالْخَوْف قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ بعض السّلف:[1] هُوَ الرجل تصيبه الْمُصِيبَة فَيعلم أَنَّهَا من عِنْد الله فيرضى وَيسلم[2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

الشَّرْح

○ وقوله: (وَالَّذِي ذكره الشَّيْخ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ الَّذِي أَمر الله بِهِ وَرَسُوله): يعني أن الإنسان لا يحتج بالقدر على المعصية بل يتوب إلى الله، فإذا

(١) هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النخعي، أبو شبل الكوفي، توفي بعد سنة (٦٠)، وقيل بعد (٧٠)، انظر: ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٨٦)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٠)، وتاريخ دمشق (٤١/ ١٥٤)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٣/ ١٢)، والسنن الكبرى للبيهقي (٤/ ١١٠).

استسلم لذلك صار موافقاً للمشركين الذين يحتجون بالقدر ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ فاحتجوا بالمشيئة.

○ وقوله: (وَلَو هُدوا لعلموا أَن الْقدر أُمرنا أَن نرضى بِهِ...): هكذا يصبر الإنسان على المصائب ويرضى بما قضى الله وقدر، ويفعل الأسباب المشروعة، وعليه أن يصبر وألا يجزع، فإذا صبر كفر الله بالمصيبة خطاياه، والصبر معناه: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي، وحبس الجوارح عما يغضب الله.

أما الرضا بالمصيبة فهو مستحب، فيكون مع الصبر رضًا وطمأنينة.

والمسلم إذا لم يصبر على المصائب، فهذا يدل على ضعف إيمانه وقلة يقينه، قال الحسن البصري: «والله لنصبرن أو لنهلكن»، فالمؤمن صابر على البلاء، شاكر عند النعمة، مستغفر عند الذنوب والمعاصي.

ولا شك أن البلاء والمصائب والدنيا كلها اختبار وامتحان، كما أن الفقر والشدة والمرض كلها ابتلاء وامتحان، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْن عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «احْتج آدم ومُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْت آدم الَّذِي خلقك الله بِيَدِهِ وَنفخ فِيك من روحه وأسجد لَك مَلَائِكَته وعلمك أَسمَاء كل شَيْء فلماذا أخرجتنا ونفسك من الْجنَّة؟ فَقَالَ آدم: أَنْت مُوسَى الَّذِي اصطفاك الله بِرِسَالَاتِهِ وبكلامه فَهَل وجدت ذَلِك مَكْتُوبًا عَليّ قبل أَن أخلق؟ قَالَ: نعم قَالَ: فحج آدم مُوسَى»(١).

وآدَم عَلَيْهِ السَّلَام لم يحْتَج على مُوسَى بِالْقدرِ ظنا أَن المذنب يحْتَج بِالْقدرِ فَإِن هَذَا لَا يَقُوله مُسلم وَلَا عَاقل وَلَو كَانَ هَذَا عذرا لَكَانَ عذرا لإبليس وَقوم نوح وَقوم هود وكل كَافِر وَلَا مُوسَى لَام آدم أَيْضا لأجل الذَّنب فَإِن آدم قد تَابَ إِلَى ربه فاجتباه وَهدى وَلَكِن لامه لأجل الْمُصِيبَة الَّتِي لحقتهم بالخطيئة وَلِهَذَا قَالَ: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الْجنَّة؟(٢) فَأَجَابَهُ آدم: إِن هَذَا كَانَ مَكْتُوبًا عليّ قبل أَن أُخلق.

فَكَانَ الْعَمَل والمصيبة المترتبة عَلَيْهِ مقدّرا وَمَا قدّر من المصائب يجب الاستسلام لَهُ فَإِنَّهُ من تَمام الرِّضَا بِاللَّه رَبًّا.

الشَّرْح

هذه القصة التي وقعت بين آدم عليه السلام وموسى عليهما الصلاة والسلام، هو أن موسى عليه الصلاة والسلام لام آدم فقال:

كيف أخرجتنا ونفسك من الجنة، فاحتج آدم بأن هذا مكتوب عليه، قال ﷺ: «**فحجّ آدم موسى**» وفي لفظ: كرر ثلاثا: فقال: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»، **والمعنى**: غلبه وخصمه

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد (٣٤٠٩)، صحيح مسلم، كتاب القدر (٢٦٥٢).

(٢) هذه الزيادة أخرجها أبو داود في السنن، كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٢)، ولفظه: «فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟»

بالحجة، وذلك أن موسى لام آدم على المصيبة وهي الخروج من الجنة، فقال آدم: المصيبة مكتوبة علي، فلذلك غلبه بالحجة، **والإنسان لا يلام على الذنب بعد أن تاب منه.**

ولا يزال أهل العلم يبينون معنى هذا الحديث، ويردون على من لم يفهم هذا الحديث من المعتزلة الذين يقولون بخلق أفعال العباد، ومن الجبرية الذين يقولون: إن العباد مجبورون على أفعالهم،قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد رد هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجبائي ومن وافقه على ذلك، ولو صح ـ أي: الاحتجاج بالقدر ـ لبطلت نبوات الأنبياء؛ فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي فإن العاصي بترك الأمر أو فعل النهي إذا صحت له الحجة بالقدر السابق ارتفع اللوم عنه وهذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته)[(١)].

ـ الخلاصة:

الذنب قبل التوبة منه ليس حجةً، ولو كان الذنب حجة لكان حجة لكل كافر، **فالمقصود**: أن آدم غلب موسى بالحجة؛ لأنه احتج بالقدر على المصيبة **أو** على الذنب بعد التوبة.

(١) شفاء العليل: (ص١٣).

وَأما الذُّنُوب فَلَيْسَ للْعَبد أَن يُذنب وَإِذا أذْنب فَعَلَيهِ أَن يسْتَغْفر وَيَتُوب، فيتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠]. وَقَالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦].

وَقَالَ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يُوسُف: ٩٠].

الشَّرح

○ وقوله: (وأما الذنوب، فليس للعبد أن يذنب): هكذا المسلم يجاهد نفسه دائما حتى لا يقع في الذنب فإذا وقع في الذنب جاهد نفسه بالتوبة، والمصيبة يصبر عليها، كما قال شيخ الإسلام هنا: (فيتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب) وبنحوه ما قاله المؤلف في اقتضاء الصراط المستقيم: (العبد مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب، ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب)[(١)]، وقال رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى: (والعبد مأمور عند المصائب أن يرجع للقدر فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور ويترك المحظور ويسلم للمقدور)[(٢)].

فإذا تاب العبد توبة نصوحاً محا الله بها الذنب، وإذا أتبعه بالعمل الصالح بدل الله سيئاته حسنات فضلًا من الله وإحسانًا؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفُرقان: ٧٠]

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (٢/ ٣٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٥٣).

وجوب الأمر بالمعروف

وَكَذَلِك ذنُوب الْعباد يجب على العَبْد فِيهَا أَن يَأْمر بِالْمَعْرُوفِ وَينْهى عَن الْمُنكر بِحَسب قدرته ويجاهد فِي سَبِيل الله الْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ ويوالي أَوْلِيَاء الله ويعادي أَعدَاء الله وَيُحب فِي الله وَيبغض فِي الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ١-٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح

سبق بيان موقف العبد من ذنوبه، فالإنسان ليس له أن يذنب فإذا وقع في الذنب تاب منه، وصبر على المصائب، أما ذنوب غيره فموقفه: أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد في سبيل الله، فيجاهد الكفار بالسلاح والمال، ويجاهد المنافقين بالحجة والبيان،

ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله.

وهكذا بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن موقف المؤمنين الموالاة في الله والمعاداة في الله، إذ كل دين سوى دين الإسلام باطل، ولابد من أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وبطلان الأديان غير دين الله، وتتبرأ منها وتنكرها وتبغضها وتعاديها، فهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤]، فلابد من البراءة، ولابد من أن تكفر بما عليه اليهود والنصارى من الأديان، وتعاديهم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجَادلة: ٢٢] وهذا هو موقف الإنسان من ذنوب العباد؛ فالإنسان يجاهد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في سبيل الله، يوالي في الله ويعادي في الله ويبغض في الله ويحب في الله.

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]. **وقال:** ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٢]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [الزمر: ٢٩]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥-٧٦]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

ونظائر ذَلِك مِمَّا يفرّق الله فِيهِ بَين أهل الْحق وَالْبَاطِل وَأهل الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة وَأهل الْبر والفجور وَأهل الْهدى والضلال وَأهل الغي والرشاد وَأهل الصدْق وَالْكذب.

الشَّرح

هذه الآيات فيها بيان الفرق بين المؤمنين والكفار، وبين الأبرار والفجار: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]. وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥].

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٢١]. في الآيات إنكار من الله سبحانه على مَن جوَّز أن يسوي بين هذا وهذا، وإنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيئ قبيح، وهو ما ينزه الرب عنه.

وقد بيَّن الله سبحانه الفرق بين المشرك والكافر بضرب الأمثلة؛

فضرب الله مثلاً في بيان حسن التوحيد وقبح الشرك.

وضرب الله مثلاً في عبد مملوك لا يقدر على شيء.

وضرب الله مثلاً في رجلين أحدهما أبكم.

وكل هذا في بيان حسن التوحيد وقبح الشرك، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحَشر: ٢٠]، فلا بد من التفريق فمن لم يفرق صار من أهل العبودية العامة، ومن فرق بينهم صار من أهل العبودية الخاصة.

فَمن شهد الْحَقِيقَة الكونية دون [الْحَقِيقَة] الدِّينِيَّة سوّى بَين هَذِه الْأَصْنَاف الْمُخْتَلفَة الَّتِي فرق الله بَينهَا غَايَة التَّفْرِيق.

حَتَّى تئول بِهِ هَذِه التَّسْوِيَة إِلَى أَن يسوّي بَين الله وَبَين الْأَصْنَام كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨].

بل قد آل الْأَمر بهؤلاء إِلَى أَن سوّوا الله بِكُل مَوْجُود وَجعلُوا مَا يسْتَحقّهُ من الْعِبَادَة وَالطَّاعَة حَقًّا لكل مَوْجُود إِذْ جَعَلُوهُ هُوَ وجودَ الْمَخْلُوقَات.

وَهَذَا من أعظم الْكفْر والإلحاد وَالْكفْر بِرَبّ الْعباد.

وَهَؤُلَاء يصل بهم الْكفْر إِلَى أَنهم لَا يشْهدُونَ أَنهم عباد الله لَا بِمَعْنى أَنهم معبّدون وَلَا بِمَعْنى انهم عَابِدُونَ

الشَّرْح

من شهد **الحقيقة الكونية** وهي: ربوبية الله العامة = **سوى** بين المؤمن والكافر، وبين البر والفاجر.

ومن شهد **الحقيقة الدينية** = **فرق** بينهم.

○ وقوله: (حَتَّى تئول بِهِ هَذِه التَّسْوِيَة إِلَى أَن يسوّي بَين الله وَبَين الْأَصْنَام كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨]): كلامهم هذا في النار، وهم يندمون على أن سووا الأصنام برب العالمين، يقولونها للذين عبدوهم؛ لأن العابدين والمعبودين كلهم دخلوا النار، فلما كانوا في دركات النار صار بينهم محاورة، فاعترف الذين عبدوا الرؤساء والكبراء، فقالوا: لقد كنا في الدنيا في ضلال مبين، وأقسموا على ذلك فقالوا: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨].

ووجه ضلالهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨]، وما سووهم بأنهم يخلقون أو يرزقون أو يضرون أو ينفعون، وإنما سووهم بالمحبة والتعظيم والإجلال والدعاء والذبح والنذر، فلما سووهم بالمحبة والإجلال والتعظيم كانوا معهم في النار، وكونهم أشركوا بالله في توحيد العبادة نقض إقرارهم بتوحيد الربوبية، وصيرهم كمن سوى بين الأصنام وبين رب الأنام.

○ وقوله: (بل قد آل الْأَمر بهؤلاء إِلَى أَن سوّوا الله بِكُل مَوْجُود): هؤلاء هم في **المرتبة الأولى**: الاتحادية؛ الذين يقولون اتحد الخالق والمخلوق، فالخالق والمخلوق شيء واحد، الرب هو العبد، والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، هؤلاء تجاوزوا شهود الحقيقة الكونية بل إنهم قالوا إن الوجود واحد، وما فرقوا بين الخالق وبين المخلوق فهم أعظم الناس كفرًا، فأعظم الناس كفرا الاتحادية.

○ وقوله: (وَهَؤُلَاء يصل بهم الْكفْر إِلَى أَنهم لَا يشْهدُونَ أَنهم عباد الله) أي: لا بمعنى أنهم معبَّدون العبودية العامة، ولا بمعنى أنهم عابدون العبودية الخاصة، فلا هذا ولا هذا، وبذلك تجاوزوا النوعين فشهدوا على أنفسهم أنهم هم الخالقون والمخلوقون، هم الرب والعبد جميعًا ـ نعوذ بالله ـ، وممن يقول بهذا القول: ابن عربي ـ رئيس وحدة الوجود ـ وابن سبعين، والملاحدة الذين جحدوا الوجود.

• خلاصة ما سابق:

١ ـ أن **العبادة**: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

٢ ـ بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن **العبودية تنقسم إلى قسمين**:

القسم الأول: عبودية عامة.

القسم الثاني: عبودية خاصة.

والعبودية العامة هي ربوبية الله، شامل لكل مخلوق، كل مخلوق هو عبد لله بمعنى أنه معبَّد مدبر تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، رضي أو لم يرض.

أما العبودية الخاصة فهي متعلقة بإلهيته سبحانه وتعالى وطاعة أمره وأمر رسوله.

والذي يعبد الله عن طواعيةٍ واختيارٍ هم المؤمنون، وهذه العبودية خاصة بالمؤمنين.

أما العبودية العامة فهي شاملة للمؤمن والكافر.

٣ ـ بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن من الناس من يشهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، والحقيقة الكونية هي: ربوبية الله العامة لكل شيء، فبعض الناس يشهد الحقيقة الكونية، أي: يشهد ربوبية الله لكل شيء وأنه تنفذ فيه قدرته ومشيئته، ويقف عند هذا الحد، ولا يتجاوزها إلى الحقيقة الدينية وهي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسولهﷺ.

إِذْ يشْهدُونَ أنفسهم هِيَ الْحق كَمَا صرح بذلك طواغيتهم كَابْن عَرَبِيّ صَاحب (الفصوص) وَأَمْثَاله من الْمُلْحِدِينَ المفترين كَابْن سبعين وَأَمْثَاله وَيشْهدُونَ أَنهم هم العابدون والمعبودون.

الشَّرْح

الذين يشهدون الحقيقة الكونية ويقفون عندها بيَّن المؤلفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنهم أقسام؛ وأنه قد يصل الحال ببعض الذين يشهدون الحقيقة الكونية إلى أن يصلوا إلى القول بوحدة وجودها، وهذا غاية الكفر، نسأل الله العافية.

ـ **القسم الأول:** الذين يشهدون الحقيقة الكونية من **غلاة الصوفية** قد يصل بهم الأمر إلى القول بوحدة الوجود ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ يعني يشهدون بربوبية الله في كل شيء وأن قدرته نافذة في كل شيء، وأنه لا خروج له عن إرادة الله، ثم يصل به الحال إلى أنه يتجاوز هذا فيرى نفسه أنه هو الله، وأنه هو الخالق والمخلوق، وهو العبد وهو المعبود، فتجاوزوا الحقيقة الدينية، وهؤلاء **بلغوا الغاية في الكفر** ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ حيث يقولون بوحدة الوجود؛ وسبب ذلك: غلوهم في شهود الحقيقة الكونية.

ـ **القسم الثاني:** يحتجون بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة؛ فيحتجون بالقدر احتجاجا مطلقًا عاما.

ـ **القسم الثالث:** يرون أن الشريعة والتكاليف لازمة لمن أثبت لنفسه صفات وأثبت لنفسه أفعالا، فمن أثبت لنفسه أفعالاً وأثبت لنفسه صفات فالتكاليف لازمة له، أما من شهد إرادة الله الكونية ولم يجعل لنفسه صفات ولا أفعال فإنه يسقط عنه التكاليف، **ويقسمون الناس إلى قسمين:**

١ ـ قسم الخاصة.

٢ ـ قسم العامة.

فالعامة: لازمة عليهم التكاليف، والأوامر والنواهي.

والخاصة: ـ الذين شهدوا الإرادة الكونية، وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة لله ـ: تسقط عنهم التكاليف.

ـ **القسم الرابع**: يؤدون الواجبات وينتهون عن المحرمات إلا أنهم يتركون الأسباب التي أمروا بها شرعًا، وهذا نقص عظيم، وقد تكون الأسباب واجبة وقد تكون مستحبة.

ـ **القسم الخامس**: يفعلون الواجبات لكن يتركون المستحبات، فهؤلاء يحصل لهم نقص عظيم ويفوتهم خير عظيم من الثواب ومن الأجر.

ـ **القسم السادس**: يشتغلون بما يحصل لأحدهم من بعض خوارق العادات إما مكاشفة أو استجابة دعاء فيشتغل بذلك عما أمر به من عبادة الله وشكره.

هذه أقسام الناس الذين يحتجون بالقدر، وقد بيَّنهم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: **(إِذْ يشْهدُونَ أنفسهم هِيَ الْحق كَمَا صرح بذلك طواغيتهم كَابْن عَرَبِيّ صَاحب (الفصوص) وَأَمْثَاله من الْمُلْحِدِينَ المفترين كَابْن سبعين وَأَمْثَاله وَيشْهدُونَ أَنهم هم العابدون والمعبودون)** هذا هو القسم الأول ممن شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية يسوون بين الأجناس المختلفة، يسوون بين المؤمنين وبين الكفار، وبين الأبرار وبين الفجار، بل يسوون بين الله وبين الأصنام، بل يصل بهم الحال إلى أن يجعلوا وجوده واحدا، فيجعلون الخالق عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق، والرب عين العبد، والعبد عين الرب، فلا يشهدون أنفسهم أنهم معبَّدون ولا عابدون، بل يشهدون أنفسهم هم المعبود وهم العابد، وهم الرب وهم العبد، وهم الخالق وهم المخلوق.

ومن هؤلاء الملاحدة رئيسهم: ابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني وغيرهم، حتى يقول ابن عربي من أبياته المشهورة:

العبد ربٌّ والرب عبدٌ ... يا ليت شعريْ مَن المكلف
إن قلت: عبدٌ فذاك ربٌّ ... أو قلت: ربٌّ أنَّى يكلف[1]

يقول ما الفرق بينهم؟ العبد هو الرب، والرب هو العبد، فأيهما المكلف؟

ومن كلماته يقول: رب مالك وعبد هالك وأنتم ذلك.

ويقول أيضاً: من أسماء الله الحسنى العلي، ثم يقول علي على ماذا؟

وما سمي إله وعن ماذا وما هو إله، هكذا ـ والعياذ بالله ـ.

ويقول: إن كل شيء تراه في الوجود هو الله، سر حيث شئت فإن الله ثَمَّ، وقل ما شئت فيه فالواسع الله، كل شيء تراه هو الله، وهذا التعدد هو وحده[2].

هكذا يصل الحال بهؤلاء الذين يقولون: بوحدة الوجود، يقولون: ليس ثَمّ رب ولا عبد، فأنت العبد وأنت الرب، وأنت الخالق وأنت المخلوق.

ـ ويقولون: هذه مظاهر لتجلي الحق، فالله يتجلى بصورة معبود؛ كما تجلّى في صورة فرعون، ويتجلى في صورة هادٍ؛ كما تجلى في صورة الرسل.

ـ ويقولون: كل من عبد شيئًا فهو على صواب، فالذي يعبد الأصنام على حق، والذي يعبد النار على حق، والذي يعبد الأشجار على حق، كل شيء يكون على حق ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) الفتوحات المكية (٢/ ١)، وانظر في الكلام على البيتين وبيان ما فيهما من الإلحاد في مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢/ ١١١-١٢٠) و(١٤/ ١١-١٢).

(٢) انظر: فيما ذكر من كلام ابن عربي في: الفتوحات المكية (٢/ ٦٠٤) والفصوص، ص (٣٧٤).

ـ ويقولون: الذي يخصص ويقول: لا أعبد إلا شيئاً واحدًا فهذا هو الكافر؛ **فعندهم الكفر في التخصيص**، يقولون: الله واسع كل شيء.

وابن عربي له معارضات يعارض فيها القرآن الكريم وقصة قوم نوح، وقصة قوم هود،ولهم معارضات ورموز ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ حتى إنهم يقولون: إن فرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، هو على حق وعلى صواب، وعباد الأصنام كذلك على صواب، ويعللون غرق فرعون فيقولون: لأنه ظن أنه هو المعبود فقط، فأغرق وطهر فصار إغراقه تطهيرًا له ليزول الحسبان والتوهم الذي توهم أنه هو المعبود فقط.

هكذا يقولون ـ نعوذ بالله ـ وهذه هي **الطائفة الأولى** كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، الذين شهدوا الحقيقة الكونية يسوون بين الخالق وبين المخلوق وبين العابد وبين المعبود يشهدون أنفسهم هي الحق، يعني هو الله.

وَهَذَا لَيْسَ بِشُهُود للْحَقِيقَة لَا الكونية وَلَا الدِّينِيَّة بل هُوَ ضلال وعمىً عَن شُهُود الْحَقِيقَة الكونية حَيْثُ جعلُوا وجود الْخَالِق هُوَ وجود الْمَخْلُوق وَجعلُوا كل وصف مَذْمُوم وممدوح نعتا للخالق وللمخلوق إِذْ وجود هَذَا هُوَ وجود هَذَا عِنْدهم.

وَأما الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَرَسُوله عوامهم وخواصهم الَّذين هم أهل الْقُرْآن كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «إِن لله أهلين من النَّاس» قيل: من هم يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «أهل الْقُرْآن هم أهل الله وخاصته»(١).

فَهَؤُلَاءِ يعلمُونَ أَن الله رب كل شَيْء ومليكه وخالقه وَأَن الْخَالِق سُبْحَانَهُ مباين للمخلوق لَيْسَ هُوَ حالّاً فِيهِ وَلَا متّحدًا بِهِ وَلَا وجودُه وجودَه.

وَالنَّصَارَى إِنَّمَا كفّرهم الله إِذْ قَالُوا بالحلول واتحاد الرب بالمسيح خَاصَّة فَكيف من جعل ذَلِك عَاما فِي كل مَخْلُوق؟

الشَّرْح

هذا هو الذي عليه المؤمنون عوامّهم وخواصهم ـ أي: علماؤهم وغير علمائهم ـ وأهل الله هم أهل القرآن؛ يفرقون بين الخالق والمخلوق، ويقولون: إن الخالق مباين للمخلوق منفصل عنه، ليس الله تعالى حال في شيء من مخلوقاته، بل هو سبحانه وتعالى فوق العرش بعد أن تنتهي المخلوقات التي سقفها عرش الرحمن، فالله سبحانه وتعالى فوق العرش لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، هذا هو قول جميع الطوائف ما عدا هؤلاء

(١) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٥)، وسنن الإمام أحمد (١٢٢٧٩)، وسنن النسائي الكبرى (٧/ ٢٦٣)، والمستدرك للحاكم (٢٠٤٦)، من طريق عبد الرحمن بن بُديل عن أبيه بديل بن ميسرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه به؛ قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٢٤٩): وصححه الحاكم، وقال: إنه روي من ثلاثة أوجه، عن أنس هذا مثلها.ا.هـ.

الملاحدة ـ نعوذ بالله ـ، وهم أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوا الله في صورة عيسى.

فالنصارى يقولون: إنهم رأوا الله في صورة عيسى، وهؤلاء الضلال يقولون: إنهم رأوه في كل مكان تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ويعلمون مَعَ ذَلِك أَن الله أَمر بِطَاعَتِهِ وَطَاعَة رَسُوله وَنهى عَن مَعْصِيَته ومعصية رَسُوله وَأَنه لَا يحب الْفساد وَلَا يرضى لِعِبَادِهِ الْكفْر وَأَن على الْخلق أَن يعبدوه فيطيعوا أمره ويستعينوا بِهِ على ذَلِك كَمَا قَالَ فِي فَاتِحَة الْكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وَمن عِبَادَته وطاعته: الْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر بِحَسب الْإِمْكَان وَالْجهَاد فِي سَبيله لأهل الْكفْر والنفاق فيجتهدون فِي إِقَامَة دينه مستعينين بِهِ رافعين مزيلين بذلك مَا قدر من السَّيِّئَات دافعين بذلك مَا قد يخَاف من آثَار ذَلِك كَمَا يزِيل الْإِنْسَان الْجُوع الْحَاضِر بِالْأَكْلِ وَيدْفَع بِهِ الْجُوع الْمُسْتَقْبل.

وَكَذَلِكَ إِذا آن أَوَان الْبرد دَفعه باللباس وَكَذَلِكَ كل مَطْلُوب يدْفع بِهِ مَكْرُوه كَمَا قَالُوا للنَّبِي ﷺ: يَا رَسُول الله أَرَأَيْت أدوية نتداوى بهَا ورقى نسترقي بهَا وتقى نتقي بهَا هَل ترد من قدر الله شَيْئا؟ فَقَالَ: «هِيَ من قدر الله»(١). وَفِي الحَدِيث: «إِن الدُّعَاء وَالْبَلَاء ليلتقيان فيعتلجان بَين السَّمَاء وَالْأَرْض»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية (٢١٤٨)،وقال: حديث حسن.ا.هـ.
وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧)، والإمام أحمد في مسنده (١٥٤٧٢)، من رواية أبي خزامة، ورواه ابن حبان في صحيحه (٦١٠٠) من رواية كعب بن مالك رضي الله عنه، ورواه الحاكم في المستدرك (٨٢٢٣) من رواية حكيم بن حزام رضي الله عنه، وسكت عنه الذهبي.

(٢) مسند البزار (٨١٤٩)، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الحاكم (١٨١٣)، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .ا.هـ
والطبراني في (الدعاء) (٣٣)، من رواية عائشة رضي الله عنها، ولا يخلو سند منهما من مقال، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٩): رواه البزار، وفيه إبراهيم بن خثيم وهو متروك.ا.هـ
وقال عن سند الحاكم والطبراني: فيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور.ا.هـ.

فَهَذَا حَال الْمُؤمِنِينَ بِاللَّه وَرَسُوله العابدين لله وكل ذَلِك من الْعِبَادَة.

الشَّرْح

هذه حال المؤمنين بالله يجاهدون أنفسهم في أداء الفرائض والانتهاء عن المحارم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحتجون بالقدر، وإن كان كل شيء مقدّر، لكن يدفعون قدرًا بقدر.

فإذا وقعت في منكر وإن كان مقدرًا، فعليك أن تدفعه بِقَدَرٍ آخر وتزيله بالتوبة، وإن كان الواقع في المنكر غيرك فتقوم بالنصيحة وبتغيير المنكر، وهكذا... كما أن الإنسان مقدر عليه الجوع لكن هل يستسلم للجوع أم يأكل؟! فالجوع مقدر، والشبع مقدر، والأكل مقدر؛ فأنت تدفع قدرًا بقدر.

والبرد مقدر، لكن هل تستسلم للبرد ولا تستدفئ؟

الجواب: أنك تستدفئ فهذا قدر وهذا قدر.

فكذلك إذا وقعت المعصية لا تستسلم للمعصية بل تتوب إلى الله، وكذلك إذا وجدت أحدًا يعمل المعصية فإنك تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، ولا تقل: هذا مقدر، وتسكت؛ **فكلٌ مقدر؛ الشيء وضده**، كلاهما مقدر، كما في الحديث: «**إن الدعاء والبلاء ليلتقيان**»[(١)]، والدعاء والبلاء كلاهما مقدر، ومع ذلك أنت مأمور بالدعاء، والدعاء سبب من أسباب الإجابة، فالله قدر السبب والمسبب، فلا يخرج الدعاء عن القدر، والله تعالى قدر أن يكون شفاء المريض بهذا السبب وهو الدعاء، وقدر أن هذا لا يشفى بترك الدعاء.

(١) سبق تخريجه قريبا.

لا احتجاج بالقدر في مخالفة الشريعة

وَهَؤُلَاء الَّذين يشْهدُونَ الْحَقِيقَة الكونية وَهِي ربوبيته تَعَالَى لكل شَيْء ويجعلون ذَلِك مَانِعا من اتِّبَاع أمره الديني الشَّرْعِيّ على مَرَاتِب فِي الضلال:

فغلاتهم يجْعَلُونَ ذَلِك مُطلقًا عَاما فيحتجون بِالْقدرِ فِي كل مَا يخالفون فِيهِ الشَّرِيعَة.

وَقَول هَؤُلَاءِ شَرّ من قَول الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَهُوَ من جنس قَول الْمُشْركين الَّذين قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعَام: ١٤٨]، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزّخرُف: ٢٠].

الشَّرْح

هؤلاء في **المرتبة الثانية** بعد الاتحادية، فالاتحادية يتجاوزن الحقيقة الكونية فيجعلون أنفسهم هم الخالقون وهم المخلوقون، ثم يأتي هؤلاء يشهدون الحقيقة الكونية ويحتجون بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة، فهؤلاء في المرتبة الثانية.

وَهَؤُلَاء من أعظم أهل الأَرْض تناقضا بل كل من احْتج بِالْقدرِ فَإِنَّهُ متناقض فَإِنَّهُ لَا يُمكنهُ أَن يُقَرّ كل آدَمِيّ على مَا يفعل فَلَا بُد إِذا ظلمه ظَالِم أَو ظلم النَّاس ظَالِم وسعى فِي الأَرْض بِالْفَسَادِ وَأخذ يسفك دِمَاء النَّاس ويستحل الْفروج وَيهْلك الْحَرْث والنسل وَنَحْو ذَلِك من أَنْوَاع الضَّرَر الَّتِي لَا قِوام للنَّاس بهَا أَن يدْفع هَذَا القدَر وَأَن يُعَاقب الظَّالِم بِمَا يكف عدوانه وعدوان أَمْثَاله فَيُقَال لَهُ: إِن كَانَ الْقدر حجَّة فدع كل أحد يفعل مَا يَشَاء بك وبغيرك وَإِن لم يكن حجَّة بَطل أصل قَوْلك: [إِن الْقدر] حجَّة.

وَأَصْحَاب هَذَا القَوْل الَّذين يحتجون بِالْحَقِيقَةِ الكونية لَا يطردون هَذَا القَوْل وَلَا يلتزمونه وَإِنَّمَا هم يتبعُون آراءهم وأهواءهم كَمَا قَالَ فيهم بعض الْعلمَاء: أَنْت عِنْد الطَّاعَة قدَري وَعند الْمعْصِيَة جَبْري أيُّ مَذْهَب وَافق هَوَاك تمذهبت بِهِ.

الشَّرْح

هؤلاء الذين يحتجون بالقدر في كل شيء متناقضون، ولا يستطيعون أن يحتجوا بالقدر في كل شيء، بل هم يحتجون به في أمور الدين، فإذا تركوا الواجبات احتجوا بالقدر، وإذا فعلوا المحرمات احتجوا بالقدر، **لكن في أمور دنياهم لا يحتجون بالقدر**، لو جاء إنسان وضربه لا يقول هذا مقدر ويسكت، بل يطالب بحقه، ولو جاء إنسان وأخذ ماله فإنه يطالب بحقه، ولا يسكت، ولو جاء إنسان وقطع عضوا منه لا يسكت ولا يقول هذا مقدر، فيقال له: لا تناقض إن كان القدر حجة فدع كل شيء يفعل بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك، فلماذا تحتج به في أمور الدين ولا تحتج به في أمور الدنيا؟!

○ وقوله: (وَأَصْحَاب هَذَا القَوْل الَّذين يحتجون بِالْحَقِيقَةِ الكونية): أي: أنهم لا يطّردون هذا؛ فلا يستمرون على مذهبهم

ويحتجون به في كل شيء، بل يحتجون به فيما يناسبهم ولا يحتجون به فيما لا يناسبهم، فإذا أراد أحدهم ترك الأوامر وفعل النواهي احتج بالقدر، وإذا أراد أن يطالب بحقوقه الدنيوية لم يحتجّ به، فصار متناقضًا.

وَمِنْهُم صنف يدّعون التَّحْقِيق والمعرفة ويزعمون أَن الْأَمر وَالنَّهْي لَازم لمن شهد لنَفسِهِ أفعالا وَأثبت لَهُ صِفَات أما من شهد أَن أَفعاله مخلوقة أَو أَنه مجبور على ذَلِك وَأَن الله هُوَ الْمُتَصَرف فِيهِ كَمَا يُحَرك سَائِر المتحركات فَإِنَّهُ يرْتَفع عَنهُ الْأَمر وَالنَّهْي والوعد والوعيد.

وَقد يَقُولُونَ: من شهد الْإِرَادَة سقط عَنهُ التَّكْلِيف ويزعمون أَن الْخضر سقط عَنهُ التَّكْلِيف لشهوده الْإِرَادَة.

الشَّرْح

هذا أصلهم الثالث؛ وهو أنهم يقسمون الناس إلى قسمين:

- **القسم الأول:** قسم عليهم التكاليف.
- **القسم الثاني:** قسم ليس عليهم التكاليف.

فالقسم الأول: العامة، الذين عليهم التكاليف، وهم: الذين أثبتوا أفعالاً لأنفسهم، وهؤلاء يسمَّون: أهل الشريعة؛ عليهم أوامر وعليهم نواهي، ويجب عليهم أن يلتزموا بالشريعة.

والقسم الثاني: الخاصة، الذين لم يثبوا لأنفسهم أفعالاً ولا صفات، بل جعلوا أفعالهم هي أفعال الله وشهدوا إرادة الله، يشهدون الإرادة يعني: يشهدون إرادة الله الكونية فقط، وينسون أنفسهم حتى إن صفاتهم يجعلونها من صفة الله، فهؤلاء تسقط عنهم التكاليف ولا تكون عليهم تكاليف لا أوامر ولا نواهي، يفعلون ما يشاؤون.

فعندهم أن الناس قسمين: فالعامة يلتزمون بالشريعة، والخاصة لا يلتزمون بل قد ارتفعوا وتجاوزوا الشريعة ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

ومن اعتقد هذا الاعتقاد فإنه يستتاب فإنه تاب وإلا قتل كافرًا؛ فليس هناك أحد يختص بها.

خاصة الناس هم: الأنبياء والرسل، وهم أكبر الناس توحيدًا وإيمانًا وتحقيقًا لعبودية الله ﷻ، فمن زعم أن هناك أحد تسقط عنه

التكاليف وعقله ثابت معه ليس بصغير ولا مجنون ولا مخرف إلا الحائض والنفساء في سقوط الصلاة والصوم، فمن اعتقد ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا من قبل ولاة الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩] أي: حتى يأتيك الموت.

فَهَؤُلَاءِ يفرقون بَين الْعَامَّة والخاصة الَّذين شهدُوا الْحَقِيقَة الكونية فَشَهِدُوا أَن الله خَالق أَفعَال الْعباد وَأَنه مُرِيد ومدبر لجَمِيع الكائنات.

وَقد يفرقون بَين من يعلم ذَلِك علما وَبَين من يرَاهُ شُهُودًا فَلَا يسقطون التَّكْلِيف عَمَّن يُؤمن بذلك ويعلمه فَقَط وَلَكِن [يسقطونه] عَمَّن يشهده فَلَا يرى لنَفسِهِ فعلا أصلا وَهَؤُلَاء يجْعَلُونَ الْجَبْر وَإِثْبَات الْقدر مَانِعا من التَّكْلِيف على هَذَا الْوَجْه.

وَقد وَقع فِي هَذَا طوائف من المنتسبين إِلَى التَّحْقِيق والمعرفة والتوحيد.

وَسبب ذَلِك أَنه ضَاقَ نطاقهم عَن كَون العَبْد يُؤمر بِمَا يقدّر عَلَيْهِ خِلَافه كَمَا ضَاقَ نطاق الْمُعْتَزلَة وَنَحْوهم من الْقَدَرِيَّة عَن ذَلِك ثمَّ الْمُعْتَزلَة أَثْبَتت الْأَمر وَالنَّهْي الشرعيين دون الْقَضَاء وَالْقدر الَّذين هما إِرَادَة الله الْعَامَّة وخلقه لأفعال الْعباد.

الشَّرْح

○ وقوله: (فَهَؤُلَاءِ يفرقون بَين الْعَامَّة والخاصة): أي: يفرقون بين من يعلم فقط ومن يشهد؛ فالذي يشهد: لا يثبت لنفسه صفة بينما يجعل صفته هي صفة الله، فهذا يسقط عنه التكليف.

أما الذي يعلم في نفسه: إنما يثبت لنفسه صفات وأفعال، فهذا لا تسقط عنه التكاليف، وهذا أيضًا قول بعض الصوفية.

○ وقوله: (وَهَؤُلَاء يجْعَلُونَ الْجَبْر وَإِثْبَات الْقدر مَانِعا من التَّكْلِيف على هَذَا الْوَجْه): يريد بيان أن **المعتزلة** أثبتوا الأمر والنهي الشرعيين، لكن أنكروا عموم مشيئة الله وقدرته في الكائنات حتى تشمل أفعال العباد، **فقالوا**: إن أفعالهم لم يخلقها الله، هم الذين خلقوها طاعات ومعاصي، حتى إذا عذب الله الإنسان على المعاصي يكون عذَّبه على

أفعال هو التي خلقها وأوجدها بنفسه.

وأهل السنة والجماعة يقولون: الله تعالى خالق كل شيء، خالق العباد وخالق أفعالهم.

فالمعتزلة أثبتوا الأمر والنهي ولم يثبتوا عموم الإرادة والمشيئة، وأما **الجبرية** فأثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي.

وَهَؤُلَاء أثبتوا الْقَضَاء وَالْقدر وَنَفَوْا الْأَمر وَالنَّهْي فِي حق من شهد الْقدر إِذْ لم يُمكنهُم نفي ذَلِك مُطلقًا.

وَقَول هَؤُلَاءِ شَرّ من قَول الْمُعْتَزلَة وَلِهَذَا لم يكن فِي السّلف من هَؤُلَاءِ أحد.

وَهَؤُلَاء يجْعَلُونَ الْأَمر وَالنَّهْي للمحجوبين الَّذين لم يشْهدُوا هَذِه الْحَقِيقَة الكونية.

وَلِهَذَا يجْعَلُونَ من وصل إِلَى شُهُود هَذِه الْحَقِيقَة يسْقط عَنهُ الْأَمر وَالنَّهْي، وَيَقُولُونَ: إِنَّه صَار من الْخَاصَّة.

وَرُبمَا تأولوا على ذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩] فاليقين عِنْدهم هُوَ معرفَة هَذِه الْحَقِيقَة.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَؤُلَاء أثبتوا الْقَضَاء وَالْقدر وَنَفَوْا الْأَمر وَالنَّهْي فِي حق من شهد الْقدر): أي أن هؤلاء **الجبرية ضد المعتزلة**؛ أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي، فقالوا: الإنسان مجبور، وعلى هذا فلا يكلف ولا يؤاخذ بالمحرمات التي فعلها.

○ وقوله: (وَقَول هَؤُلَاءِ شَرّ من قَول الْمُعْتَزلَة): **وجه ذلك**: أن المعتزلة يعظمون الأمر والنهي، فهم يعظمون الشريعة بخلاف هؤلاء، فإنهم لا يعظمون الأوامر والنواهي، ولهذا صار قولهم شرا من قول المعتزلة، ولهذا لم يكن من السلف من هؤلاء أحد.

○ وقوله: (وَهَؤُلَاء يجْعَلُونَ الْأَمر وَالنَّهْي للمحجوبين الَّذين لم يشْهدُوا هَذِه الْحَقِيقَة الكونية): هؤلاء الذين يحتجون بالقدر يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين ما شهدوا الحقيقة الكونية فهؤلاء عليهم التكاليف، أما الخاصة الذين انفتح لهم الباب وألغوا صفاتِهم وجعلوها

صفةً الله تسقط عنهم التكاليف، **فالناس قسمان**:

العامة: محجوبون عن شهود الإرادة فعليهم تكاليف.

الخاصة: غير محجوبين فتسقط عنهم التكاليف ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ وقوله: (وَلِهَذَا يجْعَلُونَ من وصل إِلَى شُهُود هَذِه الْحَقِيقَة يسْقط عَنهُ الْأَمر وَالنَّهْي): أي: صار من الخاصة وسقط عنه التكليف ووصل إلى الله، فألغى صفاته وأفعاله وجعلها صفة لله، فصار يشهد الإرادة الكونية.

أما العامة الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة فعليهم تكاليف.

○ وقوله: (وَرُبمَا تأولوا على ذَلِك): أي ربما استدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩] فهم يستدلون بما يناسبهم، ويفسرون اليقين بـ:العلم، فمن وصل إلى العلم شهد الإرادة وسقط عنه التكليف، أي: اعبد ربك حتى تصل إلى اليقين، وحتى تصل إلى العلم وإلى شهود الإرادة، وعند ذلك انتهت العبادة فلا تعبد، وهذا من أبطل الباطل، وهو استدلال غير صحيح، وإنما المراد باليقين: الموت، والمعنى: استمر على عبادة ربك حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، لكن هؤلاء لهم تفسير باطل.

وَقَول هَؤُلَاءِ كفر صَرِيح.

وَإِن وَقع فِيهِ طوائف لم يعلمُوا أَنه كفر فَإِنَّهُ قد علم بالاضطرار من دين الْإِسْلَام أَن الْأَمر وَالنَّهْي لازمان لكل عبد مَا دَامَ عقله حَاضرا إِلَى أَن يَمُوت لَا يسقطان عَنهُ لَا بشهوده الْقدر وَلَا بِغَيْر ذَلِك.

فَمن لم يعرف ذَلِك عُرِّفه وبيِّن لَهُ فَإِن أصر على اعْتِقَاد سُقُوط الْأَمر وَالنَّهْي فَإِنَّهُ يُقتل.

وَقد كثرت مثل هَذِه المقالات فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ.

وَأما المتقدمون من هَذِه الْأمة فَلم تكن هَذِه المقالات مَعْرُوفَة فيهم

الشَّرْح

○ قوله: (وَقَول هَؤُلَاءِ كفر صَرِيح): قول هؤلاء كفر صريح والسبب أنهم خالفوا النصوص التي فيها أن جميع الناس مكلفون بعبادة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦] فلم يستثن الله منهم أحدًا، ولا قال: إن هناك قسم لا يعبدونه وهم الذين وصلوا إلى الله وصاروا من الخاصة، فهؤلاء قولهم كفر صريح، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام، شيء يعلمه كل أحد؛ أن الأمر والنهي والتكاليف لازمة لكل عبد ما دام العقل معه ثابت، فإذا فقد العقل سقط التكليف، وإذا صار الإنسان مجنونًا أو مخرِّفًا لكبر سنه أو كان صغيرًا ولمَّا يبلغ، فهذا ليس عليه تكليف، فمن قال إن أحدًا يسقط عنه التكليف يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا من قِبل ولاة الأمور، فمن لا يعرف ذلك فإنه كما قال المؤلف: (فَمن لم يعرف ذَلِك عُرِّفه وبيِّن لَهُ فَإِن أصر على اعْتِقَاد سُقُوط الْأَمر وَالنَّهْي فَإِنَّهُ يُقتل): يعني: يقتل من قِبل ولاة الأمور بعد أن يثبت عليه الحكم الشرعي، فإذا ثبت عليه هذا الاعتقاد حكم عليه بالقتل.

فيُرفع أمره إلى المحكمة حتى يقام عليه الحد، فليس لكل أحد أن يقتله؛ حتى لا تكون المسألة فوضى، وأن كل من رأى أحداً قتله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى: (هؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر والنهي من جنس المشركين المكذبين للرسل وهم أسوأ حالا من المجوس وهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد)[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله؛ وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله)[٢].

○ قوله: (وَقد كثرت مثل هَذِه المقالات فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ): هكذا يزعم بعض الصوفية، يزعمون المعرفة والحق، لكنهم هم من أبطل الباطل.

أما المتقدمون فلا يسوغون أن أحدا يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف[٣].

(١) مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٥٣).
(٢) المرجع السابق: (١٠/ ١٦٧).
(٣) انظر: جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية، جمع: محمد رشاد سالم: (٢/ ١٤٥).

وَهَذِه المقالات هِيَ محادة لله وَرَسُوله ومعاداة لَهُ وَصد عَن سَبيله ومشاقة لَهُ وَتَكْذيب لرسله ومضادة لَهُ فِي حكمه وَإِن كَانَ من يَقُول هَذِه المقالات قد يجهل ذَلِك ويعتقد أَن هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ هُوَ طَرِيق الرَّسُول وَطَرِيق أَوْلِيَاء الله الْمُحَقِّقين.

فَهُوَ فِي ذَلِك بِمَنْزِلَة من يعْتَقد أَن الصَّلَاة لَا تجب عَلَيْهِ لاستغنائه عَنْهَا بِمَا حصل لَهُ من الْأَحْوَال القلبية أَو أَن الْخمر حَلَال لَهُ لكَونه من الْخَواص الَّذين لَا يضرهم شرب الْخمر أَو أَن الْفَاحِشَة حَلَال لَهُ لِأَنَّهُ صَار كالبحر لَا تكدره الذُّنُوب وَنَحْو ذَلِك.

الشَّرْح

وهذه اعتقادات فاسدة عند الصوفية، حيث يعتقدون أن قسمًا منهم تسقط عنهم التكاليف، وهذا اعتقاد باطل بل من أبطل الباطل ـ وإن كانوا لا يعلمون هذا ـ فإن اعتقادات الصوفية التي يعتقدون تخالف أمر الله وأمر رسوله مما هو معلوم بالدين بالضرورة وهي تخالف ما أجمع عليه المسلمون من أن التزام الشريعة وامتثال الأوامر والنواهي لازم لكل أحد، إلا من زال عقله فإنه يرفع عنه التكليف.

وقد بين المؤلف أن من اعتقد أن أحدا يسقط عنه التكليف وعقله معه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرا مرتدا، وهذا أمر مجمع عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩] أن العبادة لازمة على كل أحد حتى الموت وأما اعتقاد الصوفية أن اليقين هو العلم وأن من علم أن ما قدر سيكون وألغى صفاته وجعلها صفات لله، فيسقط عنه التكليف، فهذا أمر مصادم لما أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب من وجوب عبادة الله على كل مكلف، وأن العبادات لا تسقط عن المكلف إلا إذا زال عقله، وهذا ـ كما تقدم ـ أمر مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة، كما قرره المؤلف وغيره من أهل العلم.

وَلَا ريب أَن الْمُشْركين الَّذين كذبُوا الرَّسُول يَتَرَدَّدُونَ بَين الْبِدْعَة الْمُخَالفَة لشرع الله وَبَين الِاحْتِجَاج بِالْقدرِ على مُخَالفَة أَمر الله فَهَذِهِ الْأَصْنَاف فِيهَا شبه من الْمُشْركين؛ إِمَّا أَن يبتدعوا وَإِمَّا أَن يحتجوا بِالْقدرِ وَإِمَّا أَن يجمعوا بَين الْأَمريْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَن الْمُشْركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨] وكما قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وَقد ذَكَرَ عَن الْمُشْركين مَا ابتدعوه من الدَّين الَّذِي فِيهِ تَحْلِيل الْحَرَام وَعبادَة الله بِمَا لم يشرع الله فِي مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٨] إِلَى آخر السُّورَة

وَكَذَلِكَ فِي سُورَة الْأَعْرَاف فِي قَوْله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إِلَى قَوْله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٦-٣٣].

الشَّرْح

هذا كله من بدع المشركين ومن شركياتهم، فكذلك هؤلاء يجمعون بين البدعة وبين الشرك فهم يشبهون المشركين الأولين.

كذلك هؤلاء الصوفية الذين يحتجون بالقدر فيما يناسب أهواءهم، يشبهون المشركين في احتجاجهم على القدر بالمشيئة؛ كما قال الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فكل من احتج على المعاصي بالقدر فهو من هؤلاء، وفيه شبه بالمشركين.

والله تعالى قد أخبرنا عن أفعال المشركين بالتحذير منهم والبعد عن أوصافهم، ويأبى هؤلاء الصوفية إلا أن يوافقوا المشركين وذلك لما في تجانس قلوبهم من الشر والبلاء؛ كما قال الله: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨].

فالواجب على المسلم أن يبتعد عن أوصاف المشركين وأفعالهم، وأن يكون له أسوة برسول الله وأصحابه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ الأحزَاب: ٢١].

وَهَؤُلَاء قد يسمّون مَا أحدثوه من الْبدع حَقِيقَة كَمَا يسمّون مَا يشْهدُونَ من الْقدر حَقِيقَة وَطَرِيق الْحَقِيقَة عِنْدهم هُوَ السلوك الَّذِي لَا يتَقَيَّد صَاحبه بِأَمْر الشَّارِع وَنَهْيه وَلَكِن بِمَا يرَاهُ ويذوقه ويجده فِي قلبه مَعَ مَا فِيهِ من غَفلَة عَن الله جلّ وَعلا وَنَحْو ذَلِك.

وَهَؤُلَاء لَا يحتجون بِالْقدرِ مُطلقًا بل عمدتهم اتِّبَاع آرائهم وأهوائهم وجعلُهم مَا يرونه وَمَا يهوَونه حَقِيقَة ويأمرون باتباعها دون اتِّبَاع أَمر الله وَرَسُوله نَظِير بدع أهل الْكَلَام من الْجَهْمِية وَغَيرهم الَّذين يجْعَلُونَ مَا ابتدعوه من الْأَقْوَال الْمُخَالفَة للْكتاب وَالسّنة حقائق عقلية يجب اعتقادها دون مَا دلّت علية السمعيات ثمَّ الْكتاب وَالسّنة إِمَّا أَن يحرفوا القَوْل فيهمَا عَن موَاضعه وَإِمَّا أَن يعرضُوا عَنهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا يتدبرونه وَلَا يعقلونه بل يَقُولُونَ: نفوض مَعْنَاهُ إِلَى الله مَعَ اعْتِقَادهم نقيض مَدْلُوله وَإِذا حُقّق على هَؤُلَاءِ مَا يزعمونه من العقليات الْمُخَالفَة للْكتاب وَالسّنة وُجدت جهليات واعتقادات فَاسِدَة.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَؤُلَاء قد يسمّون مَا أحدثوه من الْبدع حَقِيقَة): هؤلاء هم أهل السلوك، كما يسمون أنفسهم، وهم الصوفية: الذين بزعمهم أنهم يسيرون إلى الله، لكن يسيرون على حسب أدواتهم ومواجدتهم وأهوائهم، ولا يتقيدون بالشرع.

○ قوله: (عمدتهم اتِّبَاع آرائهم وأهوائهم وجعلُهم مَا يرونه وَمَا يهوَونه حَقِيقَة ويأمرون باتباعها دون اتِّبَاع أَمر الله وَرَسُوله نَظِير بدع أهل الْكَلَام من الْجَهْمِية وَغَيرهم) أي: أن هؤلاء يشبِهون الجهمية، **من حيث** أن الجهمية يجعلون ما يبتدعون من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة: حقائقَ وقواطعَ عقلية وبراهينَ يقينية، وأما نصوص الكتاب

فيقولون: هذه أدلة لفظية لا تفيد اليقين، فهم إما أن يحرفوها وإما أن يفوضوا معناها ويتمسكون بزعمهم بما دلت عليه العقول، والعقول متفاوتة متضاربة وهذا من جهلهم.

فكذلك هؤلاء الصوفية يسمون ما تراه أنفسهم ذوقًا ووجدًا ويسيرون بحسب أهوائهم وشهواتهم.

وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ إِذا حقق عَلَيْهِم مَا يزعمونه من حقائق أَوْلِيَاء الله الْمُخَالفَة للْكتاب وَالسّنة وجدت من الْأَهْوَاء الَّتِي يتبعهَا أَعدَاء الله لَا أولياؤه.

وأصل ضلال من ضل هُوَ بِتَقْدِيم قِيَاسه على النَّص الْمنزل من عِنْد الله وَتَقْدِيم اتِّبَاع الْهوى على اتِّبَاع أَمر الله فَإِن الذَّوْق والوجد وَنَحْو ذَلِك هُوَ بِحَسب مَا يُحِبهُ العَبْد ويهواه فَكل محب لَهُ ذوق وَوجد بِحَسب محبته وهواه.

فَأهل الْإِيمَان لَهُم من الذَّوْق والوجد مثل مَا بيّنه النَّبِي ﷺ بقوله فِي الحَدِيث الصَّحِيح: «ثَلَاث من كن فِيهِ وجد حلاوة الْإِيمَان: من كَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا وَمن كَانَ يحب الْمَرْء لَا يُحِبهُ إِلَّا لله وَمن كَانَ يكره أَن يرجع فِي الْكفْر بعد إِذْ أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أَن يلقى فِي النَّار»(١)، وَقَالَ ﷺ: «ذاق طعم الْإِيمَان من رَضِي بِاللَّه رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دينا وَبِمُحَمَّدٍ نَبيا»(٢).

الشَّرْح

○ قوله: (وأصل ضلال من ضل هُوَ بِتَقْدِيم قِيَاسه على النَّص الْمنزل من عِنْد الله وَتَقْدِيم اتِّبَاع الْهوى على اتِّبَاع أَمر الله): فأصل الضلال هو من تقديم القياس على النص المنزل من عند الله، وتقديم الهوى على اتباع أمر الله، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القَصَص: ٥٠]، فيقدمون آراءهم، وأقيستهم، وما تهواه نفوسهم، وما يجدونه في نفوسهم من الآراء، وما يزعمونه من

(١) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان (٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٣٤).

العقليات: على كتاب الله وسنة رسوله.

وأمر الله وأمر رسوله يتلقى بالتصديق والقبول والامتثال، ولا تتبع فيه الأهواء: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] والغواية هي: اتباع الهوى.

وكذلك الصوفية أصل ضلالهم: بترك الكتاب والسنة وجعل بديل لها من الأهواء والآراء والبدع والأذواق والمواجيد والأقيسة والعقول.

وَأما أهل الْكفْر والبدع والشهوات فَكل بِحَسبِهِ.

قيل لِسُفْيَان بن عُيَيْنَة: مَا بَال أهل الْأَهْوَاء لَهُم محبَّة شَدِيدَة لأهوائهم؟ فَقَالَ: أنسيت قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٩٣] أَو نَحْو هَذَا من الْكَلَام.

فعبّاد الْأَصْنَام يحبونَ آلِهَتهم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]، وَقَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القَصَص: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النّجْم: ٢٣].

وَلِهَذَا يمِيل هَؤُلَاءِ ويغرمون بِسَمَاع الشّعْر والأصوات الَّتِي تهيج الْمحبَّة الْمُطلقَة الَّتِي لَا تخْتَص بِأَهْل الْإِيمَان بل يشْتَرك فِيهَا محب الرَّحْمَن ومحب الْأَوْثَان ومحب الصلبان ومحب الأوطان ومحب الإخوان ومحب المردان ومحب النسوان.

وَهَؤُلَاء الَّذين يتبعُون أذواقهم ومواجيدهم من غير اعْتِبَار لذَلِك بِالْكتاب وَالسّنة وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سلف الْأمة.

الشَّرْح

جواب سفيان بن عيينة لمن قال: (مَا بَال أهل الْأَهْوَاء لَهُم محبَّة شَدِيدَة لأهوائهم؟) **بيانه**: أن الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل كان حبهم الشديد للعجل سبب كفرهم، قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وقد جاء في سنن أبي داود مرفوعًا: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[(١)] وهذا الحديث بسنديه ضعيف، فسند الحديث الذي عند

(١) أخرجه أبو داود، أبواب النوم، باب في الهوى: (٥١٣٠) وأحمد: (٢١٦٩٤) و(٢٧٥٤٨)، والبزار (٤١٢٥)، (٥٤٦)، والطبراني في "الأوسط" (٤٣٥٩)، =

الإمام أحمد، فيه: أبو بكر بن أبي مريم، وسند أبي داود، فيه: أبو بكر بن أبي مريم أيضا، وفيه: بقية بن الوليد، وهو مدلس وقد عن عن، ولكن المعنى صحيح[(١)].

ومعنى: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»، أي: يعمي عن نظر الحق، ويصم عن سماعه، ويبكم عن التكلم به، **وفي الغالب** أنه إذا ضعف الإيمان فإن حب الإنسان للشيء يعميه عن الحق، فلا يراه واضحا، ويصمه فلا يسمعه، ويبكمه فلا يتكلم به.

فهم عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري وهم ينظرون، ثم قال: هذا ربكم فاعبدوه ـ نسأل الله العافية ـ،وذلك لما ذهب نبي الله موسى لميقات الله ﷻ، كما في الآيات من سورة طه.

= وفي "مسند الشاميين" (١٤٥٤)، وابن عدي في "الكامل" ٢/ ٤٧٢، وابن بشران في "أماليه" (٥٢٤)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٢١٩)، والبيهقي في "الشعب" (٤١١) من طرق عن أبي بكر بن عبد الله ابن أبي مريم.

(١) وقد جاء الحديث موقوفاً كما عند البيهقي في "الشعب" (٤١٢) من طريق حريز بن عثمان، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبيه. وإسناده صحيح، وهو أيضا عند البخاري في التاريخ (٢/ ١٠٧).

فالمخالف لما بعث الله بِهِ رَسُوله من عِبَادَته وَحده وطاعته وَطَاعَة رَسُوله لَا يكون مُتبعا لدين شَرعه الله أبداً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجَاثِيَة: ١٨-١٩] **بل يكون مُتبعا لهواه بِغَيْر هدى من الله قَالَ تَعَالَى:** ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشّورىٰ: ٢١].

وهم فِي ذَلِك تَارَة يكونُونَ على بِدعَة يسمونها حَقِيقَة يقدمونها على مَا شَرعه الله وَتارَة يحتجون بِالْقدرِ الكوني على الشَّرِيعَة كَمَا أخبر الله بِهِ عَن الْمُشْركين كَمَا تقدم.

الشَّرْح

○ قوله: (فالمخالف لما بعث الله بِهِ رَسُوله من عِبَادَته وَحده وطاعته وَطَاعَة رَسُوله لَا يكون مُتبعا لدين شَرعه الله أبداً) **الشاهد:** أن الله تعالى أمرهم باتباع الشريعة ونهاهم عن اتباع الأهواء، وليس هناك إلا الشريعة أو اتباع الهوى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾ [القَصَص: ٥٠]، فكل ما خالف الشريعة فهو من الهوى، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجَاثِيَة: ١٨].

وَمن هَؤُلَاءِ طَائِفَة هم أعلاهم عِنْدهم قدرا وَهُوَ مستمسكون بِمَا اخْتَارُوا بهواهم من الدَّين فِي أَدَاء الْفَرَائِض الْمَشْهُورَة وَاجْتنَاب الْمُحرمَات الْمَشْهُورَة.

لَكِن يضلون بترك مَا أمروا بِهِ من الْأَسْبَاب الَّتِي هِيَ عبَادَة ظانين أَن الْعَارِف إِذا شهد الْقدر أعرض عَن ذَلِك مثل من يَجْعَل التَّوَكُّل مِنْهُم أَو الدُّعَاء مِنْهُم وَنَحْو ذَلِك من مقامات الْعَامَّة دون الْخَاصَّة بِنَاء على أَن من شهد الْقدر علم أَن مَا قدر سَيكون فَلَا حَاجَة إِلَى ذَلِك وَهَذَا ضلال مُبين.

فَإِن الله قدر الْأَشْيَاء بأسبابها كَمَا قدر السَّعَادَة والشقاوة بأسبابهما كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «إِن الله خلق للجنة أَهلا خلقهَا لَهُم وهم فِي أصلاب آبَائِهِم وبعمل أهل الْجنَّة يعْملُونَ وَخلق للنار أَهلا خلقهَا لَهُم وهم فِي أصلاب آبَائِهِم وبعمل أهل النَّار يعْملُونَ»(١).

وكما قَالَ النَّبِي ﷺ لما أخْبرهُم بِأَن الله كتب الْمَقَادِير فَقَالُوا: يَا رَسُول الله أَفلا نَدع الْعَمَل ونتكل على الْكتاب؟ فَقَالَ: «لَا اعْمَلُوا فَكل ميسر لما خلق لَهُ أما من كَانَ من أهل السَّعَادَة فسييسر لعمل أهل السَّعَادَة وَأما من كَانَ من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»(٢).

---

(١) هذا الحديث أصله عند مسلم في صحيحه، كتاب القدر (٢٦٦٢)، بلفظ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»؛ وزاد شيخ الإسلام لفظ: «وبعمل أهل الجنة يعملون» ولفظ: «وبعمل أهل النار يعملون»، وهذان اللفظان في حديث آخر من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر (٤٧٠٣)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥)، وقال: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر.ا.هـ، والإمام أحمد في مسنده (٣١١)، وابن حبان في صحيحه (٦١٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤٠٠١)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.ا.هـ ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري،كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ (٤٩٤٩)، وصحيح مسلم، كتاب القدر (٢٦٤٧).

فَكل مَا أَمر الله بِهِ عباده من الْأَسْبَاب فَهُوَ عبَادَة.

والتوكل مقرون بِالْعبَادَة كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، وَفِي قَوْله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد: ٣٠]، وَقَول شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هُود: ٨٨].

الشَّرْح

هذه **الطائفة الرابعة**: يؤدون الفرائض وينتهون عن المحارم، لكن يغلطون في ترك الأسباب التي شرعها الله، ويتركون الأسباب الشرعية، سواء كانت الأسباب دينية أو دنيوية وإن كانوا يؤدون الفرائض المشهورة ويجتنبون المحرمات المشهورة لكن قد يتركون بعض الواجبات غير المشهورة، ولا يتركون بعض المحرمات غير المشهورة، ويتركون ما أمروا به من الأسباب الشرعية؛ **فمثلًا**:

الإنسان مأمور بتوحيد الله وإخلاص الدين لله وأن يؤدي الفرائض وأن ينتهي عن المحارم، وهذا **سبب شرعي في دخول الجنة**، وغير ذلك من الأسباب الشرعية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والجيران والمماليك والبهائم إلى غير ذلك من الأسباب الشرعية، كذلك الأسباب الدنيوية؛ فالإنسان يطلب الرزق يبيع ويشتري يحرث ويبذر يزرع.

فهؤلاء قد يتركون بعض الأسباب الشرعية سواء كانت دينية أو دنيوية، وهؤلاء هم الطائفة الرابعة.

○ وقوله: (يضلون بترك مَا أمروا بِهِ من الْأَسْبَاب الَّتِي هِيَ عبَادَة...): يزعمون أن من شهد القدر وشهد الإرادة فلا حاجة به إلى فعل الأسباب.

○ وقوله: (فَإِن الله قدر الْأَشْيَاء بأسبابها): الله تعالى ربط

المسببات بأسبابها سواء كانت دينية أو دنيوية؛ **فربط الله تعالى الآخرة والدنيا كلها بالأسباب.**

- فالجنة مربوطة بالأسباب، ومنها: العمل الصالح، والنار مربوطة بالأسباب، ومنها: العمل السيء.

- والدنيا مربوطة بالأسباب، فيزرع الإنسان، والزرع مربوط بالسبب، فالإنسان يبذر ويغرس ويسقي الماء فيحصد، كذلك الجوع لا يزول إلا بالأكل وهذا سبب، والعطش لا يزول إلا بالشرب، والبرد لا يزول إلا بالاستدفاء.

وهكذا كل شيء مربوط بالأسباب، فالله تعالى ربط المسببات بأسبابها دنيوية وأخروية.

وَمِنْهُم طَائِفَة قد تتْرك المستحبات من الْأَعْمَال دون الْوَاجِبَات فتنقص بِقدر ذَلِك.

وَمِنْهُم طَائِفَة يغترون بِمَا يحصل لَهُم من خرق عَادَة ـ مثل مكاشفة أَو استجابة دَعْوَة مُخَالفَة للْعَادَة وَنَحْو ذَلِك ـ فيشتغل أحدهم بِهَذِهِ الْأُمُور عَمَّا أَمر بِهِ من الْعِبَادَة وَالشُّكْر وَنَحْو ذَلِك.

الشَّرْح

○ قوله: (وَمِنْهُم طَائِفَة قد تتْرك المستحبات من الْأَعْمَال دون الْوَاجِبَات): هذه **الطائفة الخامسة**، وهي: التي تترك المستحبات دون الواجبات، وهؤلاء ليس عليهم شيء؛ لأنهم أدوا الواجبات، وإن فاتهم وحصل عليهم نقص عظيم بفوات الثواب والأجر المترتب على فعل المستحبات، فهؤلاء من حرمانهم أنهم فعلوا الواجبات لكن تركوا المستحبات، فحُرموا أجرها.

○ وقوله: (وَمِنْهُم طَائِفَة يغترون بِمَا يحصل لَهُم من خرق عَادَة): هذه **الطائفة السادسة**، وهم: الذين يشتغلون بما يحصل لهم من خرق العادات عن عبادة الله وشكره، فإذا حصل لأحدهم أن أجيبت دعوته، أو كشف له عن شيء، أو ما أشبه ذلك: اشتغل بذلك عن عبادة الله وشكره.

فَهَذِهِ الْأُمُور وَنَحْوهَا كثيرا مَا تعرض لأهل السلوك والتوجه وَإِنَّمَا ينجو العَبْد مِنْهَا بملازمة أَمر الله الَّذِي بعث بِهِ رَسُوله فِي كل وَقت كَمَا قَالَ الزُّهْرِيّ: كَانَ من مضى من سلفنا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَام بِالسنةِ نجاة(١).

وَذَلِكَ أَن السّنة كَمَا قَالَ مَالك رَحمَه الله: مثل سفينة نوح من ركبهَا نجا وَمن تخلف عَنْهَا غرق(٢).

وَالْعِبَادَة وَالطَّاعَة والاستقامة وَلُزُوم الصِّرَاط الْمُسْتَقيم وَنَحْو ذَلِك من الْأَسْمَاء مقصودها وَاحِد وَلها أصلان:

أَحدهمَا: أَن لَا يعبد إِلَّا الله.

وَالثَّانِي: أَلا يعبده إِلَّا بِمَا أَمر وَشرع لَا يعبده بِغَيْر ذَلِك من الْأَهْوَاء والظنون والبدع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٥].

الشَّرْح

○ قوله: (فَهَذِهِ الْأُمُور وَنَحْوهَا كثيرا مَا تعرض لأهل السلوك والتوجه): فسبب النجاة هو: ملازمة أمر الله الذي بعث الله به رسله،

(١) انظر: سنن الدارمي (٩٧)، والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣١٩) (١٥٩)، وشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٠٦) (١٣٦)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٦٩)، والمدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٨٦٠)، وغيرهم.

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٣٤٧)، وذم الكلام وأهله للهروي (٥/ ٨١) (٨٧٣)، وتاريخ دمشق (١٤/ ٩).

فإذا أردت النجاة فالزم أمر الله وأمر رسوله، وأخلص العبادة لله، أدِّ الفرائض لله، والزم أمر الله وأمر رسوله، فهذا سبيل النجاة، **فالشريعة هي سفينة الرحمن**؛ من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، ومن عمل بالشريعة فقد ركب السفينة، ومن ترك الشريعة لم يركب السفينة،ولا شك أنه غرق، **إذن فطريق النجاة**:

لزوم أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

○ وقوله: (وَالْعِبَادَة وَالطَّاعَة والاستقامة وَلُزُوم الصِّرَاط الْمُسْتَقيم وَنَحْو ذَلِك من الْأَسْمَاء مقصودها وَاحِد ...): هذان **أصلان لابد منهما في العبادة**، لا تصح العبادة إلا بهذين الأصلين:

الأصل الأول: ألا يعبد إلا الله، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

الأصل الثاني: أن يعبد الله بما شرعه، وبما أمر به، لا بالبدع والأهواء، وهذا هو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

فإذا تخلى أحد عن هذين الأصلين لم تصح منه العبادة، فلا يعبد إلا الله، وأن يعبد الله بما شرع لا بالأهواء والبدع، **فالأصل الأول**: هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله، **والأصل الثاني**: هو تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] فالآية فيها الأصلان: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هذا هو الأصل الثاني، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ هذا هو الأصل الأول.

وقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢] إسلام الوجه هو إخلاص الدين لوجه الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إحسان العمل: إتقانه وأن يكون العمل موافقًا للشريعة.

وقول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٥] فمن أسلم لله، هذا هو الأصل الأول، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا هو الأصل الثاني.

فَالْعَمَل الصَّالح هُوَ الْإِحْسَان وَهُوَ فعل الْحَسَنَات والحسنات هِيَ مَا أحبه الله وَرَسُوله وَهُوَ مَا أَمر بِهِ أَمر إِيجَاب أَو اسْتَحْبَاب.

فَمَا كَانَ من الْبدع فِي الدَّين الَّتِي لَيست فِي الْكتاب، وَلَا فِي صَحِيح السّنة، فَإِنَّهَا - وَإِن قَالَهَا من قَالَهَا، وَعمل بهَا من عمل - لَيست مَشْرُوعَة؛ فَإِن الله لَا يُحِبهَا وَلَا رَسُوله، فَلَا تكون من الْحَسَنَات وَلَا من الْعَمَل الصَّالح. كَمَا أَن من يعْمل مَا لَا يجوز، كالفواحش وَالظُّلم لَيْسَ من الْحَسَنَات وَلَا من الْعَمَل الصَّالح.

وَأما قَوْله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وَقَوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٢] فَهُوَ إخلاص الدَّين لله وَحده وَكَانَ عمر أبن الْخطاب يَقُول: اللَّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُله صَالحا واجعله لوجهك خَالِصا وَلَا تجْعَل لأحد فِيهِ شَيْئا[(١)].

وَقَالَ الفضيل بن عِيَاض فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: ٧] قَالَ: أخلصه وأصوبه قَالُوا: يَا أَبَا عَليّ مَا أخلصه وأصوبه؟ قَالَ: إِن الْعَمَل إِذا كَانَ خَالِصا وَلم يكن صَوَابا لم يقبل وَإِذا كَانَ صَوَابا وَلم يكن خَالِصا لم يقبل حَتَّى يكون خَالِصا صَوَابا والخالص أَن يكون لله وَالصَّوَاب أَن يكون على السّنة[(٢)].

الشَّرْح

المقصود مما ذكره المؤلف بيان العمل والعبادة لله ﷻ، **ولا يصح عند الله شيء حتى يتحقق فيه الأصلان:**

الأصل الأول: إخلاص الدين لله.

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (٦١٧)، عن الحسن البصري أن عمر كان يقول.
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٩٥).

الأصل الثاني: موافقة دينه الذي بعث به رسله، وهو متابعة الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]: المقصود بها: إخلاص الدين لله وحده.

وقول عمر رضي الله عنه: فيه تحقيق الأصلين؛ **(اللَّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُله صَالحا)**: هذا الأصل الثاني، **(واجعله لوجهك خَالِصا)**: هذا هو الأصل الأول.

وقول الفضيل فيه ـ أيضا ـ هذان الأصلان: الخالص هو الأصل الأول، والصواب هو الأصل الثاني.

فَإِن قيل: فَإِذا كَانَ جَمِيع مَا يُحِبهُ الله دَاخِلا فِي اسْم الْعِبَادَة فلماذا عطف عَلَيْهَا غَيرهَا كَقَوْلِه فِي فَاتِحَة الْكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وَقَوله لنَبيه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، وَقَول نوح: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نُوح: ٣]، وَكَذَلِكَ قَول غَيره من الرُّسُل؟

قيل: هَذَا لَهُ نَظَائِر كَمَا فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥].

وَكَذَلِك قَوْله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النّحل: ٩٠] وإيتاء ذِي الْقُرْبَى هُوَ من الْعدْل وَالْإِحْسَان كَمَا أَن الْفَحْشَاء وَالْبَغي من الْمُنكر وَكَذَلِك قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٠]، وَإِقَامَة الصَّلَاة من أعظم التَّمَسُّك بِالْكتاب وَكَذَلِك قَوْله عَن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبيَاء: ٩٠] ودعاؤهم رغبا ورهبا من الْخيرَات وأمثال ذَلِك فِي الْقُرْآن كثير.

الشَّرْح

إذا كان جميع ما يطلبه الله داخلاً في العبادة فلماذا يعطف بعض الواجبات وبعض المستحبات على العبادة كما مرَّ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، عطفت الإستعانة على العبادة مع أن الإستعانة داخلة في العبادة، **لماذا؟**

أجاب المؤلف رحمه الله بأجوبة ـ كما سيأتي ـ وملخصه:

ـ أنه حينما يعطف عليه فإنما ذلك لبيان أهميته، فيكون خصه لبيان أهميته.

ـ أو أنه إذا لم يعطف عليه يكون ليس داخلاً، أما إذا عطف عليه فيكون داخلاً كالفقير والمسكين، فالفقير إذا أفرد دخل فيه المسكين، والمسكين إذا أفرد دخل فيه الفقير، وإذا اجتمعا صار الفقير: أشد حاجة.

وَهَذَا الْبَاب يكون تَارَة مَعَ كَون أَحدهمَا بعض الآخر فيعطف عَلَيْهِ تَخْصِيصًا لَهُ بِالذكر لكَونه مَطْلُوبا بِالْمَعْنَى الْعَام وَالْمعْنَى الْخَاص.

وَتارَة تتنوع دلَالَة الِاسْم بِحَال الِانْفِرَاد والاقتران فَإِذا أفرد عَم وَإِذا قرن بِغَيْرِهِ خص كاسم الْفَقِير والمسكين لما أفرد أَحدهمَا فِي مثل قَوْله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، وَقَوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المَائدة: ٨٩] دخل فِيهِ الآخر.

وَلما قرن بَينهمَا فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التّوبَة: ٦٠] صَارا نَوْعَيْنِ.

وَقد قيل: إِن الْخَاص الْمَعْطُوف على الْعَام لَا يدْخل فِي الْعَام حَال الاقتران بل يكون من هَذَا الْبَاب وَالتَّحْقِيق أَن هَذَا لَيْسَ لَازِما قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البَقَرَة: ٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزَاب: ٧].

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَذَا الْبَاب يكون تَارَة مَعَ كَون أَحدهمَا بعض الآخر فيعطف عَلَيْهِ تَخْصِيصًا لَهُ بِالذكر لكَونه مَطْلُوبا بِالْمَعْنَى الْعَام وَالْمعْنَى الْخَاص): يعني: يكون مطلوب مرتين، مرة بالمعنى العام ومرة بالمعنى الخاص على هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البَقَرَة: ٩٨] عطف جبريل وميكال على الملائكة وهم من الملائكة.

وَمن هَذَا الْبَاب قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العَنكبوت: ٤٥] وَقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعرَاف: ١٧٠].

وتلاوة الْكتاب: هِيَ اتِّبَاعه وَالْعَمَل بِهِ كَمَا قَالَ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١]. قَالَ: يحلّون حَلَاله ويحرمون حرَامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه[١].

فاتباع الْكتاب يتَنَاوَل الصَّلَاة وَغَيرهَا لَكِن خصها بِالذكر لمزيتها.

الشَّرْح

- **التلاوة تنقسم إلى قسمين:**

١ ـ تلاوة بمعنى العمل.

٢ ـ تلاوة بمعنى القراءة.

والمراد بالآية هنا: التلاوة الحكمية، بمعنى: اتباعه والعمل به، وهي التلاوة الحقيقية التي تنفع الإنسان، التي عليها مدار السعادة والشقاء، وذلك بتصديق أخباره وتنفيذ أحكامه، وفعل أوامره، واجتناب نواهيه، والانزجار بزواجره، والاتعاظ بمواعظه، والوقوف عند حدوده، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه.

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٨) (١١٣)، وتفسير ابن جرير الطبري (٢/ ٥٦٧) تحقيق الشيخ/ أحمد شاكر).

وَكَذَلِكَ قَوْله لمُوسَى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] وَإِقَامَة الصَّلَاة لذكره من أجلِّ عِبَادَته.

وَكَذَلِك قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وَقَوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وَقَوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] فَإِن هَذِه الْأُمُور هِيَ أَيْضا من تَمام تقوى الله.

وَكَذَلِك قَوْله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] فَإِن التَّوَكُّل هُوَ الِاسْتِعَانَة وَهِي من عبَادَة الله لَكِن خصت بِالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها فَإِنَّهَا هِيَ العون على سَائِر أَنْوَاع الْعِبَادَة إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعبد إِلَّا بمعونته.

إِذا تبين هَذَا فكمال الْمَخْلُوق فِي تَحْقِيق عبوديته لله وَكلما ازْدَادَ العَبْد تَحْقِيقا للعبودية ازْدَادَ كَمَاله وعلت دَرَجَته.

الشَّرْح

○ قوله: (وَكلما ازْدَادَ العَبْد تَحْقِيقا للعبودية ازْدَادَ كَمَاله وعلت دَرَجَته): فكل مخلوق كماله في العبودية فكلما حقق العبودية كَمُل عند الله وازداد قربًا منه، وإذا نقصت عبوديته نقص كماله ونقص قربه من الله، وهذا شامل للأنبياء والرسل والملائكة والجن والإنس، فكل ما حقق المخلوقُ العبوديةَ كلَّما كان أقرب إلى الله وازداد درجة وعلوًا عند الله، وإذا ضعف تحقيقه للعبودية بَعُدَ من الله ونزلت درجته ومرتبته عنده سبحانه.

وَمن توهم أَن الْمَخْلُوق يخرج من الْعُبُودِيَّة بِوَجْه من الْوُجُوه أَو أَن الْخُرُوج عَنْهَا أكمل فَهُوَ من أَجْهَل الْخلق بل من أضلهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مَريَم: ٨٨-٩٥]، **وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمَسِيح:** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزّخرُف: ٥٩]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبيَاء: ١٩-٢٠]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٧٢-١٧٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافر: ٦٠].

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مَريَم: ٩٣] **الشاهد:** أن كل من في السماوات والأرض يأتي يوم القيامة عبدًا، فليس هناك أحد يخلو من عبودية.

وقد سرد المؤلف آيات كثيرة ليبين: أن ليس هناك أحد يخلو من العبودية، وأن الله وصف أكابر المخلوقات بالعبادة.

ووصف الله سبحانه المسيحَ عليه السلام بالعبودية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ وهو نبي كريم مع ذلك لم يخرج عن العبودية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبيَاء: ١٩] مَن عنده؟ هم الملائكة، فوصفهم الله بالعبادة وأنهم لا يستكبرون عن العبادة.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧٢] أي: ليس أحد يستنكف عن العبادة لا المسيح ولا الملائكة، فكلهم عباد الله، بل إنهم يعبدون الله وتطمئن نفوسهم إلى ذلك ويرتاحون ويتلذذون بالعبودية لله، ولا يستنكفون عن عبادة الله مع شرفهم وكمالهم، وما شرفوا وما كملوا إلا بتحقيق العبودية لله، ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٧٣] هذا وعيد لمن استكبر عن عبادة الله بأنه يعذب العذاب الأليم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافر: ٦٠] هذا وعيد للمستكبرين عن عبادة الله بأنهم سيدخلون جهنم داخرين أي أذلة صاغرين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٧-٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٥-٢٠٦].

وَهَذَا وَنَحْوه مِمَّا فِيهِ وصف أكَابِر الْخلق بِالْعبَادَة وذم من خرج عَن ذَلِك مُتَعَدد فِي الْقُرْآن.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٧-٣٨] **الشاهد**: وصف الملائكة بالعبادة ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٥-٢٠٦] **الشاهد**: أمر رسوله بالعبادة ووصف الملائكة بالعبادة.

وَقد أخبر أَنه أرسل جَمِيع الرُّسُل بذلك فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، **وَقَالَ تَعَالَى لبني إِسْرَائِيل:** ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦]، **وَقَالَ:** ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة: ٤١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، **وقال تعالى:** ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١١-١٥].

وكل رَسُول من الرُّسُل افْتتح دَعوته بِالدُّعَاءِ إِلَى عبَادَة الله كَقَوْل نوح وَمن بعده عَلَيْهِم السَّلَام فِي سُورَة الشُّعَرَاء وَغَيرهَا ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَقَالَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، **وَقَالَ فِي حق يُوسُف:** ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾ [الصافات: ١٥٩-١٦٠] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

الشَّرْح

أرسل الله الرسل تأمر الناس بعبادته وتوحيده وطاعته، وقد ذكر المؤلف الأدلة على ذلك من الكتاب العزيز، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦] بيّن الله سبحانه وتعالى أنه بعث في كل أمة رسولاً، يأمر الناس بأن يعبدوه ويوحدوه ويخلصوا له العبادة ويجتنبوا الطاغوت، والطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العَنكبوت: ٥٦]، وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البَقَرَة: ٤١] يعني: اعبدوني ولا تعبدوا غيري، وخصوني بالعبادة والتقوى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١] هذا أمر بالعبادة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وفي قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العَنكبوت: ٥٦] أمر للمؤمنين بالعبادة.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦] ومعنى يعبدون يوحدون، وهنا بيّن الله أنه خلق الجن والإنس لعبادته، أي: لتوحيده وطاعته، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمَر: ١١-١٥] وهذا رسول الله أكمل الخلق مأمور بعبادة الله.

○ قوله: (وكل رَسُول من الرُّسُل افْتتح دَعوته بِالدُّعَاءِ إِلَى عبَادَة الله): فكل نبي كان يأمر قومه ابتداءً بعبادة الله وتوحيده وذلك بإخلاص الدين له، كما قال سبحانه في سورة الأعراف وفي هود وفي المؤمنون: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ

شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف: ٢٤] صرف الله السوء عن يوسف عليه السلام بسبب إخلاصه لله ﷻ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النّحل: ٩٩-١٠٠] فالذي يتولاه الشيطان يكون له عليه سلطان، وليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، فالله تعالى يسلطهم على من يشاء، ويعصم من كيدهم ومكرهم من يشاء ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسرَاء: ٦٤-٦٥].

وبالعبودية نعت كل من اصْطفى من خلقه فِي قَوْله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، **وقوله:** ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧]، **وَقَالَ عَن سُلَيْمَان:** ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، **وَعَن أَيُّوب:** ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ [ص: ٤٤]، **وَقَالَ عَنهُ:** ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص: ٤١]، **وَقَالَ عَن نوح عَلَيْهِ السَّلَام:** ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسرَاء: ٣]، **وَقَالَ عَن خَاتم رسله:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسرَاء: ١]. **وَهُوَ أولى الْقبْلَتَيْنِ، وَقد خصّه الله بِأَن جعل الْعِبَادَة فِيهِ بخمسمئة ضعف**(١).

وَالْمَقْصُود بمضاعفة الْحَسَنَات هُوَ الْمَسْجِد الَّذِي حرقه الْيَهُود، عَلَيْهِم لعنة الله، ويظن الْبَعْض أَن الْمَسْجِد الْأَقْصَى هُوَ الصَّخْرَة والقبة المحيطة بهَا، وَلَيْسَ كَذَلِك وَقَالَ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجنّ: ١٩]، **وقال:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، **وقال:** ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسَان: ٦]، **وَقَالَ:** ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفُرقان: ٦٣]. **وَمثل هَذَا كثير مُتَعَدد فِي الْقُرْآن.**

الشَّرْح

○ قوله: (وبالعبودية نعت كل من اصْطفى من خلقه): كل من اصطفاه الله من الأنبياء والرسل نعته الله بالعبودية، فلا يخرج عن

(١) جاء في حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلَاةٍ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَمْسُمِائَةِ صَلَاةٍ»، رواه البزار في المسند (١٠/ ٧٧)، وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن رسول الله ﷺ من وجه من الوجوه بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد وإسناده حسن.ا.هـ ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٩)، وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٠) من طريق البزار.

العبودية، كما نعت إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، ونوح، ونبينا محمد ﷺ؛ كلهم نعتهم الله في المقامات العظيمة بالعبودية، فلا أحد يخرج عنها.

وكل ما ذكره المصنف من الآيات هنا فيها وصف الله تعالى لأنبيائه بالعبودية له، وهكذا وصف نبينا محمد ﷺ بالعبودية في مقام الإسراء وهو مقام عظيم، وفي مقام التحدي، ووصفه الله بالعبودية في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجنّ: ١٩] فأشرف مقامات النبي ﷺ العبودية خاصة والرسالة، فكيف بغيره؟!

ووصفه اللهُ أيضا بالعبودية في وقت الإنزال والإيحاء، فقال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجم: ١٠].

وكذلك وصف الله الأبرار بالعبودية.

• خلاصة الباب السابق:

تفاوت الناس تفاوتًا عظيمًا في باب العبودية لله ﷻ، وهو تفاوتهم في حقيقة الإيمان. ولذلك كانت ربوبية الله تعالى لعباده فيها عموم وخصوص. ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء في ظلمة الليل[١].

والعبودية هي: عبودية القلب؛ فمتى استعبد القلبُ لشيء كان عبدًا له، فإذا كان القلب متعبداً لله فهو عبد لله، وإذا كان متعبدًا لغيره فهو عبد لغيره. فإن العبودية عبودية القلب،ولو كان الجسد مأسورًا أو مسجونًا والقلب مرتاح فإنه لا يضره هذا السجن، وإذا كان القلب معبدًا لغير الله ولو كان حراً طليقًا فإنه عبد، **فالعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس.**

- **عبودية العبد لربه تستلزم موافقته لله في محبوباته ومسخوطاته؛** فولي الله: عبد الله على الحقيقة، وهو الذي يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي من والى الله، ويعادي من يعادي الله، ويحب من أحبه الله، ويبغض من أبغضه الله، ويعطي لله، ويمنع لله، فيكون دينه كله لله.

ومحبته لمحبوب الله ﷻ، فمحبة محبوب المحبوب من محبة المحبوب، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[٢].

«**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»: هذا من تمام محبة الله ﷻ،

---

(١) لحديث: «لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وغيره.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والعبد فقير بالذات إلى الله عز وجل من جهتين:

١ ـ من جهة العبادة، وهي: العلة الغائية.

٢ ـ من جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية.

ودين الإسلام مبني على الاستسلام لله وحده؛ فمن لم يستسلم لله ولم ينقد له فليس بمسلم، ومن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك، ومن لم يستسلم لله فهو مستكبر، والمشرك والمستكبر كل منهم كافر.

فعلى ذلك يكون **الناس ثلاثة أقسام**:

١ ـ قسم استسلم لله فقط مع إخلاص الدين له عز وجل والإيمان به وبرسوله، فهذا هو المؤمن حقًا.

٢ ـ قسم استسلم لله في الظاهر لكنه ليس بمؤمن في الباطن وهؤلاء المنافقين.

٣ ـ قسم استسلم لله ولغير الله فهو مشرك.

٤ ـ قسم استكبر على الله ولم يستسلم لله فهو مستكبر، مثل فرعون وإبليس ومن على شاكلتهم فهم مستكبرون عن عبادة الله لم يستسلموا، والمنافقين مستسلمون لله في الظاهر لكنهم غير مؤمنين في الباطن فيكونون كفرة.

والمستسلمون لله والمستسلمون لغير الله مشركون، والمؤمن مستسلم لله وحده فقط ولا يستسلم لغيره، وهو مؤمن في الباطن والظاهر.

فصل [فِي التَّفَاضُل بِالْإِيمَان]

إِذا تبين ذَلِك فمعلوم أَن النَّاس يتفاضلون فِي هَذَا الْبَاب تفاضلا عَظِيما وَهُوَ تفاضلهم فِي حَقِيقَة الْإِيمَان وهم ينقسمون فِيهِ إِلَى عَام وخاص وَلِهَذَا كَانَت إلهية الرب لَهُم فِيهَا عُمُوم وخصوص.

وَلِهَذَا كَانَ الشّرك فِي هَذِه الْأمة «أخْفى من دَبِيب النَّمْل»(١)، وَفِي الصَّحِيح عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «تعس عبد الدِّرْهَم تعس عبد الدِّينَار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وَإِذا شيك فَلَا انتقش إِن أعطي رَضِي وَإِن منع سخط»(٢) فَسَماهُ النَّبِي ﷺ عبد الدِّرْهَم وَعبد الدِّينَار وَعبد القطيفة وَعبد الخميصة وَذكر مَا فِيهِ دُعَاء وخبرًا وَهُوَ قَوْله: «تعس وانتكس وَإِذا شيك فَلَا انتقش» والنقش إِخْرَاج الشَّوْكَة من الرجل والمنقاش مَا يخرج بِهِ الشَّوْكَة.

وَهَذِه حَال من إِذا أَصَابَهُ شَرّ لم يخرج مِنْهُ وَلم يفلح لكَونه تعس وانتكس فَلَا نَالَ الْمَطْلُوب وَلَا خلص من الْمَكْرُوه وَهَذِه حَال من عبد المَال وَقد وصف ذَلِك بِأَنَّهُ إِذا أعطي رَضِي وَإِن منع سخط كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

الشَّرْح

○ قوله: (فمعلوم أَن النَّاس يتفاضلون فِي هَذَا الْبَاب تفاضلا عَظِيما): أي أنهم في باب العبودية لله يتفاضلون تفاضلاً عظيمًا، وهذا

(١) سبق تخريج الحديث الوارد في هذا المعنى قريبا.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في سبيل الله (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يعني أنهم يتفاضلون في الإيمان بالله ورسوله، وهذا هو تفاضلهم في عبودية الله.

○ قوله: (وهم ينقسمون فِيهِ إِلَى عَام وخاص): لكون قلبه متعبد لهذه الأشياء، لكونه يسخط من أجل الدرهم ويرضى من أجل الدرهم.

قوله في الحديث: «**تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة**» القطيفة هي: نوع من الفرش التي لها خمل، **والخميصة هي**: كساء له أعلام، **والمعنى**: أنه متعبد لهذه الأشياء؛ يتعس في جمعها حتى يقصر في الواجبات أو يفعل المحرمات،فصار قلبه متعبد للدنيا؛ لكونه يرضى لها ويغضب لها ويسخط من أجلها، ولهذا قال: «**إن أعطي رضي، وإن منع سخط**» فهذا واقع في نوع من العبادة، وقد دعا عليهم النبي ﷺ بالتعاسة والانتكاس «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» وهو دعاء عليه بأن يعسر الله أموره.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التّوبَة: ٥٨] هذا في المنافقين، أي: أن عبد الدينار وعبد الدرهم قد شابه المنافقين في كونه يغضب من أجل الدنيا، ويرضى من أجل الدنيا.

وَهَكَذَا حَال من كَانَ مُتَعَلقا برئاسة أَو بِصُورَة، وَنَحْو ذَلِك من أهواء نَفسه، إِن حصل لَهُ رَضِي وَإِن لم يحصل لَهُ سخط فَهَذَا عبد مَا يهواه من ذَلِك وَهُوَ رَقِيق لَهُ إِذْ الرّقّ والعبودية فِي الْحَقِيقَة هُوَ رق الْقلب وعبوديته فَمَا اسْترق الْقلب واستعبده فَهُوَ عَبده.

وَلِهَذَا يُقَال:

الْعَبْد حر مَا قنع ... وَالْحر عبد مَا طمع

وَقَالَ الشَّاعِر:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ... وَلَو أَنِّي قنعت لَكُنْت حرًّا

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَكَذَا حَال من كَانَ مُتَعَلقا برئاسة أَو بِصُورَة، وَنَحْو ذَلِك): لأن العبودية عبودية القلب، فالعبد المملوك لسيده حر ما دام قانعًا، وهذا يشمل المملوك وغير المملوك فما دام قنوعًا راضيًا بما قسمه الله له فإنه حر حتى ولو كان مسترقًا. والحر لو كان حرًا طليقًا يتصرف فهو عبدٌ ما طمع، فإذا طمع فهو عبد، فما دام المرء في قلبه الطمع فهو عبد ولو كان حرًا طليقًا، والعبد حر ولو كان مقيدا، لأن العبودية عبودية القلب، والحرية هي حرية القلب في الحقيقة، وهذا الشيء يجده الإنسان واقعًا مشاهدًا، فتجد بعض الناس الآن عنده أموال كثيرة لكن قلبه غير مستريح، تجده مشغولاً في ليله ونهاره وفي يقظته وفي منامه مشغول بجمع المال، يجمعه من حلال وحرام ولا يبالي، وتجده لا يستريح بين أولاده ولا في أكله ولا في شربه لأن قلبه مسترق للمال.

وبعض الناس جعل الله غناه في قلبه وأعطاه القناعة، فتجده مستريحًا ولو كان ماله قليلاً.

وَيُقَال: الطمع غل فِي الْعُنُق قيد فِي الرجل فَإِذا زَالَ الغل من الْعُنُق زَالَ الْقَيْد من الرجل. ويروى عَن عمر بن الْخطاب رضى الله عَنهُ أَنه قَالَ: الطمع فقر واليأس غنى وَإِن أحدكُم إِذا يئس من شئ اسْتغنى عَنهُ[1].

وَهَذَا أَمر يجده الْإِنْسَان من نَفسه فَإِن الْأَمر الَّذِي ييأس مِنْهُ لَا يَطْلُبهُ وَلَا يطْمع فِيهِ وَلَا يبْقى قلبه فَقِيرا إِلَيْهِ وَلَا إِلَى من يَفْعَله وَأما إِذا طمع فِي أَمر من الْأُمُور ورجاه فَإِن قلبه يتَعَلَّق بِهِ فَيصير فَقِيرا إِلَى حُصُوله وَإِلَى من يظنّ أَنه سَبَب فِي حُصُوله وَهَذَا فِي المَال والجاه والصور وَغير ذَلِك.

الشَّرْح

هكذا (غُل) بضم الغين، **وهو**: ما يكون في العنق، أما (الغِل) بكسر الغين فهو: الحسد والحقد الذي يكون في الصدر، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجر: ٤٧]، فيختلف المعنى بالضم والكسر، فإذا كسرت الغين صار المراد به الغِل الذي في الصدر، وإذا ضممت الغين (غُل) صار القيد الذي يكون في الرقبة، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يَس: ٨].

فالأغلال هنا جمع غُل، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسَان: ٤].

والأغلال هي: القيود التي يجرون بها في أعناقهم، فيسحبون بها في الحميم ثم في النار يسجرون.

المقصود أن الغُل بضم الغين هو الغل الحسي وهو الوثاق الذي يكون في الرقبة، من حبل وغيره، أما الغِل بكسر الغين فهو الحقد الذي يكون في الصدر وفي القلب.

---

(١) انظر: تفسير سفيان الثوري صـ ١٨، وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١/ ٨٨)، وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٥٠)، والتمهيد لابن عبد البر (١٧/ ٤٤٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٤/ ٣٥٧).

قَالَ الْخَلِيل ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

فَالْعَبْد لَا بُد لَهُ من رزق وَهُوَ مُحْتَاج إِلَى ذَلِك.

فَإِذا طلب رزقه من الله صَار عبدا لله فَقِيرا إِلَيْهِ.

وَإِذا طلبه من مَخْلُوق صَار عبدا لذَلِك الْمَخْلُوق فَقِيرا إِلَيْهِ.

وَلِهَذَا كَانَت مَسْأَلَة الْمَخْلُوق مُحرمَة فِي الأَصْل وَإِنَّمَا أبيحت للضَّرُورَة.

الشَّرْح

○ قوله: (وَلِهَذَا كَانَت مَسْأَلَة الْمَخْلُوق مُحرمَة فِي الأَصْل وَإِنَّمَا أبيحت للضَّرُورَة): وما ذاك إلا لأن مسألة المخلوق فيها ميل الإنسان بقلبه إلى المخلوق ويحتاج إليه فيكون قلبه متعبد لذلك المخلوق، فصارت مسألة المخلوق لا تجوز إلا للضرورة، ولهذا جاء في الحديث المنع من سؤال الناس المال، وأن من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا[(١)].

وفي حديث قبيصة الذي قال إن النبي ﷺ قال: «**لا تحل المسألة إلا لثلاثة: رجل تحمل حمالة فيسأل حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يصيب قواما من عيشه وسدادًا من عيشه ثم يمسك، ورجلا أصابته فاقة يعني فقرًا شديدًا حتى يقوم ثلاثة من ذى الحجا** ـ يعني من قومه من ذوي العقول ـ **لقد أصابت فلانا فاقة فيسأل حتى يصيب قواما أو قال سدادًا من عيش، ثم قال: وما سوى ذلك فهو سحت يأكلها صاحبها سحتًا**»[(٢)]، وكذلك سؤال الناس

(١) لحديث: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**» رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة (١٠٤١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٤٤)، من حديث قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ** =

غير المال، الأولى ألا تسأل ـ كما سيبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ـ والنبي ﷺ بايع بعض الصحابة على ألا يسألوا الناس شيئًا ـ مطلقًا ـ؛ فكان الواحد منهم إذا سقط سوطه وهو على دابته ينزل ويأخذ السوط ولا يقول يا فلان ناولني إياه حتى لا يكون قد احتاج إلى أحد(١).

وقد يكون بعض الناس يتعب من بجواره، فيقول: ائت لي بكذا، اعطني كذا، لكن **كل ما أمكن الإنسان الاستغناء عن الناس فهو أولى.**

= حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ـ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ـ **وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ** ـ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ـ **فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**».

(١) لحديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا ـ وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً ـ وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ. رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة (١٠٤٣).

وَفِي النهى عَنْهَا أَحَادِيث كَثِيرَة فِي "الصَّحَاح" و "السّنَن" و"المسانيد" كَقَوْلِه ﷺ: «لَا تزَال الْمَسْأَلَة بأحدكم حَتَّى يَأْتِي يَوْم الْقِيَامَة وَلَيْسَ فِي وَجهه مزعه لحم»(١).

وَقَالَ: «من سَأَلَ النَّاس وَله مَا يُغْنِيه جَاءَت مَسْأَلته يَوْم الْقِيَامَة خدوشا أَو خموشا أَو كدوشا فِي وَجهه»(٢)، وَقَوله: «لَا تحل الْمَسْأَلَة إِلَّا لذِي غرم مفظع أَو دم موجع أَو فقر مدقع»(٣) وَهَذَا الْمَعْنى فِي "الصَّحِيح" وَفِيه أَيْضا: «لِأَن يَأْخُذ أحدكُم حبله فَيذْهب فيحتطب خير لَهُ من أَن يسْأَل النَّاس أَعْطوهُ أَو منعُوهُ»(٤)، وَقَالَ: «مَا أَتَاك من هَذَا المَال وَأَنت غير سَائل وَلَا مستشرف فَخذه وَمَا لَا فَلَا تتبعه نَفسك»(٥) فكره أَخذه مَعَ سُؤال اللِّسَان واستشراف الْقلب وَقَالَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح: «من يسْتَغْن يغنه الله وَمن يستعف يعفه الله وَمن يتصبر يصبره الله وَمَا أعطي أحد عَطاء خيرا وأوسع من الصَّبْر»(٦) وَأوصى خَواص

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من الناس تكثرا (١٤٧٤)، صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يعطي من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٦)، والترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب من تحل له الزكاة (٦٥٠)، والنسائي في سننه (٥/ ٩٧) (٢٥٩٢)، وأحمد في المسند (٤٢٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وسنده معلول بحكيم بن جبير، فقد ضعفوه. والله أعلم.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة (١٦٤١)، سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب بيع المزايدة (٢١٩٨)، مسند الإمام أحمد (١٢٢٧٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧١)، ولفظه: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»، من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، من أعطاه الله شيئا من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٤٧٣)، صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٤٥)، بلفظ: «**إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**»، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أَصْحَابه أَلا يسْأَلُوا النَّاس شَيْئا وَفِي "الْمسند"[١]: (أَن أَبَا بكر كَانَ يسْقط السَّوْط من يَده فَلَا يَقُول لأحد: ناولني إِيَّاه وَيَقُول: إِن خليلي أَمرنِي أَلا أسأَل النَّاس شَيْئا).

وَفِي "صَحِيح مُسلم"[٢] وَغَيره عَن عَوْف بن مَالك أَن النَّبِي ﷺ بَايعه فِي طَائِفَة وَأسر إِلَيْهِم كلمة خُفْيَة: «أَن لَا يسْأَلُوا النَّاس شَيْئا» فَكَانَ بعض أُولَئِكَ النَّفر يسْقط السَّوْط من يَد أحدهم وَلَا يَقُول لأحد: ناولني إِيَّاه.

الشَّرْح

قوله ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»: هذا الحديث فيه التحذير من السؤال بغير حق وأن صاحبه يأتي يوم القيامة وقد سقط لحم وجهه ـ نعوذ بالله ـ.

قوله ﷺ: «لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع...»: أي الذي يحل له السؤال، إما في غرم؛ يعني: يتحمل حمالة في ذمته يصلح بين قبيلتين أو بين قريتين أو بين شخصين أو بين زوجين، فيتحمل في ذمته أموالاً يعطي هؤلاء عشرة آلاف وهؤلاء عشرة آلاف وهؤلاء ألفاً، مثلاً: فهذا يسأل حتى يُحَصِّل هذا الشيء الذي تحمّله، حتى ولو كان غنيًا إذا تحمل في ذمته ديونًا من أجل الإصلاح بين الناس يُعطى حتى من الزكاة تقديرًا له على هذا العمل النبيل، وهذا يسمى ذو غرم ـ أي غرامة ـ أو دم موجع أي أصاب دمًا مثلاً بسبب قتل، ومن المعلوم أن القتل الخطأ الدية فيه تكون على العاقلة، لكن نقدر أن لا يكون له عاقلة أو يكون القتل مثلاً عمدًا أو شبه عمد مثلاً وعفى عنه فالمقصود أنه إذا كان صاحب دم فإنه يسأل حتى يسدد هذا الدين الذي عليه،

(١) مسند الإمام أحمد رقم (٦٥).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٤٣).

والثالث، الفقر المدقع أي الشديد، فيسأل بمقدار حاجته فإذا وجد ما يسدد حاجته وحاجة أولاده فعليه أن يمسك.

وقوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب، خير له من يسأل الناس، أعطوه أو منعوه**» فيكف باحتطابه وحرفته وصنعته نفسَه عن سؤال الناس، وقد كان الأنبياء والعلماء والأخيار يعملون، ففي صحيح البخاري قال ﷺ: «**ما من نبي إلا رعى الغنم**» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**وأنا، لقد كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[(١)].

والمقصود: أن على الإنسان أن يعمل ويشتغل ولا يمتهن السؤال.

وقوله ﷺ: «**من يستغن يغنه الله. ومن يستعفف يعفه الله**» أي: من يستعفف يجازى بالمثل، فيعفه الله ويرزقه الله العفة والقناعة في قلبه، ومن يستغن، فإن الله يغنيه بما يجعل في قلبه من القناعة والرضا والطمأنينة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقد دلّت النُّصُوص على الْأَمر بِمَسْأَلَة الْخَالِق وَالنَّهْي عَن مَسْأَلَة الْمَخْلُوق فِي غير مَوضِع كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧-٨].

وَقَول النَّبِي ﷺ لِابْنِ عَبَّاس: «إِذا سَأَلت فأسال الله واذا استعنت فَاسْتَعِنْ بِاللَّه»(١).

وَمِنْه قَول الْخَلِيل: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العَنكبوت: ١٧]، وَلم يقل: فابتغوا الرزق عِنْد الله لِأَن تَقْدِيم الظّرْف يشْعر بالاختصاص والحصر كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْتَغُوا الرزق إِلَّا عِنْد الله وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النِّسَاء: ٣٢].

وَالْإِنْسَان لابد لَهُ من حُصُول مَا يحْتَاج إِلَيْهِ من الرزق وَنَحْوه وَدفع مَا يضرّهُ وكلا الْأَمريْنِ شرع لَهُ أَن يكون دعاؤه لله فَلَا يسْأَل رزقه إِلَّا من الله وَلَا يشتكي إِلَّا إِلَيْهِ كَمَا قَالَ يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح: ٧-٨]

الشاهد منه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ يعني: ارغب إلى الله في السؤال، وتقديم الجار بالمجرور يفيد الحصر، يعني: ارغب إلى الله ولا ترغب إلى غيره، واسأل الله ولا تسأل غيره، أي: ارغب إلى الله في المسألة.

○ قوله: (وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله**»): **المعنى**: لا تسأل المخلوق.

○ قوله: (كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله): فإن الرزق من

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦)، مسند الإمام أحمد (٢٦٦٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.ا.هـ.

الصور التي يقع فيها نوع من الإلهية، كأن يدعى أحد من دون الله، ويطلب منه الرزق، فمن اعتقد في شخص أنه هو الذي يرزق كأن يقول: كل رزق لا يرزقنيه شيخ الطريقة فلان فلا أريده فهذا يكون كافرا، وهذا من الغلو، فيكون مشركا، إذ قد اعتقد أن فلانا يرزق، وهذا نوع من الإلهية، وهو شرك؛ فيستتاب من ذلك، فإن تاب وإلا قتل.

وَالله تَعَالَى ذكر فِي الْقُرْآن الهجر الْجَمِيل والصفح الْجَمِيل وَالصَّبْر الْجَمِيل.

وَقد قيل: إِن الهجر الْجَمِيل هُوَ هجر بِلَا أَذَى.

والصفح الْجَمِيل صفح بِلَا معاتبة.

وَالصَّبْر الْجَمِيل صَبر بِغَيْر شكوى إِلَى الْمَخْلُوق.

وَلِهَذَا قرئَ على أَحْمد بن حَنْبَل فِي مَرضه: إِن طاوسا كَانَ يكره أَنِين الْمَرِيض وَيَقُول: إِنَّه شكوى فَمَا أنّ أَحْمد حَتَّى مَاتَ[1].

الشَّرْح

○ قوله: (وَالله تَعَالَى ذكر فِي الْقُرْآن الهجر الْجَمِيل والصفح الْجَمِيل وَالصَّبْر الْجَمِيل): **فالهجر الجميل** ورد في المزمل: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ [المُزّمل: ١٠]، **والصفح الجميل** ورد في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحِجر: ٨٥]، **والصبر الجميل** ورد الأمر به في سورة المعارج في قوله سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ۝٥﴾ [المعَارج: ٥].

○ قوله: (وَالصَّبْر الْجَمِيل صَبر بِغَيْر شكوى إِلَى الْمَخْلُوق): وذكر خبر الإمام أحمد وهذا يدل على ورع السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ فالإمام أحمد لما مرض رَحِمَهُ اللَّهُ كان يئن من شدة المرض ـ والأنين معروف ـ فقرئ عليه أن طاووس بن كيسان اليماني ـ من التابعين ـ كان يكره أنين المريض ويقول: (إنه يكتب على الإنسان؛ لأنه شكوى من الخالق إلى المخلوق) فتصبَّر رَحِمَهُ اللَّهُ وسكت عن الأنين، حتى مات.

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١٨٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في (مناقب الإمام أحمد) ص٥٤٦، وانظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥).

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يُوسُف: ١٨]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

وَكَانَ عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ يقْرَأ فِي الْفجْر بِسُورَة يُونُس ويوسف والنحل[(١)]، فَمر بِهَذِهِ الْآيَة فِي قِرَاءَته فَبكى حَتَّى سمع نَشِيجه من آخر الصُّفُوف[(٢)]

الشَّرْح

○ قوله: (وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل): فالشكوى إلى الخالق والمشتكى إلى الله، فالله منه المشتكي وإليه المشتكى، فالشكوى إلى الخالق لا تنافي، ولكن الممنوع الشكوى إلى المخلوق إلا إذا كان هناك حاجة لأن تبين، كأن تُسأل فتخبر أن حالته كذا وكذا، وذلك من باب الإخبار أو عند الطبيب إذا أراد أن يتعالج الإنسان يقول أحسُّ بكذا وكذا أو من باب الإخبار لأهله وأولاده حينما يسألون لا من باب الشكوى، فهذه لا تسمى شكوى جزع، أما الشكوى فلا تجوز، إذا الشكوى لا تكون إلا إلى الخالق؛ فهذه لا تسمى شكوى جزع ولهذا قال الله عن يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يُوسُف: ١٨]، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦]، فدل على أن شكواه إلى الله لا تنافي الصبر الجميل.

---

(١) لحديث عمرو بن ميمون الذي قال فيه: وَكَانَ ـ أي: عمر بن الخطاب ﷺ ـ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قصة البيعة، والاتفاق على عثمان بن عفان وفيه مقتل عمر بن الخطاب ﷺ (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤١٤)، والبخاري في صحيحه ـ معلقا ـ، كتاب الآذان، باب إذا بكى الإمام في الصلاة.

وكان عمر ﷺ يقرأ بالسور الطوال كلها كسورة يونس وسورة يوسف وسورة النحل، ولما طعن كان يقرأ بأحد هذه السور الطوال ﷺ حتى يجتمع الناس، ويقرأ بها خصوصًا في الركعة الأولى؛ لأن صلاة الفجر مشروع فيها تطويل القراءة، ولأن الناس بعد اليقظة من النوم بحاجة إلى سماع كلام الله وتدبره فكان يقرأ ﷺ بسورة يوسف فإذا مر بهذه الآية: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦] بكي حتى يُسمع نشيجه من آخر الصفوف؛ فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف[(١)].

(١) هذا من كلام أبي عبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكي، انظر: تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٧٢٨)، وتاريخ دمشق (٧١/ ٢٢٤).

وَمن دُعَاء مُوسَى[١]: «اللَّهُمَّ لَك الْحَمد وَإِلَيْك المشتكى وَأَنت الْمُسْتَعَان وَبِك المستغاث وَعَلَيْك التكلان وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك».

وَفِي الدُّعَاء الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِي ﷺ لما فعل بِهِ أهل الطَّائِف مَا فعلوا: «اللَّهُمَّ إِلَيْك أَشْكُو ضعف قوتي وَقلة حيلتي وهواني على النَّاس يَا أرْحم الرَّاحِمِينَ أَنْت رب الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنت رَبِّي اللَّهُمَّ إِلَى من تَكِلنِي؟ إِلَى بعيد يتجهمني أم إِلَى عَدو ملكته أَمْرِي؟ إِن لم يكن بك غضب عَليّ فَلَا أُبَالِي غير أَن عافيتك أوسع لي أعوذ بِنور وَجهك الَّذِي أشرقت بِهِ الظُّلُمَات وَصلح عَلَيْهِ أَمر الدُّنْيَا وَالْآخِرَة أَن ينزل بِي سخطك أَو يحل عَليّ غضبك لَك العتبى حَتَّى ترْضى فَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه»[٢].

وَفِي بعض الرِّوَايَات: «وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك»[٣].

وَكلما قوي طمع العَبْد فِي فضل الله وَرَحمته ورجائه لقَضَاء حَاجته وَدفع ضَرُورَته قويت عبوديته لَهُ وحريته مِمَّا سواهُ فَكَمَا أَن طمعه فِي الْمَخْلُوق يُوجب عبوديته لَهُ فيأسه مِنْهُ يُوجب غنى قلبه نَظِيره، وَأفضل على من شِئْت تكن أميره، وَاحْتج إِلَى من شِئْت تكن أسيره.

الشَّرح

○ قوله: (وَمن دُعَاء مُوسَى...): **الشاهد منه: «وإليك المشتكى»**، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٣٥٦)، والصغير (١/ ٢١١)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٣): فيه من لم أعرفهم.ا.هـ

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٧٣)، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٧/ ٢٦٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢)، والمقدسي في الأحاديث المختارة (٩/ ١٨١)، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. ا.هـ وقد عنعن محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة.

(٣) انظر: تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢)، والأحاديث المختارة (٩/ ١٨١).

○ وقوله: (وَفِي الدُّعَاء الَّذِي دَعَا بِهِ ﷺ...): **الشاهد** أن النبي ﷺ اشتكى إلى الله، «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي**» فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر.

○ قوله: (كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره) **المعنى**: أنك إذا استغنيت عن شخص صرت نظيرًا له وندًا؛ فتكون أنت وإياه سواء، فلا يحتاج إليك ولا تحتاج إليه؛ لأنك مستغن عنه وهو مستغن عنك، فاستغن عمن شئت تكن نظيره ومثيلاً له، وأفضل على من شئت تكن أميره، فإذا أعطيت أحدًا شيئًا فأنت أمير عليه وهو عبد لك؛ لأنك أنت الذي تفضلت وأنت الذي أعطيته، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، إذا احتجت إلى شخص فأنت أسير وعبد له لأنك محتاج إليه فيتعلق قلبك به.

فَكَذَلِك طمع العَبْد فِي ربه ورجاؤه لَهُ يُوجب عبوديته لَهُ.

وإعراض قلبه عَن الطّلب من الله والرجاء لَهُ يُوجب انصراف قلبه عَن الْعُبُودِيَّة لله لَا سِيمَا من كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوق ولايرجو الْخَالِق بِحَيْثُ يكون قلبه مُعْتَمدًا إِمَّا على رئاسته وَجُنُوده وَأَتْبَاعه ومماليكه وَإِمَّا على أَهله وأصدقائه وَإِمَّا على أَمْوَاله وذخائره وَإِمَّا على ساداته وكبارئه كمالكه وَملكه وَشَيْخه ومخدومه وَغَيرهم مِمَّن هُوَ قد مَاتَ أَو يَمُوت قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفُرقان: ٥٨].

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أَن ينصروه أَو يرزقوه أَو أَن يهدوه خضع قلبه لَهُم وَصَارَ فِيهِ من الْعُبُودِيَّة لَهُم بِقدر ذَلِك وَإِن كَانَ فِي الظَّاهِر أَمِيرا لَهُم مُدبرا لأمورهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر إِلَى الْحَقَائِق لَا إِلَى الظَّوَاهِر.

فالرجل إِذا تعلق قلبه بِامْرَأَة وَلَو كَانَت مُبَاحَة لَهُ يبْقى قلبه أَسِيرًا لَهَا تحكم فِيهِ وتتصرف بِمَا تُرِيدُ وَهُوَ فِي الظَّاهِر سَيِّدهَا لِأَنَّهُ زَوجهَا أَو مَالِكهَا وَلكنه فِي الْحَقِيقَة هُوَ أَسِيرهَا ومملوكها وَلَا سِيمَا إِذا علمت بفقره إِلَيْهَا وعشقه لَهَا وَأَنه لَا يعتاض عَنْهَا بغَيْرهَا فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تتحكم فِيهِ تحكم السَّيِّد القاهر الظَّالِم فِي عَبده المقهور الَّذِي لَا يَسْتَطِيع الْخَلَاص مِنْهُ بل أعظم

الشَّرْح

○ قوله: (فَكَذَلِك طمع العَبْد فِي ربه ورجاؤه لَهُ يُوجب عبوديته لَهُ): وذلك لأن العبرة بالحاجة فإذا احتاج إلى أحد تعلق قلبه به وإذا استغنى عنه لم يتعلق قلبه به، فإذا علَّق الإنسان قلبَه بالله وأنزل حوائجه بالله صار قلبه عبدًا لله وإذا أنزل حوائجه بالمخلوقين صار عبدًا لهم.

○ وقوله: (فالرجل إذا تعلق قلبه بِامْرَأَة وَلَو كَانَت مُبَاحَة لَهُ يبْقى قلبه أَسِيرًا لَهَا): وهذا واقع؛ فإذا تعلق رجل بامرأة ولو كانت زوجته ـ مثلاً ـ تجده هو الزوج والولي في الظاهر وهو صاحب البيت وصاحب النفقة، لكن هي التي تدبره في كل شيء، ولا يقدر أن يتخلى؛ لأن قلبه متعبد لها من شدة المحبة والتعلق.

فَإِن أسر الْقلب أعظم من أسر الْبدن واستعباد الْقلب أعظم من استعباد الْبدن.

فَإِن من استبعد بدنه واسترق وَأسر لَا يُبَالِي إِذا كَانَ قلبه مستريحًا من ذَلِك مطمئنًا، بل يُمكنهُ الاحتيال فِي الْخَلَاص.

وَأما إِذا كَانَ الْقلب الَّذِي هُوَ ملك الْجِسْم رَقِيقا مستعبدا متيما لغير الله فَهَذَا هُوَ الذل والأسر الْمَحْض والعبودية الذليلة لما استعبد الْقلب.

وعبودية الْقلب وأسره هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّب عَلَيْهَا الثَّوَاب وَالْعِقَاب فَإِن الْمُسلم لَو أسره كَافِر أَو استرقه فَاجر بِغَيْر حق لم يضرّهُ ذَلِك إِذا كَانَ قَائِما بِمَا يقدر عَلَيْهِ من الْوَاجِبَات

الشَّرْح

○ قوله: (فَإِن من استبعد بدنه واسترق وَأسر لَا يُبَالِي إِذا كَانَ قلبه مستريحًا من ذَلِك مطمئنًا، بل يُمكنهُ الاحتيال فِي الْخَلَاص): لأن **المحبوس من حُبس قلبه عن الله**، فما دام قلب المرء حرًا مرتاحًا فلا يضره ما يصيب جسده؛ لأن العبرة بالحرية والعبودية والراحة بالقلب.

○ قوله: (وعبودية الْقلب وأسره هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّب عَلَيْهَا الثَّوَاب وَالْعِقَاب) **يعني**: أن العبرة بعبودية القلب، فإذا كان الإنسان مأسوراً في بلاد الكفار وقلبه مستريح فلا يضره ذلك فهو يعبد الله ويؤدي الواجبات التي يقدر عليها ولا يضره ذلك، حتى ولو أكره على التكلم بالكفر وتكلم وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه لا يضره ذلك، لكن المصيبة هي عبودية القلب، فإذا تعبد لغير الله فهذا الذي يضره ولو كان جسمه حرًا طليقًا.

وَمن استعبد بِحَق إِذا «أدّى حق الله وَحقّ موَالِيه فَلهُ أَجْرَانِ»[١] وَلَو أكره على التَّكَلُّم بالْكفْر فَتكلم بِهِ وَقَلبه مطمئن بِالْإِيمَان لم يضرّهُ ذَلِك.

وَأما من استُعبد قلبه فَصَارَ عبدا لغير الله فَهَذَا يضرّهُ ذَلِك وَلَو كَانَ فِي الظَّاهِر ملك النَّاس.

فالحرية حريَّة الْقلب والعبودية عبودية الْقلب كَمَا أَن الْغنى غنى النَّفس قَالَ النَّبِي ﷺ: «لَيْسَ الْغنى عَن كَثْرَة الْعرض وَإِنَّمَا الْغنى غنى النَّفس»[٢].

الشَّرْح

○ قوله: (لَيْسَ الْغنى عَن كَثْرَة الْعرض): **والعرَض هو**: الأثاث والأموال والمتعة، **ومعنى الحديث**: أنه ليس الغنى في كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، فبعض الناس عنده أموال طائلة وأثاث وأمتعة وشركات ومؤسسات لكن قلبه فقير لا يشبع، تجد قلبه دائمًا متعلق بالدنيا، دائمًا قلبه لا يستريح ولا يطمئن، لا في نومه ولا في أكله ولا شربه ولا في جلوسه مع أهله، لأن قلبه فقير وإن كان عنده أموال كثيرة، وبعض الناس ماله قليل قدر ما يكفيه فحاله كفاف، إلا أن قلبه مستريح مطمئن، لما جعل الله في قلبه من القناعة والراحة والطمأنينة، فتجده مرتاحًا في بيته ومع أهله ومع أولاده ومع أقاربه ومع والديه وأرحامه الذي يصلهم فهو مستريح البال.

---

(١) لحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**»، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٥٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، صحيح مسلم، كتاب الزكاة (١٠٥١).

وَهَذَا لعَمْرو الله إِذا كَانَ قد استعبد قلبه صُورَة مُبَاحَة.

فَأَما من استعبد قلبه صُورَة مُحرمَة امْرَأَة أَو صبي فَهَذَا هُوَ الْعَذَاب الَّذِي لَا يدانيه عَذَاب.

وَهَؤُلَاء عشاق الصُّور، من أعظم النَّاس عذَابا وَأَقلهمْ ثَوابًا، فَإِن العاشق لصورة إِذا بَقِي قلبه مُتَعَلقا بهَا مستعبدا لَهَا اجْتمع لَهُ من أَنْوَاع الشَّرّ وَالْفساد مَا لَا يُحْصِيه إِلَّا رب الْعباد.

وَلَو سلم من فعل الْفَاحِشَة الْكُبْرَى فداوم تعلق الْقلب بهَا بِلَا فعل الْفَاحِشَة أَشد ضَرَرا عَلَيْهِ مِمَّن يفعل ذَنبا ثمَّ يَتُوب مِنْهُ وَيَزُول أَثَره من قلبه وَهَؤُلَاء يشبّهون بالسكارى والمجانين كَمَا قيل:

سُكران سُكر هوى وسُكر مدامة وَمَتى إفاقة من بِهِ سُكران؟

الشَّرح

○ قوله: (وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة): **ليس المراد**: القَسَم، **وإنما المراد**: تأكيد الكلام، وجاء مثل هذا في كلام شيخ الإسلام، وكلام ابن القيم، بل جاء في كلام عائشة رضي الله عنها كما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة يوسف أن عائشة قالت: لعمري[(١)].

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الطب، باب كيف الرقى، (٣٨٩٦) و (٣٩٠١)، وفي المسند (٢١٨٣٦) من حديث خارجة بن الصلت عن عمه، أنه رقى معتوها بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية، فكأنما نشط **من عقال قال: فأعطوني جعلا، فقلت: لا حتى أسأل النبي ﷺ، فسألته فقال: «كُلْ لَعَمْرِي مَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ»** قال الحاكم: صحيح الإسناد، وفي المسند أيضا (١٤٨٦٤) في قصة جابر مع جمله وشراء النبي ﷺ لجمله ثم رده عليه ثم قال: **«لَعَمْرِي مَا نَفَعْنَاكَ لِنُنْزِلَكَ عَنْهُ»**، وجاء أيضا في الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٢٨٤٦) وفيه أن رجلا قال: **لا أجلس يوما ولا أتكلم ولا آوي إلى الظل فحدث النبي ﷺ فأقسم عليه فجلس في الظل ثم أقسم عليه فكلم ثم قال: «إنما ذلكم الشيطان أراد يختم على فيك لعمري لقد أسرعتم التبدع وأنا فيكم»**.

بل جاء في حديث مرفوع في سنن أبي داود[١] **فالمراد بهذا**: تأكيد الكلام، وأما قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحِجر: ٧٢] فهذا قَسَم من الله بحياة النبي ﷺ، والله تعالى له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

○ وقوله:

(سُكْرَانِ سكرُ هوىً وسُكْرُ مُدامةٍ ومتى إفاقَةُ مَنْ به سُكْرانِ ؟)

يعني: أن السكر نوعان:

السكر الأول: سكر الهوى والميل إلى غير الله كالذي يميل إلى عشق امرأة أو غيرها.

السكر الثاني: الدوام والمدامة وتعلق القلب المستمر بها الذي لا ينقطع.

ومتى إفاقة من به سكران؟!

شارب الخمر يسكر سكرًا واحدًا ويفيق إذا ذهبت شربة الخمر، لكن من به سكران متى يفيق؟!

هذا لا يفيق أبدًا.

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ (٤٦٩٥). وعنها رضي الله عنها أيضا في صحيح مسلم، كتاب الحج، (١٢٥٥) وفيه أنها قالت: «**يغفر الله لأبي عبدالرحمن، لعمري ما اعتمر في رجب**».
وجاء في مسلم أيضا عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، كتاب صلاة العيدين، (٨٨٥) وفيه أنه لما قيل له: أحقا على الإمام الآن أن يأتي النساء حين يفرغ فيذكرهن؟ قال: «إي، لعمري إن ذلك لحق عليهم، وما لهم لا يفعلون ذلك؟» وهو مروي عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما في مسند الإمام أحمد، (٢٦٧٥٩) **أن عمر بن الخطاب وجد ريح طيب بذي الحليفة، فقال: ممن هذه الريح؟ فقال معاوية: مني يا أمير المؤمنين، فقال: منك لعمري...» الحديث، وروي عنه أيضا** في تاريخ المدينة لابن شبة (٣/ ٨٢٣) أنه لما لقي أبا عبيدة ابن الجراح قال: «**أخي، لعمري لم تغيرك الدنيا بعدي**».

وَقيل:

قالوا جُنْنِتَ بِمَنْ تَهْوى فَقُلتُ لهم الْعِشْق أعظم مِمَّا بالمجانين
الْعِشْق لَا يستفيق الدهرَ صاحبُه وَإِنَّمَا يُصرع الْمَجْنُون فِي حِين

وَمن أعظم أَسبَاب هَذَا الْبلَاء إِعْرَاض الْقلب عَن الله فَإِن الْقلب إِذا ذاق طعم عبَادَة الله وَالْإِخْلَاص لَهُ لم يكن عِنْده شَيْء قطّ أحلى من ذَلِك وَلَا ألذ وَلَا أمتع وَلَا أطيب وَالْإِنْسَان لَا يتْرك محبوبا إِلَّا بمحبوب آخر يكون أحب إِلَيْهِ مِنْهُ أَو خوفًا من مَكْرُوه فالحب الْفَاسِد إِنَّمَا ينْصَرف الْقلب عَنهُ بالحب الصَّالح أَو بالخوف من الضَّرَر.

قَالَ تَعَالَى فِي حق يُوسُف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يُوسُف: ٢٤].

فَالله يصرف عَن عَبده مَا يسوؤه من الْميل إِلَى الصُّور والتعلق بهَا وَيصرف عَنهُ الْفَحْشَاء بإخلاصه لله

الشَّرْح

○ قوله:

(قالوا جُنْنِتَ بِمَنْ تَهْوى فَقُلتُ لهم الْعِشْق أعظم مِمَّا بالمجانين)

يريد هذا القائل بيان أن العشق أشد من الجنون؛ لأن العاشق لا يفيق الدهر كله، بل قلبه متعلق بمعشوقه. أما المجنون فإن كان يصرع بعض الأحيان فهو يفيق بعض الأحيان. ولكن العاشق لا يستفيق أبدا، سكره مستمر، نسأل الله العافية، ولهذا قال:

الْعِشْق لَا يستفيق الدهرَ صاحبُه وَإِنَّمَا يُصرع الْمَجْنُون فِي حِين)

○ وقوله: (فالحب الْفَاسِد إِنَّمَا ينْصَرف الْقلب عَنهُ بالحب الصَّالح أَو بالخوف من الضَّرَر): يبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الحب الفاسد يخرج عن القلب وينصرف بالحب الصالح أو الخوف من الضرر، **كذلك** اليقين

الفاسد الذي في القلب، إنما يخرج باليقين الصالح، فإذا كان عنده يقين منحرف بأن اعتقد اعتقادًا غير صحيح أي: غير موافق لشرع الله فهذا يزول بالاعتقاد الصحيح، فيخرج هذا اليقين الفاسد إذا خلفه يقين صالح، يقين موافق لشرع الله، وذلك أن يكون متيقنا بأنه ملاق ربه، فهو متيقن بيوم القيامة، ومتيقن بالآخرة، عنده يقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، هذا اليقين الصادق الصحيح هو الذي يُخرج اليقين الفاسد.

بعض الناس عنده يقين فاسد، فقد يعتقد أن الطواف بالقبور والذبح للأولياء والصالحين ودعاءهم من دون الله ليس بشرك، وبعضهم يطوف حول القبور، ويقول: هذا ليس عبادة إنما هو محبة للصالحين وأن هذا توسل، وإنما يَخرج هذا اليقين الفاسد وينقلب عن القلب إذا تيقن يقينًا صحيحًا صادقًا؛ فعرف الشرك من التوحيد، واعتقد الاعتقاد الصحيح الموافق لما فيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولما يعتقده السلف الصالح من أن الدعاء لغير الله شرك، والذبح لغير الله شرك، والطواف حول القبور للتقرب إلى أهلها شرك، حينئذ يخرج اليقين الفاسد.

وَلِهَذَا يكون قبل أَن يَذُوق حلاوة الْعُبُودِيَّة لله وَالْإِخْلَاص لَهُ بِحَيْثُ تغلبه نَفسه على اتِّبَاع هَوَاهَا فَإِذا ذاق طعم الْإِخْلَاص وَقوي فِي قلبه انقهر لَهُ هَوَاهُ بِلَا علاج.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فَإِن الصَّلَاة فِيهَا دفع مَكْرُوه وَهُوَ الْفَحْشَاء وَالْمُنكر وفيهَا تَحْصِيل مَحْبُوب وَهُوَ ذكر الله.

وَحُصُول هَذَا المحبوب أكبر من دفع ذَلِك الْمَكْرُوه فَإِن ذكر الله عبَادَة لله وَعبادَة الْقلب لله مَقْصُودَة لذاتها وَأما اندفاع الشَّرّ عَنهُ فَهُوَ مَقْصُود لغيره على سَبِيل التبع.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الصلاة فيها ذكر الله ﷻ، **والحكمة في تشريعها هي**: ذكر الله وعبودية القلب لله، وهو شيء محبوب، وأما الفحشاء والمنكر فهذا شيء تنهى عنه الصلاة؛ لأنه شيء دخيل ومكروه، فإنه يزال حتى يخلص الشيء المقصود وهو: ذكر الله وعبادته بالقلب واللسان والجوارح.

وَالْقلب خلق يحب الْحق ويريده ويطلبه فَلَمَّا عرضت لَهُ إِرَادَة الشَّرّ طلب دفع ذَلِك فَإِنَّهَا تفْسد الْقلب كَمَا يفْسد الزَّرْع بِمَا ينْبت فِيهِ من الدغل.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشّمس: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: ٢١] فَجعل سُبْحَانَهُ غض الْبَصَر وَحفظ الْفرج هُوَ أقوى تَزْكِيَة للنَّفس وَبَين أَن ترك الْفَوَاحِش من زَكَاة النُّفُوس وَزَكَاة النُّفُوس تَتَضَمَّن زَوَال جَمِيع الشرور من الْفَوَاحِش وَالظُّلم والشرك وَالْكذب وَغير ذَلِك.

وَكَذَلِكَ طَالب الرِّئَاسَة والعلو فِي الأَرْض قلبه رَقِيق لمن يُعينهُ عَلَيْهَا وَلَو كَانَ فِي الظَّاهِر مقدمهم والمطاع فيهم فَهُوَ فِي الْحَقِيقَة يرجوهم ويخافهم فيبذل لَهُم الْأَمْوَال والولايات ويعفوا عَمَّا يجترحونه ليطيعوه ويعينوه فَهُوَ فِي الظَّاهِر رَئِيس مُطَاع وَفِي الْحَقِيقَة عبد مُطِيع لَهُم.

الشَّرْح

زكاة النفس مطلوبة، وقد حث الله ﷻ على تزكية النفس، وصلاح القلب، **ومن أعظم أسباب صلاح القلب**: تدبر القرآن والخشوع في الصلاة، **ومن ذلك** ـ ما ذكر المؤلف ـ: من غض البصر، **ومن ذلك**: أداء الزكاة؛ كما قال الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبَة: ١٠٣] **يعني**: تزكي نفوسهم، فالزكاة تطهر نفس المزكي من أدران الشح والبخل واللؤم، وتطهر المال وتحفظه.

وَالتَّحْقِيق أَن كِلَاهُمَا فِيهِ عبودية للْآخر وَكِلَاهُمَا تَارِك لحقيقة عبَادَة الله وَإِذا كَانَ تعاونهما على الْعُلُوّ فِي الأَرْض بِغَيْر الْحق كَانَا بِمَنْزِلَة المتعاونين على الْفَاحِشَة أَو قطع الطَّرِيق فَكل وَاحِد من الشخصين لهواه الَّذِي استعبده واسترقه مستعبد للْآخر.

وَهَكَذَا أَيْضا طَالب المَال فَإِن ذَلِك يستعبده ويسترقه.

وَهَذِه الْأُمُور نَوْعَانِ:

مِنْهَا مَا يحْتَاج العَبْد إِلَيْهِ كَمَا يحْتَاج إِلَيْهِ من طَعَامه وَشَرَابه ومسكنه ومنكحه وَنَحْو ذَلِك فَهَذَا يَطْلُبهُ من الله ويرغب إِلَيْهِ فِيهِ فَيكون المَال عِنْده يَسْتَعْمِلهُ فِي حَاجته بِمَنْزِلَة حِمَاره الَّذِي يركبه وبساطه الَّذِي يجلس عَلَيْهِ بل بِمَنْزِلَة الكنيف الَّذِي يقْضى فِيهِ حَاجته من غير أَن يستعبده فَيكون هلوعًا: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠-٢١].

وَمِنْهَا مَا لَا يحْتَاج العَبْد إِلَيْهِ فَهَذَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَن يعلق قلبه بِهِ فَإِذا علق قلبه بِهِ صَار مستعبَدا لَهُ وَرُبمَا صَار مُعْتَمدًا على غير الله فَلَا يبْقى مَعَه حَقِيقَة الْعِبَادَة لله وَلَا حَقِيقَة التَّوَكُّل عَلَيْهِ بل فِيهِ شُعْبَة من الْعِبَادَة لغير الله وَشعْبَة من التَّوَكُّل على غير الله وَهَذَا من أَحَق النَّاس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدِّرْهَم تعس عبد الدِّينَار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة»[1] وَهَذَا هُوَ عبد هَذِه الْأُمُور فَإِنَّهُ لَو طلبَهَا من الله فَإِن الله إِذا أعطَاهُ إِيَّاه رَضِي وَإِن مَنعه إِيَّاه سخط.

الشَّرْح

○ قوله: (مِنْهَا مَا يحْتَاج العَبْد إِلَيْهِ كَمَا يحْتَاج إِلَيْهِ من طَعَامه وَشَرَابه ومسكنه ومنكحه وَنَحْو ذَلِك) **المعنى**: أن الإنسان في أمور دنياه

(١) سبق تخريجه.

لا بد له من شيء يقوم بحاجته من طعام وشراب ومسكن وملبس ومنكح، وهذا الشيء الضروري الذي لا بد منه، وهناك شيء زائد عن حاجته، **فأمور الدنيا تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: يحتاجه الإنسان ولابد له منه، **فمثلاً:** لا بد له من أكل وشرب ومسكن، ولا بد له من مركب، وزوجة، فهذه أمور ضرورية.

فيريد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان: أن هذه الأمور الضرورية يطلبها من الله، ثم إذا حصلت عنده تكون وسيلة وليست غاية؛ بمنزلة الحمار الذي يركبه، **يعني:** بمنزلة السيارة التي يركبها، وبمنزلة البساط الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف والحمام الذي يقضي فيه حاجته وينصرف عنه، وكذلك الآن السيارة فهي وسيلة وليست بغاية، **فبعض الناس** تجد عنده عناية شديدة بالمركب تغسيل ليلاً ونهارًا وصباحًا ومساءً، **وهذا معناه:** جعل الوسيلة غاية، فصارت هي همه، مع أنها وسيلة تنقلك إلى ما تريد فقط، أما أن تجعلها هي الغاية وهي شغلك الشاغل، فمعناه أنها أصبحت غاية وليست وسيلة.

القسم الثاني: ما زاد عن حاجة الإنسان فهذا لا ينبغي للإنسان أن يعلق قلبه به، فإذا علق قلبه صار عبدًا له.

وَإِنَّمَا عبد الله من يرضيه مَا يُرْضِي الله ويسخطه مَا يسْخط الله وَيُحب مَا أحبه الله وَرَسُوله وَيبغض مَا أبغضه الله وَرَسُوله ويوالي أَوْلِيَاء الله ويعادي أَعدَاء الله تَعَالَى وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتكْمل الْإِيمَان كَمَا فِي الحَدِيث: «من أحب لله وَأبْغض لله وَأعْطى لله وَمنع لله فقد اسْتكْمل الْإِيمَان»(١)، وَقَالَ: «أوثق عرى الْإِيمَان الْحبّ فِي الله والبغض فِي الله»(٢)

وَفِي "الصَّحِيح" عَنهُ ﷺ: «ثَلَاث من كن فِيهِ وجد حلاوة الْإِيمَان: من كَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا وَمن كَانَ يحب الْمَرْء لَا يُحِبهُ إِلَّا لله وَمن كَانَ يكره أَن يرجع إِلَى الْكفْر بعد إِذا أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أَن يلقى فِي النَّار»(٣).

فَهَذَا وَافق ربه فِيمَا يُحِبهُ وَمَا يكرههُ فَكَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا وَأحب الْمَخْلُوق لله لَا لغَرَض آخر فَكَانَ هَذَا من تَمام حبه لله فَإِن محبَّة مَحْبُوب المحبوب من تَمام محبَّة المحبوب فَإِذا أحب أَنْبيَاء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الْحق لَا لشَيْء آخر فقد أحبهم لله لَا لغيره وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٥٤].

الشَّرْح

○ قوله: (وَإِنَّمَا عبد الله من يرضيه مَا يُرْضِي الله ويسخطه مَا

(١) سنن أبي داود، كتاب السنة (٤٦٨١)، المعجم الكبير للطبراني (٨/ ١٣٤)، الاعتقاد للبيهقي ص١٧٨، شرح السنة للبغوي (١٣/ ٥٤)؛ وهو عند الترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (١٥٦١٧)، بلفظ: «**من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه**».

(٢) رواه بلفظه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٧٢)، من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وزاد الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٧١): "الولاية في الله"، وأخرج الإمام أحمد في المسند (١٨٥٢٤)، من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه بلفظ: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ**".

(٣) سبق تخريجه.

يسْخط الله...): **عبدُ الله على الحقيقة هو**: الذي يُرضيه ما يُرضي الله، ويسخطه ما يُسخط الله، ويحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، هذا هو الذي استكمل الإيمان، **والمعنى**: أنه وافق الله في محبوباته ومكروهاته.

وحلاوة الإيمان تعني: لذته، ويجدها الإنسان في ثلاثة أشياء:

١ ـ إذا كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ ـ إذا كان يحب الإنسان يحبه لله.

٣ ـ إذا كان يكره الرجوع في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] فَإِن الرَّسُول لَا يَأْمر إِلَّا بِمَا يحب الله وَلَا ينْهَى إِلَّا عَمَّا يبغضه الله وَلَا يفعل إِلَّا مَا يُحِبهُ الله وَلَا يخبر إِلَّا بِمَا يحب الله التَّصْدِيق بِهِ.

فَمن كَانَ محبا لله لزم أَن يتبع الرَّسُول فيصدقه فِيمَا أخبر ويطيعه فِيمَا أَمر ويتأسى بِهِ فِيمَا فعل وَمن فعل هَذَا فقد فعل مَا يُحِبهُ الله فَيُحِبهُ الله.

وَقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتِّبَاع الرَّسُول وَالْجهَاد فِي سَبيله.

الشَّرْح

○ قوله: (فإن محبة محبوب المحبوب): هي من تمام محبة المحبوب، فالله تعالى يحب الأنبياء والملائكة والصالحين فإذا أحببتَهم فهذا من تمام محبة الله، ومن تمام موافقة الله، والله تعالى يبغض الكفار ويبغض الفاسقين، فأنت إذا أبغضتهم فقد وافقت ربك فيما يغضب.

○ وقوله: (﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] **وهذه الآية تسمى**: آية المحنة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فقد ادَّعى قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية، **والمعنى**: إن كنتم صادقين في محبة الله فاتبعوا الرسول، فمن كان يتبع الرسول ﷺ فهو صادق في محبته لله، ومن كان لا يتبع الرسول ﷺ فهو كاذب في محبته له، ولا تُقبل دعواه، وهذا دليل وبرهان على محبة الله، **فدليل محبة الله**: اتِّباع الرسل، فإذا رأينا الرجل يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام عرفنا أن محبته صادقة، وإذا رأيناه يخالف الرسول ﷺ عرفنا أن **محبته كاذبة**.

وهناك علامة أخرى وهي: الجهاد في سبيل الله ـ كما سيأتي ـ فهاتان علامتان لمحبة الله:

العلامة الأولى: اتباع الرسول.

العلامة الثانية: الجهاد في سبيل الله.

وَذَلِك لِأَن الْجِهَاد حَقِيقَة الِاجْتِهَاد فِي حُصُول مَا يُحِبهُ الله من الْإِيمَان وَالْعَمَل الصَّالح وَمن دفع مَا يبغضه الله من الْكفْر والفسوق والعصيان وَقد قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

فتوعد من كَانَ أَهله وَمَاله أحب إِلَيْهِ من الله وَرَسُوله وَالْجهَاد فِي سَبيله بِهَذَا الْوَعيد بل قد ثَبت عَنهُ ﷺ فِي "الصَّحِيح" أَنه قَالَ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَا يُؤمن أحدكُم حَتَّى أكون أحب إِلَيْهِ من وَلَده ووالده وَالنَّاس أَجْمَعِينَ»(١).

وَفِي "الصَّحِيح" أَن عمر بن الْخطاب قَالَ: يَا رَسُول الله لأَنْت أحب إِلَيّ من كل شَيْء إِلَّا من نفسي فَقَالَ: «لَا يَا عمر حَتَّى أكون أحب إِلَيْك من نَفسك» فَقَالَ: فوَالله لأَنْت أحب إِلَيّ من نَفسِي فَقَالَ: «الْآن يَا عمر»(٢).

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ أي: انتظروا ماذا يحلّ بكم من عقوبة، فتوعّد الله سبحانه مَن قدَّم واحدًا من هذه الأمور الثمانية: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرةوالأموال والتجارة

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان (١٥)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

والمساكن، ثمانية أشياء من قدم واحدة منها على محبة الله ورسوله فعليه الوعيد الشديد، ومرتكب لكبيرة؛ فقد حكم الله عليهم بالفسق.

وقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» «**لا يؤمن**» يعني لا يؤمن الإيمان الكامل، وإلا لو أحب يعني قدم محبتهم على محبة الرسول فهو ضعيف الإيمان

وقوله ﷺ: «**الآن يا عمر**» أي: الآن بلغت المحبة الواجبة والمطلوبة.

فحقيقة الْمحبَّة لَا تتمّ إِلَّا بموالاة المحبوب وَهُوَ مُوَافَقَته فِي حب مَا يحب وبغض مَا يبغض.

وَالله يحب الْإِيمَان وَالتَّقوى وَيبغض الْكفْر والفسوق والعصيان.

وَمَعْلُوم أَن الْحبّ يُحَرك إِرَادَة الْقلب فَكلما قويت الْمحبَّة فِي الْقلب طلب الْقلب فعل المحبوبات فَإِذا كَانَت الْمحبَّة تَامَّة استلزمت إِرَادَة جازمة فِي حُصُول المحبوبات فَإِذا كَانَ العَبْد قَادر عَلَيْهَا حصلها وَإِن كَانَ عَاجِزا عَنْهَا فَفعل مَا يقدر عَلَيْهِ من ذَلِك كَانَ لَهُ أجر كَأَجر الْفَاعِل كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «من دَعَا إِلَى هدى كَانَ لَهُ من الْأجر مثل أجور من اتبعهُ من غير أَن ينقص من أُجُورهم شَيْء وَمن دَعَا إِلَى ضَلَالَة كَانَ عَلَيْهِ من الْوزر مثل أوزار من اتبعهُ من غير أَن ينقص من أُجُورهم شَيْء»[(١)].

الشَّرْح

○ قوله: (فحقيقة الْمحبَّة لَا تتمّ إِلَّا بموالاة المحبوب): لا تتم إلا بموالاة المحبوب، فمن ادَّعى أنه يحب الله فلا بد أن يوالي الله، **وموالاة المحبوب معناها**: موافقة الله في حب ما يحب وبغض ما يبغض، فانظر إلى الشيء الذي يحبه الله ـ من شخص أو فعل أو حكم ـ فأحبَّه، وانظر إلى ما يبغضه الله ـ من شخص أو فعل أو حكم ـ فأبْغضه؛ فالله تعالى يحب الصلاة والزكاة والصوم ـ من الأحكام ـ ويحب المؤمنين والأنبياء والصالحين فتحبهم، والله تعالى ينهى عن الفحشاء والمنكر والزنا والسرقة، ويبغض الكافرين والفاسقين فتبغضهم وهكذا، هذا حال الصادق في محبته.

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم (٢٦٧٤).

وَقَالَ: «إِن بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مسيرًا وَلَا قطعْتُمْ وَاديا إِلَّا كَانُوا مَعكُمْ» قَالُوا: وهم بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وهم بِالْمَدِينَةِ حَبسهم الْعذر»(١).

الشَّرْح

○ قوله: (إِن بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مسيرًا وَلَا قطعْتُمْ وَاديا إِلَّا كَانُوا مَعكُمْ): وهذا في غزوة تبوك، ذلك لما كان بالمدينة رجالٌ تخلفوا للعجز وعدم الاستطاعة فكتب الله لهم أجر المجاهدين، وهم في المدينة، **والمعنى**: أن المحبة إذا كانت تامة تستلزم الإرادة القوية، فتدفعك إلى العمل إن كنت قادرًا، وإن كنت عاجزًا ولا تستطيع فإن الله يكتب لك أجر العامل، مثل: المجاهدين الذين تخلفوا عن المجاهدة لعدم الاستطاعة ـ إما مريضًا أو أعمى أو أعرجَ أو ليس عنده مال ـ ولهذا أخبر الله تعالى أن أناس جاءوا للنبي ﷺ يطلبون أن يعطيهم شيئًا من الإبل حتى يركبوا عليها للجهاد، والرسول ﷺ ليس عنده شيء، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع ـ من البكاء ـ يريدون أن يشاركوا المجاهدين لكن لا يستطيعون؛ فليس عندهم شيء، والرسول ﷺ أيضا ليس عنده شيء فيعطيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٢] أي: ليس عليهم جناح ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩٣].

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي (٤٤٢٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو في صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٩١١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، بلفظ: «حبسهم المرض».

وَالْجهَاد: هُوَ بذل الوسع - وَهُوَ كل مَا يُمْلَكُ من الْقُدْرَة - فِي حُصُول مَحْبُوب الْحق، وَدفع مَا يكرههُ الْحق. فَإِذا ترك العَبْد مَا يقدر عَلَيْهِ من الْجِهَاد كَانَ دَلِيلا على ضعف محبَّة الله وَرَسُوله فِي قلبه.

وَمَعْلُوم أَن المحبوبات لَا تنَال غَالِبا إِلَّا بِاحْتِمَال المكروهات سَوَاء كَانَت محبَّة صَالِحَة أَو فَاسِدَة.

فالمحبون لِلْمَالِ والرئاسة والصور لَا ينالون مطالبهم إِلَّا بِضَرَر يلحقهم فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يصيبهم من الضَّرَر فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

فالمحب لله وَرَسُوله إِذا لم يحْتَمل مَا يرى ذُو الرَّأْي من المحبين لغير الله مِمَّا يحْتَملُونَ فِي سَبِيل حُصُول محبوبهم دلّ ذَلِك على ضعف محبتهم لله إِذا كَانَ مَا يسلكه أُولَئِكَ فِي نظرهم هُوَ الطَّرِيق الَّذِي يُشِير بِهِ الْعقل.

وَمن الْمَعْلُوم أَن الْمُؤمن أَشد حبا لله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

نعم قد يسْلك الْمُحب لضعف عقله وَفَسَاد تصَوره طَرِيقا لَا يحصل بهَا الْمَطْلُوب فَمثل هَذِه الطَّرِيق لَا تحمد إِذا كَانَت الْمحبَّة صَالِحَة محمودة فَكيف إِذا كَانَت الْمحبَّة فَاسِدَة وَالطَّرِيق غير موصل؟! كَمَا يَفْعَله المتهورون فِي طلب المَال والرِّئَاسَة والصور من حب أُمُور توجب لَهُم ضَرَرا وَلَا تحصل لَهُم مَطْلُوبا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُود الطّرق الَّتِي يسلكها الْعقل السَّلِيم لحُصُول مَطْلُوبه.

إِذا تبين هَذَا فَكلما ازْدَادَ الْقلب حبا لله ازْدَادَ لَهُ عبودية، وَكلما ازْدَادَ لَهُ عبودية ازْدَادَ لَهُ حبا وفضله عَمَّا سواهُ. وَالْقلب فَقير بِالذَّاتِ إِلَى الله من وَجْهَيْن: من جِهَة الْعِبَادَة وَهِي الْعلَّة الغائية وَمن جِهَة الِاسْتِعَانَة

والتوكل وَهِي الْعلَّة الفاعلة فالقلب لَا يصلح وَلَا يفلح وَلَا ينعم وَلَا يسر وَلَا يلتذ وَلَا يطيب وَلَا يسكن وَلَا يطمئن إِلَّا بِعبَادة ربه وحبه والإنابة إِلَيْهِ وَلَو حصل لَهُ كل مَا يلتذ بِهِ من الْمَخْلُوقَات لم يطمئن وَلم يسكن إِذْ فِيهِ فقر ذاتي إِلَى ربه من حَيْثُ هُوَ معبوده ومحبوبه ومطلوبه وَبِذَلِك يحصل لَهُ الْفَرح وَالسُّرُور واللذة وَالنعْمَة والسكون والطمأنينة.

وَهَذَا لَا يحصل لَهُ إِلَّا باعانة الله لَهُ فَإِنَّهُ لَا يقدر على تَحْصِيل ذَلِك لَهُ إِلَّا الله فَهُوَ دَائِما مفتقر إِلَى حَقِيقَة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، فَإِنَّهُ لَو أعين على حُصُوله كل مَا يُحِبهُ ويطلبه ويشتهيه ويريده وَلم يحصل لَهُ عبَادَة لله فَلَنْ يحصل إِلَّا على الْأَلَم وَالْحَسْرَة وَالْعَذَاب

الشَّرح

○ قوله: (والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين): هكذا قلب كل إنسان فقير بالذات إلى الله، وكلمة «فقير بالذات» **معناها**: أنه لا يفتقر إلى غيره، فهو فقير إلى الله بالذات من جهتين؛ من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة والتوكل عليه.

الجهة الأولى: التي من جهة العبادة هي: العلة الغائية، فأنت أيها الإنسان، أيها العبد فقير بالذات إلى الله، ليس لك انفكاك عن العبادة، بل إنك إذ لم تعبد الله هلكت.

الجهة الثانية: التي من جهة التوكل على الله والاستعانة به،فأنت فقير إلى الله بالاستعانة والتوكل، فلا تستطيع أن تعبد الله ولا أن تؤدي ما أوجب الله عليك ولا تنتهي عما حرم الله عليك إلا بتوكلك على الله وإعانته لك، فإذا أعانك الله فإنك تؤدي العبادة التي هي الغاية.

فالإنسان فقير بالذات إلى الله من جهتين، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هذه العلة

الغائية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذه العلة الفاعلية، وعليهما مدار العبادة كلها، فمدار الشرائع كلها على: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولهذا فإن سورة الفاتحة جمعت ما في القرآن كلِّه، إذ القرآن قد جمع الله فيه ما في الكتب السابقة من المعاني والعلوم، وجمع الله ما في القرآن في الفاتحة، وما في الفاتحة كله مجموع في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

○ وقوله: (فالقلب لَا يصلح وَلَا يفلح وَلَا ينعم وَلَا يسر وَلَا يلتذ...) أي: أنه مهما أعطى في الدنيا من أنواع الملذات فإنه لا يفرح قلبه، فالقلب فقير ليس له راحة ولا طمأنينة إلا بعبادة الله، فإذا لم يعبد الله فاتته اللذة، فلو أُوتي جميع أنواع الملذات فإنها لا تفيده شيئًا، فهو فقير بالذات إلى عبادة الله، فلا تسكن نفسه ولا تطمئن إلا بعبادة الله، ثم أيضاً عبادة الله لا تحصل للإنسان إلا بإعانة الله وتوفيقه، فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وَلنْ يخلص من آلام الدُّنْيَا ونكد عيشها إِلَّا بإخلاص الْحبّ لله بِحَيْثُ يكون الله هُوَ غَايَة مُرَاده وَنِهَايَة مَقْصُوده وَهُوَ المحبوب لَهُ بِالْقَصْدِ الأول وكل مَا سواهُ إِنَّمَا يُحِبهُ لأَجله لَا يحب شَيْئا لذاته إِلَّا الله وَمَتى لم يحصل لَهُ هَذَا لم يكن قد حقق حَقِيقَة (لَا إِلَه إِلَّا الله) وَلَا حقق التَّوْحِيد والعبودية والمحبة لله وَكَانَ فِيهِ من نقص التَّوْحِيد وَالْإِيمَان بل من الْأَلَم وَالْحَسْرَة وَالْعَذَاب بِحَسب ذَلِك.

وَلَو سعى فِي هَذَا الْمَطْلُوب وَلم يكن مستعينا بِاللَّه متوكلا عَلَيْهِ مفتقرا إِلَيْهِ فِي حُصُوله لم يحصل لَهُ فَإِنَّهُ مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لم يَشَأْ لم يكن فَهُوَ مفتقر إِلَى الله من حَيْثُ هُوَ الْمَطْلُوب المحبوب المُرَاد المعبود وَمن حَيْثُ هُوَ الْمَسْئُول الْمُسْتَعَان بِهِ المتَوَكل عَلَيْهِ فَهُوَ إلهه الَّذِي لَا إِلَه لَهُ غَيره وَهُوَ ربه الَّذِي لَا رب لَهُ سواهُ.

وَلَا تتمّ عبوديته لله إِلَّا بِهَذَيْنِ.

الشَّرْح

○ قوله: (وكل مَا سواهُ إِنَّمَا يُحِبهُ لأَجله) أي: كل شيء محبوب سوى الله فإنما يُحب لأجل الله، مثل: محبة النبي ﷺ فإنها تابعة لمحبة الله، وكذلك محبة الأنبياء، ومحبة الصالحين، هذه كلها تابعة لمحبة الله.

○ وقوله: (وَمَتى لم يحصل لَهُ هَذَا لم يكن قد حقق حَقِيقَة (لَا إِلَه إِلَّا الله)): كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) **معناها**: لا معبود بحق إلا الله، فالعبادة حق الله لا يشاركه فيها أحد لا نبي ولا ملك ولا غيره، حتى الرسول ﷺ فإنما له المحبة والطاعة والاتباع والتصديق والتعظيم والتوقير، وهذه من حقوق الرسول، أما العبادة فهي حق الله.

○ وقوله: (فَهُوَ مفتقر إِلَى الله من حَيْثُ هُوَ الْمَطْلُوب المحبوب المُرَاد المعبود وَمن حَيْثُ هُوَ الْمَسْئُول الْمُسْتَعَان بِهِ المتَوَكل عَلَيْهِ): الله سبحانه هو الغني عن كل مخلوق، وكل شيء مفتقر إليه، والعبد مفتقر إلى الله من حيث أن الله هو مطلوبه فيعبده سبحانه، ومن حيث هو المستعان به على تحقيق المطلوب وهو العبادة.

فالإنسان محتاج إلى الله في جميع أحواله، حتى الأنبياء عليهم السلام.

فَمَتَى كَانَ يحب غير الله لذاته أَو يلْتَفت إِلَى غير الله أَنه يُعينهُ كَانَ عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه بِحَسب حبه لَهُ ورجائه إِيَّاه وَإِذا لم يحب أحدا لذاته إِلَّا الله وَأي شَيْء أحبه سواهُ فَإِنَّمَا أحبه لَهُ وَلم يرج قطّ شَيْئا إِلَّا الله وَإِذا فعل مَا فعل من الْأَسْبَاب أَو حصل مَا حصل مِنْهَا كَانَ مشاهدا أَن الله هُوَ الذى خلقهَا وقدرها وسخرها لَهُ وَأَن كل مَا فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض فَالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره وَهُوَ مفتقر إِلَيْهِ كَانَ قد حصل لَهُ من تَمام عبوديته لله بِحَسب مَا قسم لَهُ من ذَلِك.

وَالنَّاس فِي هَذَا على دَرَجَات مُتَفَاوِتَة لَا يحصي طرقها إِلَّا الله.

فأكمل الْخلق وأفضلهم وَأَعْلَاهُمْ وأقربهم إِلَى الله وَأَقْوَاهُمْ وأهداهم أتمهم عبودية لله من هَذَا الْوَجْه. هَذَا هُوَ حَقِيقَة دين الْإِسْلَام الَّذِي أرسل الله بِهِ رسله وَأنزل بِهِ كتبه وَهُوَ أَن يستسلم العَبْد لله لَا لغيره فالمستسلم لَهُ وَلغيره مُشْرك والممتنع عَن الاستسلام لَهُ مستكبر.

الشَّرْح

○ قوله: (فَمَتَى كَانَ يحب غير الله لذاته أَو يلْتَفت إِلَى غير الله أَنه يُعينهُ كَانَ عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه بِحَسب حبه لَهُ ورجائه إِيَّاه)

المعنى: أن الإنسان لا يحب إلا الله ولا يرجو إلا الله، وإذا حصل له شيء من الأسباب الدنيوية فلابد أن يشاهد أن الله هو الذي خلقه، فكل سبب في الدنيا قد خلقه الله، فهو الذي هيأ وقدر الأسباب.

إذن فالأمر كله يرجع إلى الله عز وجل، فلولا الله سبحانه لما هيأ لنا السبب، ولولاه لما حرك قلب الشخص حتى يعطي ما يعطي، فالله تعالى هو الذي خلق الأسباب والمسببات، وهو الذي يحرك قلب هذا العبد حتى يعينك ويساعدك وهكذا، فالأمر كله لله، فعليك أن تعلِّق قلبك بالله.

○ وقوله: (وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله): هذه حقيقة الإسلام الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به الكتب؛

أن يستسلم العبد لله، مع الإيمان به في الباطن دون كل ما سواه.

والناس في هذا طبقات ثلاث:

الطبقة الأولى: الذي استسلم لله فقط ولم يستسلم لغيره، وهو في الباطن مؤمن بالله ورسوله عن صدق وإخلاص، **وهؤلاء هم**: المؤمنون.

الطبقة الثاني: الذي استسلم لله في الظاهر لكنه غير مؤمن بالباطن، **وهؤلاء هم**: المنافقون في الدرك الأسفل من النار، يصلون ويصومون ويجاهدون مع النبي ﷺ، لكنهم غير مؤمنين بالله ورسوله.

الطبقة الثالث: مستكبر عن الله، لا يستسلم لله فهذا كافر مستكبر عن الله، **مثل**: فرعون وإبليس، فهذا معترف في الباطن، لكن غير منقاد وغير مستسلم لله.

ولهذا اعترض إبليس على الله لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام، قال إبليس: أنا لا أسجد لآدم؛ فأنا خير منه، أنا عنصري أحسن من عنصر آدم، فعنصر آدم الطين وأنا عنصري النار، والنار أحسن من الطين ولا يمكن أن يخضع الفاضل للمفضول، عارض أمر الله، فهو عنده نص من الله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، لكنه قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعرَاف: ١٢]، **فعارض النص بالقياس الفاسد، فكان أول من قاس قياسًا فاسدًا إبليس**، فطرده الله وصار شيطانًا رجيمًا، وكذلك فرعون جاءه النص من الله تعالى فعارضه، فصار مستكبرًا.

الخلاصة:

- أن الناس طبقات ثلاث: مستسلم لله مؤمن في الباطن، وهؤلاء هم: المؤمنون.
- ومستسلم في الظاهر غير مؤمن في الباطن، وهؤلاء هم: المنافقون.
- وغير مستسلم في الظاهر وإن كان مصدقًا في الباطن، وهذا كافر، مثل: فرعون وإبليس.

وَقد ثَبت فِي "الصَّحِيح" عَن النَّبِي ﷺ أَن «الْجنَّة لَا يدخلهَا من كَانَ فِي قلبه مِثْقَال ذرة من كبر»(١). كَمَا أَن النَّار لَا يخلد فِيهَا من كَانَ فِي قلبه مِثْقَال ذرة من إِيمَان"(٢).

فَجعل الْكبر مُقَابلا للْإِيمَان؛ فَإِن الْكبر يُنَافِي حَقِيقَة الْعُبُودِيَّة كَمَا ثَبت فِي "الصَّحِيح" عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «يَقُول الله: العظمة إِزَارِي والكبرياء رِدَائي فَمن نازعنى وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذبته»(٣) فالعظمة والكبرياء من خَصَائِص الربوبية والكبرياء أَعلَى من العظمة وَلِهَذَا جعلهَا بِمَنْزِلَة الرِّدَاء كَمَا جعل العظمة بِمَنْزِلَة الْإِزَار.

وَلِهَذَا كَانَ شعار الصَّلَاة وَالْأَذَان والأعياد هُوَ التَّكْبِير وَكَانَ مُسْتَحبا فِي الْأَمْكِنَة الْعَالِيَة كالصفا والمروة(٤) وَإِذا علا الْإِنْسَان شرفا(٥) أَو ركب

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، بلفظ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

(٢) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «**وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا**» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣] (٧٤٣٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١٨٣).

(٣) جاء بنحوه في صحيح مسلم (٢٦٢٠): «**العز إزاره والكبرياء رداؤه، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**»، وبلفظه هو في: سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، مسند الإمام أحمد (٩٣٥٩).

(٤) كما في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، وفيه: «**فَبَدَأَ بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عَلَيْهِ، حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ**»، رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج (١٢١٨).

(٥) كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التسبيح إذا هبط واديا (٢٩٩٣)، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا**»، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤).

دَابَّة[١] وَنَحْو ذَلِك وَبِه يطفأ الْحَرِيق وَإِن عظم وَعند الْأَذَان يهرب الشَّيْطَان قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] وكل من استكبر عَن عبَادَة الله لَا بُد أَن يعبد غَيره فَإِن الْإِنْسَان حساس يَتَحَرَّك بالإرادة وَقد ثَبت فِي "الصَّحِيح" عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «أصدق الْأَسْمَاء حَارِث وَهَمَّام»[٢].

فالحارث الكاسب الْفَاعِل والهمام فعال من الْهم والهم أول الْإِرَادَة.

الشَّرْح

○ قوله: (فَجعل الْكبر مُقَابلا للْإِيمَان؛ فَإِن الْكبر يُنَافِي حَقِيقَة الْعُبُودِيَّة) **والمعنى**: أن الكبر ضد الإيمان، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؛

فمن استكبر عن عبادة الله بحيث يمنعه هذا الكبر عن توحيد الله وإخلاص الدين له؛ فهذا من أهل النار.

أما إذا كان كبرًا فيما دون ذلك مما يتعلق بالمعاصي؛ فهذا يكون معصية، كما أن النار لا يخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولو دخل النار، فإذا كان موحدًا مؤمنًا وله معاص ـ ولم يعف الله عنه ـ فيعذب في النار على قدر معاصيه ثم يُخرج منها.

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا. رواه مسلم، كتاب الحج (١٣٤٢).

(٢) رواية الصحيح هي: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**» صحيح مسلم: (٢١٣٢)، من رواية عبد الله بن عمر ﷺ، وليس فيها ما ذكره المصنف، إنما هذه الزيادة في سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، المسند للإمام أحمد (١٩٠٣٢)، والأدب المفرد للبخاري (٨١٤)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٣٨٠)، والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٥١٤)، من رواية أبي وهب الجشمي ﷺ.

○ قوله: (فالعظمة والكبرياء من خَصَائِص الربوبية والكبرياء أَعلَى من العظمة وَلِهَذَا جعلهَا بِمَنْزِلَة الرِّدَاء كَمَا جعل العظمة بِمَنْزِلَة الْإِزَار): فالعظمة والكبرياء هذه صفتان من صفات الله ﷻ الذاتية الملازمة له التي لاتنفك عنه سبحانه، وهما من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى.

○ قوله: (وَبِه يطفأ الْحَرِيق وَإِن عظم): وهذا مجرب، فإذا رأيت حريقًا فتقول: الله أكبر الله أكبر، وتكثر من التكبير؛ لأن هذا الحريق وهذه النار علت وارتفعت والله أعظم منها وأعلى، فالتكبير يطفئها[(١)].

وكذلك عند سماع الأذان؛ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**»[(٢)].

○ قوله: (وكل من استكبر عَن عبَادَة الله لَا بُد أَن يعبد غَيره فَإِن الْإِنْسَان حساس يَتَحَرَّك بالإرادة): **بيَّن المؤلف** رحمه الله أن الاستكبار عن عبادة الله يلزم منه الشرك، فكل مستكبر مشرك وذلك لأن من استكبر عن عبادة الله فلابد أن يعبد الشيطان فإن كل إنسان حسّاس متحرك له إرادة، والإنسان حارث وكاسب وهمام، **والهمام**: فعال، صيغة مبالغة من الهمّ، والهمّ أول الإرادة، فالإنسان له إرادة، فمن لم يكن الله مراده ومحبوبه فلابد له من مراد ومحبوب ينتهي إليه وهو ما سوى الله، سواء كان شمسا أو قمرًا أو صورًا أو مالاً أو شخصًا أو غير ذلك.

فمن لم يعبد الله لابد أن يعبد غير الله، ولهذا كان فرعون مستكبرًا

---

(١) أخرج الطبراني في (الدعاء) (١٠٠٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٤)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٩٥): «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرِيقَ فَكَبِّرُوا، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ**»، وقد ضعفه الحافظ ابن رجب الحنبلي في فتح الباري (٥/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين (٦٠٨) ومسلم، كتاب الصلاة (٣٨٩).

عن عبادة الله، وكان مشركًا وكان له إله يعبده، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فأخبر الله أن لفرعون آلهة.

إذن فالكبر مستلزم للشرك، والشرك ضد الإسلام، والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله ﷻ.

فالإنسان لَهُ إِرَادَة دَائِما وكل إِرَادَة فَلَا بُد لَهَا من مُرَاد تنتهى إِلَيْهِ فَلَا بُد لكل عبد من مُرَاد مَحْبُوب هُوَ مُنْتَهى حبه وإرادته فَمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عَن ذَلِك فَلَا بُد أَن لَهُ مُرَاد مَحْبُوب يستعبده غير الله فَيكون عبدا لذَلِك الْمُرَاد المحبوب إِمَّا المَال وَإِمَّا الجاه وَإِمَّا الصُّور وَإِمَّا مَا يَتَّخِذهُ إِلَهًا من دون الله كَالشَّمْسِ وَالْقَمَر وَالْكَوَاكِب والأوثان وقبور الْأَنْبِيَاء وَالصَّالِحِينَ أَو من الْمَلَائِكَة والأنبياء الَّذين يتخذهم أَرْبَابًا أَو غير ذَلِك مِمَّا عبد من دون الله.

الشَّرْح

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الكائنات كلها مُسْلمة لله ـ بمعنى أنها معبَّدة ـ فكل الكائنات المخلوقات أسلمت لله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا﴾ [آل عِمرَان: ٨٣] **بمعنى**: أنها معبّدة مدبَّرة، يَنْفُذُ فيها قدرُ الله وتنفذ فيها مشيئتُه.

وهذه هي العبادة العامة أي: التعبيد العام لله.

أما العبادة الخاصة فهي التي يأْلَه فيها العبد باختياره ويعبد الله ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه.

وبين رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الخلة والمحبة فيهما تحقيق عبودية الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الخلة والمحبة إنما يعرف معناهما ويحقق ما دلت عليهما من عرف الله وعلم عظمة الله سبحانه وتعالى.

ودعوى هؤلاء المحبةَ باطلٌ، والله تعالى امتحن قومًا ادعو المحبة بهذه الآية: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، **فدعوى محبة الله لابد لها من دليل.**

ودليلها هو: اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والجهاد في سبيل الله، فمن جاهد في سبيل الله حق الجهاد واتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو صادق في محبته، وإذا تخلف هذان الأمران فهو كاذب في دعوى محبته كالصوفية وأشباههم.

وَإِذا كَانَ عبدا لغير الله يكون مُشْركًا وكل مستكبر فَهُوَ مُشْرك وَلِهَذَا كَانَ فِرْعَوْن من أعظم الْخلق استكبارا عَن عبَادَة الله وَكَانَ مُشْركًا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] **إِلَى قَوْله:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧]، **إِلَى قَوْله:** ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [القصص: ٤]، **وقال:** ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمل: ١٤] **وَمثل هَذَا فِي الْقُرْآن كثير.**

وَقد وصف فِرْعَوْن بالشرك فِي قَوْله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

الشَّرْح

المعنى: أن من لم يعبد الله فلابد أن يعبد غيره، فليس هناك أحد ليس له معبود مطلقًا، **وهذه قاعدة عامة**: ليس هناك أحد ليس له معبود، فمن لم يعبد الله عبد الشيطان والهوى، **حتى الملاحدة المتحللين من الأديان هم يعبدون الشيطان ويعبدون أهواءهم**؛ لأن الشياطين هي التي أمرتهم بعبادة أهوائهم، فالملحد المتحلل من الأديان مشرك؛ لأنه يعبد الشيطان.

فعلى ذلك: يكون من استكبر عن عبادة الله مشركًا ولابد، **فمثلًا**: فرعون مستكبر عن عبادة الله لكنه مشرك؛ لأنه عبد هواه وعبد الشيطان.

وكذلك إبليس مستكبر لأنه عبد هواه.

فكل أحد من المخلوقين له معبود شاء أم أبى، فإن لم يعبد الله عبد الشيطان والهوى.

وما ذكره المؤلف من الأدلة يقرر عبادة فرعون لهواه، فلما كان فرعون يعبد الهوى ويعبد الشيطان علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، ولما استكبر عن توحيد الله وعن عبادة الله وعن اتباع رسول الله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، كان مستكبرًا عن عبادة الله وكان مشركًا يعبد هواه ويعبد الشيطان، وكان له آلهة من دون الله كما قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] **وهذا هو الشاهد**، فإذن فرعون له آلهة يعبدها من دون الله؛ لأن الملأ وهم الأشراف من قومه قالوا له يخاطبونه: كيف تترك موسى يفسد في الأرض ويتركك ويترك آلهتك التي تعبدها.

وانظر كيف انقلبت الموازين؛ حين جعلوا موسى يفسد في الأرض، وموسى إنما يأمر بعبادة الله وتوحيده!

وقد أخبر الله عن المنافقين تسميتهم الإفساد إصلاحًا، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١-١٢] فسموا فسادهم صلاحًا، وهكذا هؤلاء سمَّوا دعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله واتباع الحق: إفسادًا في الأرض.

فهذه عادة أهل الباطل يرمون أهل الحق بدائهم ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

بل الاستقراء يدل على أَنه كلما كَانَ الرجل أعظم استكبارا عَن عبَادَة الله كَانَ أعظم إشراكا بِاللَّه لِأَنَّهُ كلما استكبر عَن عبَادَة الله ازْدَادَ فقرا وحاجة إِلَى المُرَاد المحبوب الَّذِي هُوَ الْمَقْصُود مَقْصُود الْقلب بِالْقَصْدِ الأول فَيكون مُشْركًا بِمَا استعبده من ذَلِك.

وَلنْ يَسْتَغْنِي الْقلب عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات إِلَّا بِأَن يكون الله هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه وَلَا يَسْتَعِين إِلَّا بِهِ وَلَا يتوكل إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يفرح إِلَّا بِمَا يُحِبهُ ويرضاه وَلَا يكره إِلَّا مَا يبغضه الرب ويكرهه وَلَا يوالى إِلَّا من وَالَاهُ الله وَلَا يعادي إِلَّا من عَادَاهُ الله وَلَا يحب إِلَّا لله وَلَا يبغض شَيْئا إِلَّا لله فَكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته لله واستغناؤه عَن الْمَخْلُوقَات وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الْكبر والشرك.

والشرك غَالب على النَّصَارَى وَالْكبر غَالب على الْيَهُود قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

الشَّرْح

○ قوله: (وَلنْ يَسْتَغْنِي الْقلب عَن جَمِيع الْمَخْلُوقَات إِلَّا بِأَن يكون الله هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه): وبهذا يكون القلب قد استغنى عن جميع المخلوقات إذا اتصف بهذه الأوصاف بأن يكون الله هو مولاه ولا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا بالله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يحب إلا ما يحبه.

فدلالة ذلك: أنه وافق الله في محابه ومراضيه ومساخطه، فيحب ما يحبه الله، ويرضى ما يرضاه الله، ويسخط ما يسخطه الله، فهو موافق لوليه ومحبوبه.

والنصارى غلوا في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابا من دون الله، وعبدوا العجل أيضا فوقعوا في الشرك.

وَقَالَ فِي الْيَهُود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وَلما كَانَ الْكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الْإِسْلَام وَهُوَ الذَّنب الَّذِي لَا يغفره الله قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٦].

الشَّرْح

الغالب على فرق اليهود: العلم وتخلف العمل، فهم يعصون على بصيرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٨٧]، **وإن كان يوجد منهم من ليس عنده علم؛** كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٨] يعني: لا يعلمون الكتاب إلا مجرد التلاوة، وهؤلاء جهال، ولكن يغلب عليهم العلم وتخلف العمل.

أما الذي يغلب على طوائف النصارى فهو الجهل والضلال، ومع أن منهم: علماء، ومنهم: رهبان وقسيسين، ولكن الغالب عليهم الجهل.

○ قوله تعالى: (﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾): فسمَّى الله الشركَ ضلالاً بعيدًا، **يعني:** وصل إلى حد الغاية في البعد، وهو فرية عظيمة، **فالشرك أعظم الذنوب** ولهذا لا يغفره الله، فمن لقي الله يشرك به الشرك الأكبر فإنه من أهل النار الخالدين فيها ولا نصيب له في الرحمة ـ نسأل الله العافية ـ وهو يائس من رحمة الله، أما من لقيه بما دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

كَانَ الْأَنْبِيَاء جَمِيعهم مبعوثين بدين الْإِسْلَام فَهُوَ الدَّين الَّذِي لَا يقبل الله غَيره لَا من الْأَوَّلين وَلَا من الآخرين قَالَ نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يُونس: ٧٢]. **وَقَالَ فِي حق إِبْرَاهِيم:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٠-١٣٢]، **وَقَالَ يُوسُف:** ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف: ١٠١]، **وَقَالَ مُوسَى:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا﴾ [يُونس: ٨٤-٨٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المَائدة: ٤٤]، **وَقَالَت بلقيس:** ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النَّمل: ٤٤]. **وَقَالَ:** ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المَائدة: ١١١]. **وَقَالَ:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]. **وَقَالَ:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عِمرَان: ٨٣].

الشَّرْح

هذه النصوص كلها تدل على أن الأنبياء جميعًا كلهم مبعوثون بدين الإسلام **فدين الإسلام وهو:** دين الأنبياء جميعًا، فهو دين نوح ودين هود ودين صالح ودين لوط ودين شعيب ودين إبراهيم ودين موسى ودين عيسى ودين محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، **بمعنى:** أنهم جميعًا جاؤوا بتوحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له ونهوا عن

الشرك، وجاؤوا بالإيمان بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأن يعظموا أوامر الله ويمتثلوها ويعظموا محارم الله ويجتنبوها، أما الشرائع والتكاليف فإنها تختلف من شريعة لأخرى، **فمثلًا**:

في شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام يجوز الجمع بين الأختين، وفي شرعتنا الكاملة: منع ذلك.

وكذلك في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام جاء ما يدل على أن القصاص يجب، وفي شريعة النصارى يجب العفو، وفي شريعتنا يخير أولياء القتيل بين القصاص وبين العفو إلى الدية وبين العفو مجانًا.

فالشرائع تختلف من شريعة لأخرى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: ٤٨].

فالإسلام دين الله ودين الأنبياء جميعًا، كلهم أَمروا بتوحيد الله، فكل نبي يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعرَاف: ٥٩].

فدين الإسلام في زمن نوح عليه السلام: توحيد الله والعمل بما جاء به نوح من الشريعة.

ودين الإسلام في عهد هود عليه السلام: توحيد الله واتباع ما جاء به هود من الشريعة.

ودين الإسلام في زمن إبراهيم عليه السلام: توحيد الله والعمل بما جاء به من الشريعة.

ودين الإسلام في زمن موسى عليه السلام: توحيد الله والعمل بما جاء به موسى من الشريعة، وهكذا...

حتى بعث الله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وكانت شريعته خاتمة لجميع الشرائع.

فتوحيد الله وإخلاص الدين له والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر فهو دين الله في كل زمان وفي كل مكان.

فَذكر إِسْلَام الكائنات طَوْعًا وَكرها لِأَن الْمَخْلُوقَات جَمِيعهَا متعبدة لَهُ التَّعَبُّد الْعَام سَوَاء أقرّ الْمقر بذلك أَو أنكرهُ وهم مدينون لَهُ مدبرون فهم مُسلمُونَ لَهُ طَوْعًا وَكرها لَيْسَ لأحد من الْمَخْلُوقَات خُرُوج عَمَّا شاءه وَقدره وقضاه وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِهِ وَهُوَ رب الْعَالمين ومليكهم يصرفهم كَيفَ يَشَاء وَهُوَ خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم.

وكل مَا سواهُ فَهُوَ مربوب مَصْنُوع مفطور فَقير مُحْتَاج معبد مقهور وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْوَاحِد القهار الْخَالِق البارئ المصور.

وَهُوَ وَإِن كَانَ قد خلق مَا خلقه بِأَسْبَاب فَهُوَ خَالق السَّبَب والمقدر لَهُ وَهَذَا مفتقر إِلَيْهِ كافتقار هَذَا وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَات سَبَب مُسْتَقل بِفعل خير وَلَا دفع ضرّ بل كل مَا هُوَ سَبَب فَهُوَ مُحْتَاج إِلَى سَبَب آخر يعاونه وَإِلَى مَا يدْفع عَنهُ الضِّدّ الَّذِي يُعَارضهُ ويمانعه.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحده الْغنى عَن كل مَا سواهُ لَيْسَ لَهُ شريك يعاونه وَلَا ضد يناوئه ويعارضه قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعَام: ١٧]. وَقَالَ تَعَالَى عَن الْخَلِيل: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ إِلَى قَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعَام: ٧٩ - ٨٢].

الشَّرْح

○ قوله: (وَإِن كَانَ قد خلق مَا خلقه بِأَسْبَاب فَهُوَ خَالق السَّبَب والمقدر لَهُ) **المعنى**: أن هناك أسبابًا ربطها الله بالمسببات، وليس هناك

سبب واحد يستقل في حصول المطلوب، بل كل شيء ربطه الله بأسباب وموانع، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب، وليس هناك شيء له تأثير مستقل إلا مشيئة الله؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

أما المخلوقات فليس هناك شيء يستقل منها في حصول المطلوب، بل كل سبب لابد له من أسباب تعاونه ولابد من موانع تمنعه، فإذا وُجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب، **مثلاً**: إذا كان لك أرض تريد أن تزرعها فلابد أن تفعل الأسباب، ولا يكفي سبب واحد، فكونك تبذر لابد أن تحرث الأرض وتجري عليها الماء، وتسقيه.

ثم أيضًا: لابد من صرف الموانع والآفات التي تصيب الزرع، فقد يصيبها آفات، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل الزرع وإلا فلا يحصل، وهكذا جميع الأسباب، فكل الأسباب ربطها الله بالمسببات وليس هناك سبب واحد يستقل في حصول المطلوب إلا مشيئة الله، بل كل سبب لابد له من أسباب تعينه ولا بد له من موانع تمنع، فإذا وجد السبب ووجدت الأسباب المعينة وانتفت الموانع حصل المطلوب وإلا فلا يحصل.

وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ"[١] عَن عبد الله بن مَسْعُود رضى الله عَنهُ أَن هَذِه الْآيَة لما نزلت شقّ ذَلِك على أَصْحَاب النَّبِي ﷺ وَقَالُوا: يَا رَسُول الله أَيّنَا لم يلبس إيمَانه بظُلْم؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ الشّرك ألم تسمعوا إِلَى قَول العَبْد الصَّالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمَان: ١٣].

وَإِبْرَاهِيم الْخَلِيل إِمَام الحنفاء المخلصين حَيْثُ بعث وَقد طبق الأَرْض دين الْمُشْركين قَالَ الله تَعَالَى: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٤].

فَبين أَن عَهده بِالْإِمَامَةِ لَا يتَنَاوَل الظَّالِم فَلم يَأْمر الله سُبْحَانَهُ أَن يكون الظَّالِم إِمَامًا وَأعظم الظُّلم الشّرك.

الشَّرْح

● الظلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو أعظمها، هو: الشرك بالله ﷻ، وهذا هو الظلم الأكبر، وهذا الذي من لقي الله به فإنه مخلد في النار ليس له نصيب في الرحمة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمَان: ١٣] **وسُمي ظلمًا**؛ لأن الظلم معناه هو: وَضْعُ الشيء في غير موضعه، فالمشرك: وَضَعَ العبادة في غير موضعها؛ حيث صرف محض حق الله الذي لا يستحقه غيره إلى مخلوق ناقص ضعيف فعبد غير الله، ودعا غير الله، وذبح لغير الله، فصرف العبادة التي لا يستحقها إلا الله لغيره، وهذا أعظم الذنب.

النوع الثاني: ظلم العباد بعضهم لبعض، كالاعتداء على الناس

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم (٣٢)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان (١٢٤).

في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فهذه مبنية على المشاحة ولا بد من أداء المظالم إلى أهلها، فإن لم يؤدها في الدنيا أديت في الآخرة من حسناته، وهو المفلس كما في الحديث: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَام، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[(١)].

النوع الثالث: ظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله، وذلك بما يتعلق بحقوق الله التي لم تصل إلى حد الشرك وليست من حقوق العباد، كأن يقصر في بعض الواجبات، أو يفعل بعض المحرمات التي لا تتعلق بحقوق الآخرين.

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٨١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠] **وَالْأمة هُوَ معلم الْخَيْر الَّذِي يؤتم بِهِ كَمَا أَن الْقدْوَة الذى يقْتَدى بِهِ.**

وَالله تَعَالَى جعل فِي ذُريَّته النُّبُوَّة وَالْكتاب وَإِنَّمَا بعث الْأَنْبِيَاء بعده بملته وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٦].

الشَّرْح

بعث الله الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام بملته وكلهم من ذريته، فكل الأنبياء الذين جاؤا بعد إبراهيم من ذريته ومن سلالته، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام رزقه الله تعالى ابنين وهما نبيان كريمان؛ **الأول**: إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهذا هو بكره، وأمه: هاجر ويقال لها: آجر، وهي التي أهداها ملك مصر في ذلك الزمن إلى ساره، «هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَارَةَ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بِامْرَأَةٍ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟ قَالَ:

أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: لَا تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكِ أُخْتِي، وَاللَّهِ إِنْ عَلَى الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ» ـ وهذا من حماية الله لأوليائه ـ قَالَ الأَعْرَجُ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: «قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ، أَوْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا آجَرَ فَرَجَعَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ كَبَتَ الكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً»[1]، فأعطتها إبراهيم عليه الصلاة والسلام فتسرّاها فولدت له إسماعيل، وكانت زوجته سارة وهي بنت عمه عقيمًا لا تلد، فلما تسرى هاجر ولدت له إسماعيل، وكانت كريمة على الله، ومن كرم سارة على الله أن الله تعالى أمر إبراهيم ـ بما أراد من الحكمة ـ أن يذهب بهاجر وابنها إلى مكة وكانوا في الشام، فذهب بهما ثم رزق الله سارة بعد ذلك بولد صار نبيا وهو إسحاق ـ **وهو الثاني** ـ بعد مدة بينهما تقرب من اثنتي عشرة سنة.

وإسماعيل عليه الصلاة والسلام من سلالته نبينا محمد ﷺ، وهو الأب الثاني، **فالأب الأول**: إبراهيم عليه السلام، **والأب الثاني**: إسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب.

وأما إسحاق فقد أنجب يعقوبًا، ويعقوب هو: إسرائيل، فأنبياء بني إسرائيل كلهم من سلالته، ويعقوب أنجب يوسف فكان يوسف نبيًا، وأبوه يعقوب نبيًا، وإسحاق نبيًا، وجده الثاني إبراهيم نبيًا، ولهذا جاء

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه (٢٢١٧).

في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «**الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ**»(١).

فصار إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أخوان، وصار أولاد إسماعيل وأولاد إسحاق أبناء عم، فيكون بنو إسرائيل والعرب هم أبناء العم في الأصل، فعلى هذا يكون جميع الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلهم من سلالته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ لأن إسماعيل من سلالته نبينا عليه الصلاة والسلام، وإسحاق من سلالته جميع أنبياء بني إسرائيل الذين آخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام.

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ (٣٣٩٠)

وَقد ثَبت فِي "الصَّحِيح" عَن النَّبِي ﷺ: أَن «إِبْرَاهِيم خير الْبَريَّة»(١) فَهُوَ أفضل الْأَنْبِيَاء بعد النَّبِي ﷺ وَهُوَ خَلِيل الله تَعَالَى. وَقد ثَبت فِي "الصَّحِيح" عَن النَّبِي ﷺ من غير وَجه أَنه قَالَ: «إِن الله اتخذنى خَلِيلًا كَمَا اتخذ إِبْرَاهِيم خَلِيلًا»(٢).

وَقَالَ: «لَو كنت متخذا من أهل الأَرْض خَلِيلًا لاتخذت أَبَا بكر خَلِيلًا وَلَكِن صَاحبكُم خَلِيل الله»(٣) يعْنى نَفسه. وَقَالَ: «لَا تبقين فِي الْمَسْجِد خوخة إِلَّا سدت إِلَّا خوخة أَبى بكر»(٤).

وَقَالَ: «أَلا وَإِن من كَانَ قبلكُمْ كَانُوا يتخذون الْقُبُور مَسَاجِد أَلا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُور مَسَاجِد إِنى أنهاكم عَن ذَلِك»(٥) وكل هَذَا فِي "الصَّحِيح" وَفِيه أَنه قَالَ ذَلِك قبل مَوته بأيام(٦) وَذَلِكَ من تَمام رسَالَته فَإِن فِي ذَلِك تَمام تَحْقِيق مخالته لله الَّتِي أَصْلهَا محبَّة الله تَعَالَى للْعَبد ومحبة العَبْد لله خلافًا للجهمية(٧)، وَفِي ذَلِك تَحْقِيق تَوْحِيد الله وَألا يعبدوا إِلَّا إِيَّاه ردا على أشباه الْمُشْركين.

الشَّرْح

قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**» على

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل (٢٣٦٩)، من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ**".

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي ﷺ.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٣)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا**».

(٤) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «**لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ**».

(٥) سبق تخريجه.

(٦) قال جندب بن عبد الله البجلي ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول . . . ثم ذكر الحديث، تنظر: المرجع السابق. (٧) انظر: درء تعارض العقل (٦/ ٥٩-٦٣).

هذا تكون الخلة ثابتة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهما أفضل الرسل وأفضل الخلق، ونبينا محمد ﷺ أكمل الخليلين، فهو أكمل وأفضل من جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ويليه جده إبراهيم في الفضيلة، فكلاهما خليل الله.

وأما زعم بعض الناس ـ كما سيبين المؤلف ـ أن إبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمدًا ﷺ حبيب الله، **فهذا ضعيف**، لأن الخلة كمال المحبة، وهي أعلى مراتب المحبة.

○ قوله: (فَإِن فِي ذَلِك تَمام تَحْقِيق مخالته لله الَّتِي أَصْلهَا محبَّة الله تَعَالَى للْعَبد ومحبة العَبْد لله خلافًا للجهمية، وَفِي ذَلِك تَحْقِيق تَوْحِيد الله وَألا يعبدوا إِلَّا إِيَّاه ردا على أشباه الْمُشْركين): **فالخلة والمحبة صفتان لله** كسائر صفاته التي تليق بجلاله وعظمته لاتكيَّف،لكن تستلزم كمال الربوبية من الرب، أما بالنسبة للمخلوق ـ إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام هما خليلي الله ـ والخلة لهما تستلزم كمال العبودية منهما لله ﷻ.

أما الجهمية فقالوا: لا خلة، ولا محبة؛ لأن الخلة والمحبة لابد أن تكون لمناسبة أو لمشاكلة بين المحب والمحبوب، وليس هناك مشاكلة بين الرب والعبد، وهذا من جهلهم وضلالهم.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه[١].

(١) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص٤٥٨).

وَفِيه رد على الرافضة الَّذين يبخسون الصّديق رَضِي الله عَنهُ حَقه وهم أعظم المنتسبين إِلَى الْقبْلَة إشراكا بِعبَادة عَليّ وَغَيره من الْبشر.

الشَّرْح

○ قوله: (وَفِيه رد على الرافضة الَّذين يبخسون الصّديق رَضِي الله عَنهُ حَقه وهم أعظم المنتسبين إِلَى الْقبْلَة إشراكا بِعبَادة عَليّ وَغَيره من الْبشر): **وجه كون الرافضة أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكًا**: أن الرافضة يعبدون آل البيت، ويتوسلون بآل البيت، ويزعمون أن النبي ﷺ نص على اثني عشر إماما بعده، وأن أولهم: علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن علي ثم الحسين بن علي، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضى، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن الخلف الحجة المهدي المنتظر؛ الذي دخل سرداب سمراء في سنة ستين ومائتين وما خرج إلى الآن، يقول شيخ الإسلام بلغ أربعمائة سنة وما خرج[1]، ونحن الآن نقول: له مائتان وألف سنة وما خرج.

وهم في أوقات معينة من كل سنة يأتون بدابة ويقفون على باب السرداب وينادون بصوت جهوري يا مولانا اخرج.

هكذا ذكره شيخ الإسلام وذكره غيره، وقد أخبرني بعض الإخوان الطيبين من أهل البلاد هناك أنه إلى الآن يُفعل ذلك.

وهناك أناس يقفون في هذا الوقت في أماكن من الدنيا وبعيدة عن المشهد ـ بعضهم في الشرق، وبعضهم في الغرب، وبعضهم في المدينة، وفي غيرها ـ **لا يصلون؛ يقولون**: نخشى أن يخرج المهدي

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٨٠)، وحقوق آل البيت ص(٥٤).

المنتظر ونحن في الصلاة مشتغلين عن خدمته، هذا من جهلهم ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

وهم يتوسلون إلى الآن ـ كما هو معروف عنهم ـ: بآل البيت، بعلي وبالحسين، فيقولون: يا حسين يا علي يا ولي الله كن لي شفيعاً عند الله، حتى بعض الحجاج الآن من الخمينيين وغيرهم: يتوسلون بهم، فيبدأون بعلي حتى ينتهون بالمهدي المنتظر، ويتوسلون بهم واحدًا بعد واحد، **فهذا لا يخفى أنه شرك أكبر**؛ لأنه عبادة لهم من دون الله.

كذلك دعواهم أن القرآن طار ثلثيه هذه ردة ـ نسأل الله العافية ـ، ومن ادعى منهم هذا كان كافرًا ومرتدًا؛ لأنه مصادم لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: ٩].

وكذلك سبّ الصحابة أواعتقاد كفرهم؛ لأن هذا سب للدين الذي حملوه، فإذا كان الذين حملوا الدين كلهم كفار وكلهم فسقة فكيف يوثق بهذا الدين؟!

والخلة هِيَ كَمَال الْمحبَّة المستلزمة من العَبْد كَمَال الْعُبُودِيَّة لله وَمن الرب سُبْحَانَهُ كَمَال الربوبية لِعِبَادِهِ الَّذين يُحِبهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.

وَلَفظ الْعُبُودِيَّة يتَضَمَّن كَمَال الذل وَكَمَال الْحبّ فَإِنَّهُم يَقُولُونَ قلب متيم إِذا كَانَ متعبدا للمحبوب.

والمتيم المتعبد وتيم الله عبد الله وَهَذَا على الْكَمَال حصل لإِبْرَاهِيم وَمُحَمّد صلى الله عَلَيْهِمَا وَسلم.

وَلِهَذَا لم يكن لَهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم من أهل الأَرْض خَلِيل إِذْ الْخلَّة لَا تحْتَمل الشّركَة فَإِنَّهُ كَمَا قيل فِي الْمَعْنى:

قد تخللت مَسْلَك الرّوح مني وبذا سُمي الْخَلِيل خَلِيلًا

الشَّرْح

فالخلة تستلزم من العبد: كمال العبودية لله فإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام وصلا إلى كمال العبودية، **وتستلزم من الرب**: كمال الربوبية لهما.

○ قوله: (وَلِهَذَا لم يكن لَهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم من أهل الأَرْض خَلِيل): فليس ثَمّ مكان؛ إذ لا يتسع القلب لأكثر من خليل؛ فإن الخليل هو الذي امتلأ قلبه بخلة خليله، فنبينا عليه الصلاة والسلام امتلأ قلبه بخلة الله ﷻ، وليس فيه متسع لأحد، ولو كان فيه متسع لكان لأبي بكر، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[1] **يعني**: لو كان في قلبي متسع لكان لأبي بكر، ولكن قلبي امتلأ بخلة الله ﷻ.

لكن القلب يحب أكثر من واحد، فيتّسع القلب لمحبة كثيرين، ولهذا كان النبي ﷺ يحب كثيرين فيحب أبا بكر رضي الله عنه، ويحب عائشة

(١) سبق تخريجه قريبا.

رضي الله عنهما، ويحب الحسن والحسين رضي الله عنهما، ويحب أسامة رضي الله عنه، ويحب غيرهم، **أما الخلة** فما اتسع قلبه إلا لخلة الله عز وجل.

○ وقوله: (إِذْ الْخلَّة لَا تحْتَمل الشّركَة): هذا بالنسبة للمخلوق كنبينا عليه الصلاة والسلام، أما الخلة بالنسبة لله فوصف يليق بعظمته وجلاله لا يكيّف، ولكن من مسلتزماتها تحقيق الربوبية للخليل.

بِخِلَاف أصل الْحبّ فَإِنَّهُ ﷺ قد قَالَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح فِي الْحسن وَأُسَامَة: «اللَّهُمَّ إنى أحبهما فأحبهما وَأحب من يحبهما»(١)، وَسَأَلَهُ عَمْرو بن الْعَاصِ: أَي النَّاس أحب إِلَيْك؟ قَالَ: «عَائِشَة». قَالَ: فَمن الرِّجَال؟ قَالَ: «أَبوهَا»(٢) وَقَالَ لعَلي رَضِي الله عَنهُ: «لأُعْطِيَن الرَّايَة غَدا رجلا يحب الله وَرَسُوله وَيُحِبهُ الله وَرَسُوله»(٣) وأمثال ذَلِك كثير.

وَقد أخبر تَعَالَى أَنه: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٧٦]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المَائدة: ٤٢] و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: ٤]، وقَال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤].

فقد أخبر بمحبته لِعِبَادِهِ الْمُؤمنِينَ ومحبة الْمُؤمنِينَ لَهُ حَتَّى قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وَأما الْخلَّة فخاصة وَقَول بعض النَّاس: إِن مُحَمَّدًا حبيب الله وَإِبْرَاهِيم خَلِيل الله وظنه أَن الْمحبَّة فَوق الْخلَّة قَول ضَعِيف فَإِن مُحَمَّدًا أَيْضا خَلِيل الله كَمَا ثَبت ذَلِك فِي الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة المستفيضة(٤).

وَمَا يرْوى أَن الْعَبَّاس يحْشر بَين حبيب وخليل وأمثال ذَلِك

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٤٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**» (٣٦٦٢)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (٢٣٨٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٩٤٢)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٠٦).

(٤) كما في حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي قبل أن يموت بخمس يقول: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**». صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢).

فأحاديث مَوْضُوعَة لَا تصلح أَن يعْتَمد عَلَيْهَا.

الشَّرْح

بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الخلة أكملُ من المحبة وأنها أكمل مراتب المحبة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله كلاهما خليل الله.

وبين رَحِمَهُ اللَّهُ: أن بعض الناس يقول: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، ويظن أن المحبة فوق الخلة وهذا ضعيف، فالخُلّة من العبد تتضمن تحقيق كمال العبودية لله، وكمال الخلة هي كمال المحبة، وهي تستلزم من العبد كمال العبودية لله، وتستلزم من الرب كمال الربوبية لعبادة الذين يحبهم؛ والنبي ﷺ لم يتخذ أحدًا من الناس خليلًا وإنما اتخذ ربه خليلاً، لكن أخبر أنه يحب كثيرين.

○ قوله: (وَمَا يرْوى أَن الْعَبَّاس يحْشر بَين حبيب وخليل وأمثال ذَلِك فأحاديث مَوْضُوعَة لَا تصلح أَن يعْتَمد عَلَيْهَا): أي: أن ما يروى من أن العباس ـ يعني: ابن عبد المطلب ـ يحشر بين حبيب وخليل، والحبيب هو محمد، وبين خليل وهو إبراهيم، وهذا كذب، لأن محمدا أيضاً خليل الله عليه الصلاة والسلام، فمحمد وإبراهيم كلاهما خليل الله.

وَقد قدمنَا أَن محبَّة الله تَعَالَى هِيَ محبته ومحبة مَا أحب كَمَا فِي "الصَّحِيحَيْنِ" عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «ثَلَاث من كن فِيهِ وجد حلاوة الْإِيمَان: من كَانَ الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا وَمن كَانَ يحب الْمَرْء لَا يُحِبهُ إِلَّا لله وَمن كَانَ يكره أَن يرجع فِي الْكفْر بعد إِذْ أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أَن يلقى فِي النَّار»(١).

أخبر النَّبِي ﷺ أَن من كَانَ فِيهِ هَذِه الثَّلَاث وجد حلاوة الْإِيمَان لِأَن وجد الْحَلَاوَة بالشَّيْء يتبع الْمحبَّة لَهُ فَمن أحب شَيْئا أَو اشتهاه إِذا حصل لَهُ مُرَاده فَإِنَّهُ يجد الْحَلَاوَة واللذة وَالسُّرُور بذلك واللذة أَمر يحصل عقيب إِدْرَاك الملائم الَّذِي هُوَ المحبوب أَو المشتهى.

الشَّرْح

حلاوة الإيمان التي تتضمن اللذة والفرح بما يجده المؤمن تتبع كمال المحبة، وهذه الحلاوة التي تتبع كمال المحبة تكون بثلاثة أمور ـ:

أولاً: يحتاج إلى تكميل هذه المحبة، وتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ثانياً: تفريغها عما سواه وذلك بأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله.

ثالثا: دفع ضدها وذلك بأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

فهذه الأمور الثلاثة ذكرها النبي ﷺ تتضمن حصول الحلاوة التى تتبع كمال محبة الله، فالذي يحب الله ورسوله أحب مما سواهما والذي يحب المرء لا يحبه إلا لله والذي يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه يحصل له كمال المحبة وتحصل له حلاوة الإيمان لأنه كمَّل المحبة وفرّغها ودفع ضدها.

(١) سبق تخريجه.

وَمن قَالَ: إِن اللَّذَّة إِدْرَاك الملائم كَمَا يَقُوله من يَقُوله من المتفلسفة والأطباء[١] فقد غلط فِي ذَلِك غَلطا بَينا فَإِن الْإِدْرَاك يتوسط بَين الْمحبَّة واللذة فَإِن الْإِنْسَان مثلا يَشْتَهِي الطَّعَام فَإِذا أكله حصل لَهُ عقيب ذَلِك اللَّذَّة فاللذة تتبع النّظر إِلَى الشَّيْء فَإِذا نظر إِلَيْهِ التذ بِهِ واللذة الَّتِي تتبع النّظر لَيست نفس النّظر وَلَيْسَت هِيَ رُؤْيَة الشَّيْء بل تحصل عقيب رُؤْيَته وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وَهَكَذَا جَمِيع مَا يحصل للنَّفس من اللَّذَّات والآلام من فَرح وحزن وَنَحْو ذَلِك يحصل بالشعور بالمحبوب أَو الشُّعُور بالمكروه وَلَيْسَ نفس الشُّعُور هُوَ الْفَرح وَلَا الْحزن. فحلاوة الْإِيمَان المتضمنة من اللَّذَّة بِهِ والفرح مَا يجده الْمُؤمن الْوَاجِد حلاوة الْإِيمَان تتبع كَمَال محبَّة العَبْد لله وَذَلِك بِثَلَاثَة أُمُور:

تَكْمِيل هَذِه الْمحبَّة وتفريقها وَدفع ضدها.

فتكميلها أَن يكون الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا فَإِن محبَّة الله وَرَسُوله لَا يكْتَفى فِيهَا بِأَصْل الْحبّ بل لابد أَن يكون الله وَرَسُوله أحب إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا كَمَا تقدم، وتفريقها أَن يحب الْمَرْء لَا يُحِبهُ إِلَّا لله، وَدفع ضدها أَن يكره ضد الْإِيمَان أعظم من كَرَاهَته الْإِلْقَاء فِي النَّار. فَإِذا كَانَت محبَّة الرَّسُول وَالْمُؤمنِينَ من محبَّة الله وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يحب الْمُؤمنِينَ الَّذين يُحِبهُمْ الله لِأَنَّهُ أكمل النَّاس محبَّة لله وأحقهم بِأَن يحب مَا يُحِبهُ الله وَيبغض مَا يبغضه الله.

والخلة لَيْسَ فِيهَا لغير الله نصيب بل قَالَ: «لَو كنت متخذا من أهل الأَرْض خَلِيلًا لاتخذت أَبَا بكر خَلِيلًا»[٢] علم مزِيد مرتبَة الْخلَّة على مُطلق الْمحبَّة.

الشَّرح

○ قوله: (تَكْمِيل هَذِه الْمحبَّة وتفريقها وَدفع ضدها): فإنه إذا

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٦٩-٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

صارت محبوباته كلها تابعة لمحبة الله، فقد فرّغ المحبة مما يشوبها فصارت كل المحبة لله، فيحب الله ويحب ما يحبه الله من الأنبياء والصالحين، فإذا كانت المحبوبات الأخرى كلها تابعة لمحبة الله فمعناه أنه فرغها من غيرها، ثم يدفع ما يضادها بأن يكره الكفر كما يكره الإلقاء في النار.

○ وقوله: (والخلة لَيْسَ فِيهَا لغير الله نصيب): لأن الخلة آخر مرتبة في المحبة فهي نهاية المحبة، والمحبة كما سبق مراتب: أولها العلاقة ثم الصبابة والغرام ... إلخ ثم النهاية وكمال مراتبها الخلة، وهي آخر مرتبة في المحبة، فالخلة هي كمال المحبة ونهايتها.

وَالْمَقْصُود هُوَ أَن الْخلَّة والمحبة لله تَحْقِيق عبوديته وَإِنَّمَا يغلط من يغلط فِي هَذِه من حَيْثُ يتوهمون أَن الْعُبُودِيَّة مُجَرّد ذل وخضوع فَقَط لَا محبَّة مَعَه وَأَن الْمحبَّة فِيهَا انبساط فِي الْأَهْوَاء أَو إدلال لَا تحتمله الربوبية وَلِهَذَا يذكر عَن ذِي النُّون أَنهم تكلمُوا عِنْده فِي مَسْأَلَة الْمحبَّة فَقَالَ: أَمْسكُوا عَن هَذِه الْمَسْأَلَة لَا تسمعها النُّفُوس فتدعيها.

وَكره من كره من أهل الْمعرفَة وَالْعلم مجالسة أَقوام يكثرون الْكَلَام فِي الْمحبَّة بِلَا خشيَة.

وَقَالَ من قَالَ من السّلف: من عبد الله بالحب وَحده فَهُوَ زنديق وَمن عَبده بالرجاء وَحده فَهُوَ مرجئ وَمن عَبده بالخوف وَحده فَهُوَ حروري وَمن عَبده بالحب وَالْخَوْف والرجاء فَهُوَ مُؤمن موحد.

الشَّرْح

● الناس أقسام أربعة:

ـ من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق متحلّل من الديانة، فيدّعي أنه يعبد الله بالحب، لكن ما يخاف الله ولا يرجوه، ولهذا يُذكر عن بعض الصوفية ـ كما في كتاب الوعظ ـ وينسب إلى رابعة العدوية: (ما عبدت الله خوفاً من ناره ولا طمعًا في جنته فأكون كأسير السوء، وإنما عبدته حبًا لذاته وشوقًا إليه) كأنها تقول: لأنني إذا عبدته خوفاً وطمعاً أكون مثل الإنسان النفعي، ما يعبده إلا لأجل شيء ينفعه، بل أنا أعبده حبًا لذاته فقط لا خوفًا ولا رجاءً. حتى قال بعضهم: (إنه يحب العذاب ويحب النار) فقيل له لِمَ؟ فقال: (لأنني إذا تمتعت بالجنة معناه صارت نفسي تميل إليه، فكنت مع هواي، أما إذا عذبت في النار صرت مخالفاً لهواي). فهو يرغب في عذاب النار ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

ويوجد في كتب الصوفية كثير قولهم: وأن يعبد ربه بالحب وحده وهكذا.

والله تعالى قد أخبر عن أنبيائه ورسوله لما ذكر الأنبياء إبراهيم ولوطا ونوحا وداود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وعيسى قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، خوفاً ورجاء ويدعون ربهم خوفا وطمعاً، لا بد أن تعبد الله بالحب وبالخوف والرجاء.

- ومن عبد الله بالخوف وحده فهذا حروري، على طريقة الحرورية الخوارج.
- ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ.
- ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن موحد.

وَلِهَذَا وجد فِي الْمُتَأَخِّرين من انبسط فِي دَعْوَى الْمحبَّة حَتَّى أخرجه ذَلِك إِلَى نوع من الرعونة وَالدَّعْوَى الَّتِي تنَافِي الْعُبُودِيَّة وَتدْخل العَبْد فِي نوع من الربوبية الَّتِي لَا تصلح إِلَّا لله فيدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حُدُود الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ أَو يطْلب من الله مَا لَا يصلح بِكُل وَجه إِلَّا لله لَا يصلح للأنبياء وَلَا للمرسلين.

وَهَذَا بَاب وَقع فِيهِ كثير من الشُّيُوخ وَسَببه ضعف تَحْقِيق الْعُبُودِيَّة الَّتِي بيّنها الرُّسُل وحررها الْأَمر وَالنَّهْي الَّذِي جَاءُوا بِهِ بل ضعف الْعقل الَّذِي بِهِ يعرف العَبْد حَقِيقَته وَإِذا ضعف الْعقل وقلص الْعلم بِالدّينِ وَفِي النَّفس محبَّة طائشة جاهلة انبسطت النَّفس بحمقها فِي ذَلِك كَمَا ينبسط الْإِنْسَان فِي محبَّة الْإِنْسَان مَعَ حمقه وجهله وَيَقُول: أَنا محب فَلَا أؤاخذ بِمَا أَفعلهُ من أَنْوَاع يكون فِيهَا عدوان وَجَهل فَهَذَا عين الضلال وَهُوَ شَبيه بقول الْيَهُود وَالنَّصَارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المَائدة: ١٨]. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المَائدة: ١٨]، فَإِن تعذيبه لَهُم بِذُنُوبِهِمْ يَقْتَضِي أَنهم غير محبوبين وَلَا منسوبين إِلَيْهِ بِنسَب الْبُنُوَّة بل يَقْتَضِي أَنهم مربوبون مخلوقون.

الشَّرْح

هؤلاء الشيوخ الذين يقصدهم المؤلف هم شيوخ الصوفية، وهذه هي دعواهم.

○ وقوله: (وسببه ضعف تحقيق العبودية): أي: أن السبب ضعف تحقيق العبودية عندهم التي تحريرها الأمر والنهي، أي: أوامر الله ونواهيه، بل ضعف العقل، فحصل عندهم ضعف العبودية وضعف العلم وضعف العقل، فصدرت منهم هذه الأقوال والأفعال السيئة.

○ وقوله: (وإذا ضعف العقل، وقل العلم بالدين...): أي: أن هذه دعوى باطلة، فقوله إنه لا يؤاخذ بما يفعله يعني أنه محبوب لله فلا يؤاخذه بالمعاصي، وهذه كقول اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المَائدة: ١٨] قال الله رداً عليهم: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المَائدة: ١٨] ليكون العدوان: سبباً لبغض المحبوب له، ونفوره عنه، بل سبباً لعقوبته.

فَمن كَانَ الله يُحِبهُ اسْتَعْملهُ فِيمَا يُحِبهُ ومحبوبه لَا يفعل مَا يبغضه الْحق ويسخطه من الْكفْر والفسوق والعصيان وَمن فعل الْكَبَائِر وأصر عَلَيْهَا وَلم يتب مِنْهَا فَإِن الله يبغض مِنْهُ ذَلِك كَمَا يحب مِنْهُ مَا يَفْعَله من الْخَيْر إِذْ حبه للْعَبد بِحَسب إيمَانه وتقواه.

وَمن ظن أَن الذُّنُوب لَا تضره لكَون الله يُحِبهُ مَعَ إصراره عَلَيْهَا كَانَ بِمَنْزِلَة من زعم أَن تنَاول السم لَا يضرّهُ مَعَ مداومته عَلَيْهِ وَعدم تداويه مِنْهُ لصِحَّة مزاجه.

وَلَو تدبر الأحمق مَا قصّ الله فِي كِتَابه من قصَص أنبيائه وَمَا جرى لَهُم من التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَار وَمَا أصيبوا بِهِ من أَنْوَاع الْبلَاء الَّذِي فِيهِ تمحيص لَهُم وتطهير بِحَسب أَحْوَالهم علم بعض ضَرَر الذُّنُوب بأصحابها وَلَو كَانَ أرفع النَّاس مقَاما.

الشَّرْح

○ قوله: (وَمن ظن أَن الذُّنُوب لَا تضره لكَون الله يُحِبهُ مَعَ إصراره عَلَيْهَا كَانَ بِمَنْزِلَة من زعم أَن تنَاول السم لَا يضرّهُ...): هذا من غرور الشيطان، وقد زعم بعض الصوفية أن الذنوب لا تضره، فيقول: أنا بلغت مرتبة عند الله وأنا محبوب لله فلا تضرني الذنوب ولا المعاصي ولا التقصير في الواجبات، مثل البحر الذي لا يضره ما تضع فيه من النجاسة ولا تكدره الدلاء، وبعضهم يقول: أنا وصلت إلى الله وبلغت درجة من المحبة لا تضرني معها المعاصي، وهذا من غرور الشيطان، واستحواذه عليهم مثل من يقول إنه يتناول السم ولا يضره لأن مزاجه صحيح وعنده مَنَعَةٌ وقوةٌ، وهذا لا يقول به عاقل.

○ وقوله: (وَلَو تدبر الأحمق مَا قصّ الله فِي كِتَابه من قصَص أنبيائه): لو تدبر قصة آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ

ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وكذلك قال الله عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]، وقال عن داود عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]، وقال عن نبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢] وقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩] فكيف يقول هؤلاء الصوفية إنهم لا تضرهم الذنوب، والأنبياء أرفع الناس مقاماً ومع ذلك أخبر الله أنهم مُحّصوا وأنهم طُهّروا وأن الله تاب عليهم.

فَإِن الْمُحب للمخلوق إِذا لم يكن عَارِفًا بمحابّه وَلَا مرِيدا لَهَا بل يعْمل بِمُقْتَضى الْحبّ وَإِن كَانَ جهلا وظلما كَانَ ذَلِك سَببا لِبُغْض المحبوب لَهُ ونفوره عَنهُ بل سَببا لعقوبته.

وَكثير من السالكين سلكوا فِي دَعْوَى حب الله أنواعا من أُمُور الْجَهْل بِالدّينِ: إِمَّا من تعدِي حُدُود الله وَإِمَّا من تَضْييع حُقُوق الله وَإِمَّا من ادِّعَاء الدَّعَاوَى الْبَاطِلَة الَّتِي لَا حَقِيقَة لَهَا.

الشَّرْح

من كان يعمل بمقتضى هواه ـ ولو كان جهلًا وظلمًا ـ فلا يكون هذا سببًا في محبة الله، بل يكون سببا لبغضه وعقوبته إما في الدنيا أو في الآخرة.

○ قوله: (وكثير من السالكين): يعني المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بالسالكين هنا: الصوفية، فهم يُسمَّون سالكين؛ لأنهم سالكون إلى الله بزعمهم.

وهذا الذي ادَّعَوه: من استحواذ الشيطان عليهم، فبعضهم يرى أنه إذا وصل إلى مرتبة من العلم، وعلم أن ما قُدِّرَ سيكون، وألغى صفاته وجعلها صفة الله، سقط عنه التكليف ولا يبالي ولا تضره المعاصي، وأن المعاصي للعامة، أما هو فمن الخاصة الذين لا تضرهم المعاصي، فهذا من استحواذ الشيطان عليهم، فيضيِّع حقوق الله ويتعدى، ويقول: إنه لا يضره هذا، وتصدر منه مثل هذه الدعاوى الباطلة وهذه الأقوال التي سيذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

كَقَوْل بَعضهم: أَي مُرِيد لي ترك فِي النَّار أحدا فَأَنا برِئ مِنْهُ، فَقَالَ الآخر: أَي مُرِيد لي ترك أحدا من الْمُؤمنِينَ يدْخل النَّار فَأَنا مِنْهُ بَرِيء.

فَالْأول جعل مريده يخرج كل من فِي النَّار.

وَالثَّانِي جعل مريده يمْنَع أهل الْكَبَائِر من دُخُول النَّار .

وَيَقُول بَعضهم: إِذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة نصبت خَيْمَتي على جَهَنَّم حَتَّى لَا يدخلهَا أحد.

وأمثال ذَلِك من الْأَقْوَال الَّتِي تُؤثر عَن بعض الْمَشَايِخ الْمَشْهُورين وَهِي إِمَّا كذب عَلَيْهِم وَإِمَّا غلط مِنْهُم.

وَمثل هَذَا قد يصدر فِي حَال سكر وَغَلَبَة وفناء يسْقط فِيهَا تَمْيِيز الْإِنْسَان أَو يضعف حَتَّى لَا يدْرِي مَا قَالَ. وَالسكر هُوَ لَذَّة مَعَ عدم تَمْيِيز وَلِهَذَا كَانَ من هَؤُلَاءِ من إِذا صَحا اسْتغْفر من ذَلِك الْكَلَام.

الشَّرْح

هذه كلها أقوال:

فالأول: : يقول: (أَي مُرِيد لي): يقصد ربه (ترك أحدا من الْمُؤمنِينَ يدْخل النَّار فَأَنا مِنْهُ بَرِيء): يعني: تبرأ من الله.

والثاني: يقول: (أَي مُرِيد لي ترك أحدا من الْمُؤمنِينَ يدْخل النَّار فَأَنا مِنْهُ بَرِيء)، فتبرأ من الله؛ إذ الصواب أن أهل الكبائر جملة منهم يدخلون النار، وقسم يعفى عنهم، فليس كلهم يدخلون وليس كلهم يعفى عنهم، بل لابد أن يدخل النار جملة من أهل الكبائر؛ لأنه قد تواترت الأخبار والأحاديث عن النبي ﷺ أنه لابد أن يدخل النار جملة من أهل الكبائر وهم مؤمنون مصلون، ولا تأكل النار وجوههم، فهذا يدخل النار لأنه زنى ولم يتب، وهذا يدخل النار لأنه عاق لوالديه، وهذا يدخل النار لأنه تعامل بالربا، وهذا يدخل النار لأنه اغتاب الناس

أو نمَّ عليهم أو أكل أموال الناس بالباطل.

إذن نقول: لا وجه لهذا القول، بل لابد أن تجزم بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر.

والثالث: كذلك ادعى أنه إذا كان يوم القيامة نصبت خيمته على جهنم حتى لا يدخلها أحد.

وهذه الأقوال كفرية، لكن المؤلف ـ يرحمه الله ـ يلتمس لهم العذر فيقول: إن هذه الأقول أحيانًا تصدر منهم وقد حصل لهم حالة سكر وغلبة وفناء، أي: من شدة الشهود حصل له غيبوبة فتصدر منه هذه الأقوال وليس عنده عقل ولاتمييز، فيكون من جنس المجانين، فيكون معذورًا؛ لأنه مرفوع عنه القلم، وإلا لو قالها ومعه عقله فيكون كافرًا.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يبين أنه قد تصدر منهم هذه الأقوال وأحدهم في غيبوبة بسبب السكر والاصطلام والمحو والجمع،فمن شدة الشهود ينسى كل شيء حتى ينسى نفسه، حتى إن بعضهم من شدة شهوده لربه بزعمه ينسى كل شيء ولا يتحرك، وتقع عليه الطيور ولا يتحرك فلا يعقل شيئًا، ويعصب عينه ويدعي أنه تحصل له أنوار وهي: أنوار شيطانية، ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ هكذا تستحوذ عليهم الشياطين.

فهذه الأقوال أقوال كفرية من قالها وعقله معه فهو كافر مرتد؛ لأنه تبرأ من الله، وادعى أنه يتصرف في يوم القيامة،ـ نسأل الله العافية ـ.

قال المؤلف في الاعتذار لهم: (إِمَّا كذب عَلَيْهِم وَإِمَّا غلط مِنْهُم): يعني أن ما حصل إما أن يكون كذبا عليهم وإما غلطًا منهم بسبب قوة الشهود والغيبوبة التي حصلت لهم وعدم التمييز.

○ وقوله: (وَمثل هَذَا قد يصدر فِي حَال سكر وَغَلَبَة وفناء): هذه أحوال الصوفية، السكر، يعني: السكر من شدة الحب، يسكر حتى ينسى نفسه، وغلبه الفناء أي كونه يُفني نفسه في ربه ولا يحصل له تمييز بين الخالق والمخلوق ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ وهذه أحوال الصوفية.

○ وقوله: (يسْقط فِيهَا تَمْيِيز الْإِنْسَان): وإذا سقط التمييز صار مجنوناً ورفع عنه القلم؛ لأنه لا يعقل.

○ وقوله: (وَلِهَذَا كَانَ من هَؤُلَاءِ من إِذا صَحا اسْتغْفر من ذَلِك الْكَلَام): إذا صحا أو زال عنه السكر زالت عنه الغيبوبة استغفر.

وَالَّذين توسعوا من الشُّيُوخ فِي سَماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام.

كَانَ هَذَا أصل مقصدهم فَإِن هَذَا الْجِنْس يُحَرك مَا فِي الْقلب من الْحبّ كَائِنا مَا كَانَ.

وَلِهَذَا أنزل الله محنة يمْتَحن بهَا الْمُحب فَقَال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] **فَلَا يكون محبا لله إِلَّا من يتبع رَسُوله.**

الشَّرْح

○ قوله: (وَالَّذين توسعوا من الشُّيُوخ فِي سَماع القصائد...): من جهلهم أنهم يتوسعون في سماع القصائد التي تتضمن الحب والشوق واللوم والعذل والغرام، فيتعبدون لله بسماع هذه القصائد والغناء.

○ وقوله: (ولهذا أنزل الله محنة يمتحن بها المحب): وهذه الآية تسمى آية المحنة والاختبار ادَّعى أناس أنهم يحبون الله فاختبرهم، فأخبر الله أن ميزان ذلك اتباع الرسول، فمن ينطبق عليه الميزان فهو محب لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، فمن اتبع الرسول فهو صادق في المحبة، ومن خالف الرسول ﷺ فهو كاذب في المحبة، واتباع الرسول ﷺ بالتزام ما جاء به من الشريعة فامتثل أوامر الله وأخلص أعماله لله، وأخلص الدين لله، وأدى فرائض الله، وانتهى عن محارم الله، ووقف عند حدود الله، واستقام على دين الله، فمن كان كذلك فهو صادق في محبته ومن خالف ذلك فهو كاذب.

وَطَاعَة الرَّسُول ومتابعته لَا تكون إِلَّا بتحقيق الْعُبُودِيَّة وَكثير مِمَّن يَدعِي الْمحبَّة يخرج عَن شَرِيعَته وسنته ﷺ وَيَدعِي من الْحَالَات مَا لَا يَتَّسِع هَذَا الْموضع لذكره حَتَّى قد يظنّ أحدهم سُقُوط الْأَمر وَتَحْلِيل الْحَرَام لَهُ وَغير ذَلِك مِمَّا فِيهِ مُخَالفَة شَرِيعَة الرَّسُول وسنته وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رَسُوله الْجِهَاد فِي سَبيله وَالْجهَاد يتَضَمَّن كَمَال محبَّة مَا أَمر الله بِهِ وَكَمَال بغض مَا نهى الله عَنهُ وَلِهَذَا قَالَ فِي صفة من يُحِبهُمْ وَيُحِبُّونَهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المَائدة: ٥٤].

الشَّرْح

○ قوله: (حَتَّى قد يظنّ أحدهم سُقُوط الْأَمر وَتَحْلِيل الْحَرَام لَهُ وَغير ذَلِك مِمَّا فِيهِ مُخَالفَة شَرِيعَة الرَّسُول وسنته وطاعته): يعني: أنه يظن أنه إذا وصل إلى مرتبة العلم وإلى حالة يلغي صفاته ويجعلها لله، ويلغى أفعاله ويجعلها أفعالا لله، صار من الخاصة، وسقط عنه الأمر والنهي، فليس عليه أوامر ولا نواهٍ ولا طاعاتٍ ولا معاصٍ لأنه وصل إلى الله، ويستدل بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩] فيفسرون اليقين بالعلم، فيزعمون أن كلَّ ما يفعلونه فهو مباح لهم ـ نعوذ بالله ـ، ومن اعتقد هذا فهو مرتد، يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

○ وقوله: (بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رَسُوله الْجِهَاد فِي سَبيله): فالجهاد في سبيله هو أساس المحبة؛ لأن المجاهد يبذل نفسه وماله لله ﷻ، في الغيرة لدين الله، والدعوة إلى دينه، فهو يقاتل ويبذل مهجته ويبذل نفسه لإعلاء كلمة الله، وهذا هو الأصل وأساس المحبة لله ولرسوله، وهذه هي المحبة لله حقيقةً.

وَلِهَذَا كَانَت محبَّة هَذِه الْأمة لله أكمل من محبَّة من قبلهَا وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم.

وأكمل هَذِه الْأمة فِي ذَلِك هم أَصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَمن كَانَ بهم أشبه كَانَ ذَلِك فِيهِ أكمل.

الشَّرْح

○ قوله: (وَلِهَذَا كَانَت محبَّة هَذِه الْأمة لله أكمل من محبَّة من قبلهَا): بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها من الأمم وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم من الأمم، وما ذاك إلا لأن نبي هذه الأمة أفضل الأنبياء، وهذه الأمة أفضل الأمم.

فنبينا محمد ﷺ أكمل الناس محبة له، وهو أكملهم عبودية له، وهذه الأمة أكمل محبة لله وأكملهم عبودية لله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن اتباع الشريعة والجهاد في سبيل الله من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه وبين من يدَّعي المحبة، وقد سبق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، تسمى آية المحنة، فقد ادَّعى قوماً محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية.

وبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن إبراهيم وآل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام هم أئمة الحنفاء ونبينا ﷺ من آل إبراهيم، وأن فرعون وآل فرعون هم أئمة الكفر والضلال، ومنهم الاتحادية الذين يقولون إن الوجود واحد، وهم على دين فرعون وعلى مذهب فرعون.

فَأَيْنَ هَذَا من قوم يدعونَ الْمحبَّة؟

وَفِي كَلَام بعض الشُّيُوخ: الْمحبَّة نَار تحرق فِي الْقلب مَا سوى مُرَاد المحبوب.

وَأَرَادُوا أَن الْكَوْن كُله قد أَرَادَ الله وجوده فظنوا أَن كَمَال الْمحبَّة أَن يحب العَبْد كل شَيْء حَتَّى الْكفْر والفسوق والعصيان وَلَا يُمكن لأحد أَن يحب كل مَوْجُود بل يحب مَا يلائمه وينفعه وَيبغض مَا يُنَافِيهِ ويضره وَلَكِن استفادوا بِهَذَا الضلال اتِّبَاع أهوائهم ثمَّ زادهم انغماسا فِي أهوائهم وشهواتهم فهم يحبونَ مَا يهوونه كالصور والرئاسة وفضول المَال والبدع المضلة زاعمين أَن هَذَا من محبَّة الله وَمن محبَّة الله بغض مَا يبغضه الله وَرَسُوله وَجِهَاد أَهله بِالنَّفسِ وَالْمَال.

وأصل ضلالهم: أَن هَذَا الْقَائِل الَّذِي قَالَ: إِن الْمحبَّة نَار تحرق مَا سوى مُرَاد المحبوب، قصد بِمُرَاد الله تَعَالَى: الْإِرَادَة الكونية فِي كل الموجودات.

أما لَو قَالَ مُؤمن بِاللَّه وَكتبه وَرُسُله، هَذِه الْمقَالة، فَإِنَّهُ يقْصد الْإِرَادَة الدِّينِيَّة الشَّرْعِيَّة الَّتِي هِيَ بِمَعْنى محبته وَرضَاهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: تحرق من الْقلب مَا سوى المحبوب لله. وَهَذَا معنى صَحِيح فَإِن من تَمام الْحبّ لله أَلا يحب إِلَّا مَا يُحِبهُ الله فَإِذا أَحْبَبْت مَا لَا يحب كَانَت الْمحبَّة نَاقِصَة. وَأما قَضَاؤُهُ وَقدره فَهُوَ يبغضه ويكرهه ويسخطه وَينْهى عَنهُ فَإِن لم أوافقه فِي بغضه وكراهته وَسخطه لم أكن محبا لَهُ بل محبا لما يبغضه.

الشَّرْح

○ قوله: (فَأَيْنَ هَذَا من قوم يدعونَ الْمحبَّة؟): يعني يدعون المحبة من دون عمل؛ من اتباع لرسول الله ﷺ، وجهاد في سبيل الله، وعلى

ذلك فهذه الدعاوي لا تنفع فلابد لكل دعوى من دليل، ولهذا من ادعى محبة الله فليعمل بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] لأنها تُسمى آية المحنة أي الامتحان والاختبار، فإذا قال إنسان: أنا أحب الله، نقول له عندنا امتحان نختبرك به بأن ننتظر عملك إن كنت متبعاً للرسول فأنت صادق وإن كنت لا تتبع الرسول فأنت كاذب في دعواك.

○ وقوله: (وَفِي كَلَام بعض الشُّيُوخ: الْمحبَّة نَار تحرق فِي الْقلب مَا سوى مُرَاد المحبوب): هذه الكلمة صدرت من بعض شيوخ الصوفية، **ووجه الغلط في ذلك**: أنه أراد بهذه الإرادة الإرادة الكونية، القدرية وكل شيء في الوجود قد أراده الله كونه قدراً لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، لكن الأشياء التي أرادها كونا وقدراً بعضها يحبها وبعضها يكرهها، إذ هناك إرادة ثانية تسمى الإرادة الدينية الشرعية، فالذي وقع في الكون من الكفر والفسوق والعصيان وقع كونا وقدراً، لكن الله لا يرضاه دينا وشرعاً فهو مراد بالإرادة الكونية لما في ذلك لله من الحكم والأسرار لكنه ليس مراداً للإرادة الدينية الشرعية.

فهؤلاء الشيوخ من الصوفية ظنوا أن المراد بالإرادة الكونية القدرية محبوب لله مطلقاً فلما رأوا أن الكفر والفسوق والعصيان كلها وقعت قالوا: هذه مرادة لله محبوبة فلم يفرقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية، وهذا وجه الغلط.

والصواب: أن يُفرّق بين الإرادتين، فهناك إرادتان إرادة كونية قدرية هذه لا يتخلف مرادها، بل يقع بها كل شيء أراده الله، **فكل شيء وقع في هذا الوجود فهو داخل تحت الإرادة الكونية لكن بعد ذلك ينقسم إلى قسمين**:

١ ـ قسم مراد لله بالإرادة الدينية الشرعية، وهو ما أمر به الله ورضي به وأحبه شرعاً

٢ ـ قسم ليس مراداً لله.

فلو قال هذا القائل: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، وأراد الإرادة الدينية فالعبارة صحيحة،لكن إذا أراد الإرادة الكونية فتكون غلط.

○ وقوله: (وأصل ضلالهم: أَن هَذَا الْقَائِل الَّذِي قَالَ: إِن الْمحبَّة نَار تحرق مَا سوى مُرَاد المحبوب، قصد بِمُرَاد الله تَعَالَى: الْإِرَادَة الكونية فِي كل الموجودات) وقع في بعض النسخ: (وأصل ضلالهم: أَن هَذَا الْقَائِل الَّذِي قَالَ: إِن الْمحبَّة نَار تحرق مَا سوى مُرَاد المحبوب، قصد بِمُرَاد الله تَعَالَى: الْإِرَادَة الدينية الشرعية) وهذا غلط لايستقيم به الكلام، وقد كنت علقت عليها في النسخة الثانية ـ التي أثبتت العبارة الخطأ ـ : [لعل صواب العبارة: (وأصل هذا الكلام)].

فما في النسخة الثانية: تُغيّر أصل العبارة، **المقصود**: أن أصل الضلال كونه يريد الإرادة الكونية، أما لو أراد الإرادة الدينية الشرعية تكون العبارة سليمة.

فاتباع هَذِه الشَّرِيعَة وَالْقِيَام بِالْجِهَادِ بهَا من أعظم الفروق بَين أهل محبَّة الله وأوليائه الَّذين يُحِبهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَبَين من يَدعِي محبَّة الله نَاظرا إِلَى عُمُوم ربوبيته أَو مُتبعا لبَعض الْبدع الْمُخَالفَة لشريعته فَإِن دَعْوَى هَذِه الْمحبَّة لله من جنس دَعْوَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى الْمحبَّة لله.

بل قد تكون دَعْوَى هَؤُلَاءِ شرا من دَعْوَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى لما فيهم من النِّفَاق الَّذين هم بِهِ فِي الدَّرك الْأَسْفَل من النَّار كَمَا قد تكون دَعْوَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى شرا من دَعوَاهُم إِذا لم يصلوا إِلَى مثل كفرهم.

وَفِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل من التَّرْغِيب فِي محبَّة الله مَا هم متفقون عَلَيْهِ حَتَّى إِن ذَلِك عِنْدهم أعظم وَصَايَا الناموس. فَفِي الْإِنْجِيل أعظم وَصَايَا الْمَسِيح: (أَن تحب الله بِكُل قَلْبك وعقلك ونفسك).

وَالنَّصَارَى يدعونَ قيامهم بِهَذِهِ الْمحبَّة وَأَن مَا هم فِيهِ من الزّهْد وَالْعِبَادَة هُوَ من ذَلِك وهم بُرَآء من محبَّة الله إِذْ لم يتبعوا مَا أحبه بل ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾ [محَمَّد: ٢٨].

الشَّرْح

○ قوله: (فاتباع هَذِه الشَّرِيعَة وَالْقِيَام بِالْجِهَادِ بهَا من أعظم الفروق...) **يعني**: من يدعي محبة الله نظراً إلى عموم الربوبية من جنس دعوة اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، هذه دعوة ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ﴾ قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المَائدة: ١٨] إذا كنتم أحباب الله فاتبعو شرعه واتبعوا رسوله.

○ وقوله: (بل قد تكون دَعْوَى هَؤُلَاءِ شرا من دَعْوَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى..): المعنى: أن دعوى بعض الصوفية الذين يدعون محبة الله وهم منحرفون في العبادة ولا يتبعون شرع الله من جنس دعوى اليهود

أنهم أحباب الله ولا يتبعون رسول الله، **لكن أيهم أشر هل الصوفية أشر من اليهود والنصارى أم اليهود والنصارى أشر؟**

المؤلف فصّل:

- إذا كان هؤلاء الصوفية الذين يدعون محبة الله منافقون وصلوا إلى الشرك الأكبر،فيكونون أشر من اليهود والنصارى.
- أما إذا كانوا لم يصلوا إلى درجة الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم.

وبعض الصوفية منافق زنديق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار فيكون شراً من اليهود والنصارى، لأن المنافقين في دركة في النار تحت دركة اليهود والنصارى فيكون أشر، أما إذا كان نفاقهم لا يصل إلى حد الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم، وهذا من إنصاف المؤلف رحمه الله تعالى.

وَالله يبغض الْكَافرين ويمقتهم ويلعنهم وَهُوَ سُبْحَانَهُ يحب من يُحِبهُ لَا يُمكن أَن يكون العَبْد محبا لله وَالله تَعَالَى غير محب لَهُ بل بِقدر محبَّة العَبْد لرَبه يكون حب الله لَهُ وَإِن كَانَ جَزَاء الله لعَبْدِهِ أعظم كَمَا فِي الحَدِيث الصَّحِيح الإلهي عَن الله تَعَالَى أَنه قَالَ: «من تقرب إِلَيّ شبْرًا تقربت إِلَيْهِ ذِرَاعا وَمن تقرب إِلَيّ ذِرَاعا تقربت إِلَيْهِ باعا وَمن أَتَانِي يمشي أَتَيْته هرولة»(١).

وَقد أخبر الله سُبْحَانَهُ أَنه يحب الْمُتَّقِينَ والمحسنين وَالصَّابِرِينَ وَيُحب التوابين وَيُحب المتطهرين بل هُوَ يحب من فعل مَا أَمر بِهِ من وَاجِب ومستحب كَمَا فِي الحَدِيث الصَّحِيح: «لَا يزَال عَبدِي يتَقرَّب إِلَيّ بالنوافل حَتَّى أحبه فَإِذا أحببته كنت سَمعه الَّذِي يسمع بِهِ وبصره الَّذِي يبصر بِهِ»(٢) الحَدِيث.

وَكثير من المخطئين الَّذين ابتدعوا أَشْيَاء فِي الزّهْد وَالْعِبَادَة وَقَعُوا فِي بعض مَا وَقع فِيهِ النَّصَارَى من دَعْوَى الْمحبَّة لله مَعَ مُخَالفَة شَرِيعَته وَترك المجاهدة فِي سَبيله وَنَحْو ذَلِك ويتمسكون فِي الدَّين الَّذِي يَتَقَرَّبُون بِهِ إِلَى الله بِنَحْوِ مَا تمسك بِهِ النَّصَارَى من الْكَلَام الْمُتَشَابه والحكايات الَّتِي لَا يعرف صدق قَائِلهَا وَلَو صدق لم يكن قَائِلهَا مَعْصُوما فيجعلون متبوعيهم شارعين لَهُم دينا كَمَا جعل النَّصَارَى قسيسيهم وَرُهْبَانهمْ شارعين لَهُم دينا ثمَّ إِنَّهُم ينتقصون الْعُبُودِيَّة وَيدعونَ أَن الْخَاصَّة يتعدونها كَمَا يَدعِي النَّصَارَى فِي الْمَسِيح والقساوسة ويثبتون لخاصتهم من الْمُشَاركَة فِي الله من جنس مَا تثبته النَّصَارَى فِي الْمَسِيح وَأمه

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار(٢٦٧٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

والقسيسين والرهبان إِلَى أَنْوَاع أخر يطول شرحها فِي هَذَا الْموضع.

الشَّرْح

○ قوله: (وَقد أخبر الله سُبْحَانَهُ أَنه يحب الْمُتَّقِينَ والمحسنين وَالصَّابِرِينَ): جاء في بعض النسخ: [يحب المتقين المحسنين] وهذا خطأ، فقد أخبر الله أنه يحب المحسنين، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، وأنه يحب المتقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التّوبَة: ٤].

○ وقوله: (وكثير من المخطئين الذين ابتدعوا أشياء في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى...) يعني: أن بعض الصوفية يشابهون النصارى في أن كلاً منهم يدعي محبة الله ووجه الشبه بينهما أن كلاً من النصارى والصوفية يدعي محبة الله مع كونه يخالف شرع الله ويترك الجهاد في سبيل الله وتمسك بعض الصوفية بما تمسك به النصارى من كلام متشابه ومن حكايات لا تعرف، والصوفية عندهم حكايات، ولو صدق هذا القائل فليس هو بمعصوم مثل الأنبياء، يحكى عن فلان كذا وكذا عبد الله الصالح فعل كذا وكذا عبد الله الصالح حصل له كرامات، فيجعلون متبوعيهم مشرعين لهم من دون الله، كما أن النصارى يجعلون قسيسهم كذلك شارعين لهم أشياء يتعدون بها شريعة الله.

وَإِنَّمَا الدَّين الْحق هُوَ تَحْقِيق الْعُبُودِيَّة لله بِكُل وَجه وَهُوَ تَحْقِيق محبَّة الله بِكُل دَرَجَة وبقدر تَكْمِيل الْعُبُودِيَّة تكمل محبَّة العَبْد لرَبه وتكمل محبَّة الرب لعَبْدِهِ وبقدر نقص هَذَا يكون نقص هَذَا وَكلما كَانَ فِي الْقلب حب لغير الله كَانَت فِيهِ عبودية لغير الله بِحَسب ذَلِك وَكلما كَانَ فِيهِ عبودية لغير الله كَانَ فِيهِ حب لغير الله بِحَسب ذَلِك.

وكل محبَّة لَا تكون لله فَهِيَ بَاطِلَة وكل عمل لَا يُرَاد بِهِ وَجه الله فَهُوَ بَاطِل فـ «الدُّنْيَا ملعونة مَلْعُون مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لله»[1] وَلَا يكون لله إِلَّا مَا أحبه الله وَرَسُوله وَهُوَ الْمَشْرُوع.

فَكل عمل أُرِيد بِهِ غير الله لم يكن لله وكل عمل لَا يُوَافق شرع الله لم يكن لله بل لَا يكون لله إِلَّا مَا جمع الوصفين: أَن يكون لله وَأَن يكون مُوَافقا لمحبة الله وَرَسُوله.

الشَّرْح

○ قوله: (وَإِنَّمَا الدَّين الْحق هُوَ تَحْقِيق الْعُبُودِيَّة لله بِكُل وَجه):
هكذا يكون الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه، وتحقيق العبودية لله هو تحقيق محبة الله، فمن حقق عبودية الله فقد حقق محبة الله، ومن نقص تحقيقه للعبودية فإنها تنقص محبته لله، فبقدر تكميله للعبودية تكون محبة الله، وبقدر نقصه من العبودية تنقص محبته لله وهكذا، وبهذا يتبين أن دعوى محبة الله من غير ذلك لا يعوّل عليها ولا تُفيد صاحبَها، إذ لا بد من الدليل على الدعوى، والدليل تحقيق عبودية الله.

---

(١) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»، أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد (٢٣٢٢)، وابن ماجه في سنن، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب .ا.هـ

○ وقوله: (إِلَّا مَا جمع الوصفين: أَن يكون لله وَأَن يكون مُوَافقا لمحبة الله وَرَسُوله): وهذا الوصفان هما أصل الدين، وهما أن يكون لله. وهذا هو الإخلاص لله وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله، وهذا الأصل الثاني، وهو أن يكون عمله موافقاً لشرع الله وهو تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

فلا يصلح أي عمل إلا بهذين الأمرين، أن يكون العمل خالصاً لله، وأن يكون موافقاً لشرع الله، ولا يصح إلا بهما.

والأدلة على هذا كثيرة كما سيذكر المؤلف.

وَهُوَ الْوَاجِب وَالْمُسْتَحب كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، فَلَا بُد من الْعَمَل الصَّالح وَهُوَ الْوَاجِب وَالْمُسْتَحب وَلَا بُد أَن يكون خَالِصا لوجه الله تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢].

وَقَالَ النَّبِي ﷺ: «من عمل عملا لَيْسَ عَلَيْهِ أمرنَا فَهُوَ رد»[(١)] وَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لكل امْرِئ مَا نوى فَمن كَانَت هجرته إِلَى الله وَرَسُوله فَهجرَته إِلَى الله وَرَسُوله وَمن كَانَت هجرته لدُنْيَا يُصِيبهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجهَا فَهجرَته إِلَى مَا هَاجر إِلَيْهِ»[(٢)].

وَهَذَا الأَصْل هُوَ أصل الدَّين وبحسب تَحْقِيقه يكون تَحْقِيق الدَّين وَبِه أرسل الله الرُّسُل وَأنزل الْكتب وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُول وَعَلِيهِ جَاهد وَبِه أَمر وَفِيه رغب وَهُوَ قطب الدَّين الَّذِي تَدور عَلَيْهِ رحاه.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهُوَ الْوَاجِب وَالْمُسْتَحب): ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] هو الموافق لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] وهذا هو الإخلاص لله.

○ وقوله: (فلا بد من العمل الصالح...): الآية فيها الأصلان: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا إخلاص العمل لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا الموافق لشرع الله، فالعمل الحسن هو الموافق لشرع الله.

○ وقوله: (وقال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»: هذا يقرر الأصل الثاني وهو تحقيق شهادة أن محمد رسول الله،

(١) صحيح مسلم، كتاب الأقضية (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي (١)، ومسلم، كتاب الإمارة (١٩٠٧) عن عمر رضي الله عنه.

وهو أن يكون العمل موافقاً لشرع الله، وفي الصحيحين: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(١)].

○ وقوله: (وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ»): هذا أيضاً يحقق الأصل الأول وهو: أن يكون العمل لله «**إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ**»، فالأعمال تنبني على النيات فإن كانت النية خالصة لله صح العمل.

○ وقوله: (وَهَذَا الأَصْل هُوَ أصل الدِّين): وهذا أصل الملة، وهو: أن يكون العمل خالصاً لله، ثم أيضا لابد أن يكون موافقاً لشرع الله حتى لا يكون فيه بدع وأهواء.

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، كتاب الأقضية (١٧١٨).

والشرك غَالب على النُّفُوس وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: هُوَ فِي هَذِه الْأمة «أخْفى من دَبِيب النَّمْل»(١) وَفِي حَدِيث آخر: قَالَ أَبُو بكر: يَا رَسُول الله كَيفَ ننجو مِنْهُ وَهُوَ أخْفى من دَبِيب النَّمْل؟ فَقَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: «أعلمك كلمة إِذا قلتهَا نجوت من دقه وجله قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك أَن أشرك بك وَأَنا أعلم وأستغفرك لما لَا أعلم»(٢) وَكَانَ عمر يَقُول فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُله صَالحا واجعله لوجهك خَالِصا وَلَا تجْعَل لأحد فِيهِ شَيْئا)(٣).

الشَّرْح

بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله وأن كل عمل لا يوافق شرع الله فإنه لا يكون لله، ولا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله.

ثم بين رَحِمَهُ اللَّهُ أن الشرك غالب على النفوس وكما في الحديث: أنه أخفى من دبيب النمل، وفي الحديث بيان أن الشرك في هذه الامة كثير وخفي.

وقد ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، قال: (﴿أَندَادًا﴾ **هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانَةُ، وَحَيَاتِي. وَيَقُولُ: لَوْلا كَلْبُهُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ**

(١) انظر: الأدب المفرد للبخاري (٧١٦)، والمسند للإمام أحمد (١٩٦٠٦)، والمصنف لابن أبي شيبة (٦/ ٧٠)، والمسند لأبي يعلى (٥٨)، وحلية الأولياء (٩/ ٢٥٣)، وغيرهم.
(٢) الأدب المفرد للبخاري (٧١٦)، مسند أبي يعلى (٥٨)، الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٧٢٣)، الأحاديث المختارة للمقدسي (٦٣).
(٣) الزهد للإمام أحمد (٦١٧).

لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا اللَّهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلان، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ) رواه ابن أبي حاتم[(١)].

ومن الشرك الخفي: اتباع الهوى مثل محبة المال ومحبة الجاه ومحبة الصور إلى غير ذلك.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٢) برقم (٢٢٩) وإسناده لا بأس به.

وَكَثِيرًا مَا يخالط النُّفُوس من الشَّهَوَات الْخفية مَا يفْسد عَلَيْهَا تَحْقِيق محبتها لله وعبوديتها لَهُ وإخلاص دينهَا لَهُ كَمَا قَالَ شَدَّاد بن أَوْس: يَا نعايا الْعَرَب يَا نعايا الْعَرَب إِن أخوف مَا أَخَاف عَلَيْكُم الرِّيَاء والشهوة الْخفية[١].

وَقيل لأبي دَاوُد السجسْتانِي: وَمَا الشَّهْوَة الْخفية؟ قَالَ: حب الرِّئَاسَة[٢].

وَعَن كَعْب بن مَالك عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه قَالَ: «مَا ذئبان جائعان أرسلا فِي زريبة غنم بأفسد لَهَا من حرص الْمَرْء على المَال والشرف لدينِهِ»[٣] قَالَ التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حسن صَحِيح.

فَبين صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: أَن الْحِرْص على المَال والشرف فِي إِفْسَاد الدَّين لَا ينقص عَن إِفْسَاد الذئبين الجائعين لزريبة الْغنم.

الشَّرْح

يُبيِّن النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث أن حرص الإنسان على المال وعلى الجاه والشرف والمنصب يفسد دينه كما يفسد الذئبان الجائعان اللذان أُرسلا في زريبة غنم، فإنك لو أرسلت ذئبين جائعين على حظيرة غنم، فإنهما لا يتركانها بل لابد أن يشقا بطونها كلها يأكلان ما يأكلان والباقي يتركانه فاسدًا، فالذئب من طبيعته الإفساد، فكيف إذا كانا ذئبين

(١) رواه موقوفا عن شداد بن أوس ابن المبارك في الزهد (١١١٤)، وأبو داود في الزهد (٣٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٢-١٥٣)، وقد رواه مرفوعا عن النبي ﷺ البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٢٢)، والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ٣٧١)، وكأن شيخ الإسلام صحح الموقوف لاختياره له؛ والله أعلم.

(٢) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١٢/ ٢٦٩).

(٣) سنن الترمذي، كتاب الزهد (٢٣٧٦)، المسند للإمام أحمد (١٥٧٨٤)، سنن النسائي الكبرى (١٠/ ٣٨٦)، صحيح ابن حبان (٣٢٢٨).

وكانا جائعين قد مضى عليهما مدة لم يأكلا ثم أطلقتهما في زريبة غنم، فإنهما لابد أن يأتيا على هذه الغنم أكلًا وإفسادًا، فحرصُ الإنسان على المال وحرصه على الشرف والجاه والمنصب يفسد دينه مثل ما يفسد هذان الذئبان الجائعان الغنم إذا أُرسلا لزريبة، **والزيبة والحظيرة هي**: المكان الذي تكون فيه الغنم، **والحديث فيه تقديم وتأخير، والمعنى**: ما ذئبان جائعان أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف، أي: أن **الإفساد من حرص المرء على المال والشرف والجاه لدين الرجل أفسد من إفساد هذين الذئبين.**

وَذَلِكَ بيّن فَإِن الدَّين السَّلِيم لَا يكون فِيهِ هَذَا الْحِرْص وَذَلِكَ أَن الْقلب إِذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته لَهُ لم يكن شَيْء أحب إِلَيْهِ من ذَلِك حَتَّى يقدمهُ عَلَيْهِ وَبِذَلِك يصرف عَن أهل الْإِخْلَاص لله السوء والفحشاء كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف: ٢٤].

فَإِن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عَن عبوديته لغيره وَمن حلاوة محبته لله مَا يمنعهُ عَن محبَّة غَيره إِذْ لَيْسَ عِنْد الْقلب السَّلِيم أحلى وَلَا ألذ وَلَا أطيب وَلَا أسر وَلَا أنعم من حلاوة الْإِيمَان المتضمن عبوديته لله ومحبته لَهُ وإخلاص الدَّين لَهُ وَذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب الْقلب إِلَى الله فَيصير الْقلب منيبا إِلَى الله خَائفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [قَ: ٣٣] إِذْ الْمُحب يخَاف من زَوَال مَطْلُوبه أَو حُصُول مرغوبه فَلَا يكون عبد الله ومحبه إِلَّا بَين خوف ورجاء كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسرَاء: ٥٧].

الشَّرْح

○ قوله: (وَذَلِكَ بيّن فَإِن الدَّين السَّلِيم لَا يكون فِيهِ هَذَا الْحِرْص): جاء في النسخة الثانية: (وذلك يبيّن أن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص) وهو أوضح.

○ وقوله: (فلا يكون عبد الله ومحبه، إلا بين خوف ورجاء): هذه المحبة الصادقة يلزم منها الخوف والرجاء، فالإنسان يعبد الله بالمحبة والخوف والرجاء.

أما ما يقوله بعض الزنادقة من الصوفية: أعبد الله بالحب وحده،

فهذا خطأ، وكذلك بعض المرجئة يعبد الله بالرجاء، وبعض الخوارج يعبد الله بالخوف، **ولا يكون عبد الله على الحقيقة حتى يكون محبًا لله خائفًا راجيًا**، والخوف والرجاء لابد منهما، وكل محب فهو خائف، وكل خائف فهو راج، وكل راج فهو خائف؛ **لأن المحب يخاف زوال مطلوبه وحصول مرغوبه**، فلابد له من الأمرين:

كما قال الله تعالى عن عباده ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وكما في قوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: ١٦].

وكما في أول سورة الفاتحة فيها المحبة والخوف والرجاء، وفي أركان العبادة:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] هذا هو الركن الأول وهو المحبة.

- ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفَاتِحَة: ٣] هذا الركن الثاني وهو الرجاء، ترجو رحمة الله من الرحمن.

- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] وهذا الركن الثالث وهو الخوف، والتخوف من يوم القيامة.

- ثم بعد ذلك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، فهذه أركان العبادة كلها ذُكرت في مطلع سورة الفاتحة.

وَإِذا كَانَ العَبْد مخلصا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إِلَيْهِ فَيَنْصَرِف عَنهُ مَا يضاد ذَلِك من السوء والفحشاء وَيخَاف من حُصُول ضد ذَلِك بِخِلَاف الْقلب الَّذِي لم يخلص لله فَإِن فِيهِ طلبا وَإِرَادَة وحبا مُطلقًا فيهوى مَا يسنح لَهُ ويتشبث بِمَا يهواه كالغصن أَي نسيم مر بِهِ عطفه وأماله فَتَارَة تجتذبه الصُّور الْمُحرمَة وَغير الْمُحرمَة فَيبقى أَسِيرًا عبدا لمن لَو اتَّخذهُ هُوَ عبدا لَهُ لَكَانَ ذَلِك عَيْبا ونقصا وذما.

وَتارَة يجتذبه الشّرف والرئاسة فترضيه الْكَلِمَة وتغضبه الْكَلِمَة ويستعبده من يثني عَلَيْهِ وَلَو بِالْبَاطِلِ ويعادي من يذمه وَلَو بِالْحَقِّ.

وَتارَة يستعبده الدِّرْهَم وَالدِّينَار وأمثال ذَلِك من الْأُمُور الَّتِي تستعبد الْقُلُوب والقلوب تهواها فيتخذ إِلَهًا هَوَاهُ وَيتبع هَوَاهُ بِغَيْر هدى من الله.

وَمن لم يكن خَالِصا لله عبدا لَهُ قد صَار قلبه معبدًا لرَبه وَحده لَا شريك لَهُ بِحَيْثُ يكون الله أحب إِلَيْهِ من كل مَا سواهُ وَيكون ذليلا لَهُ خاضعا وَإِلَّا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشَّيَاطِين فَكَانَ من الغاوين إِخْوَان الشَّيَاطِين وَصَارَ فِيهِ من السوء والفحشاء مَا لَا يُعلمهُ إِلَّا الله، وَهَذَا أَمر ضَرُورِيّ لَا حِيلَة فِيهِ.

فالقلب إِن لم يكن حَنِيفا مُقبلا على الله معرضًا عَمَّا سواهُ وَإِلَّا كَانَ مُشْركًا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠-٣٢].

الشَّرْح

○ قوله: (بِخِلَاف الْقلب الَّذِي لم يخلص لله): **سبب ذلك**: أن هذا القلب الذي لم يخلص لله حصل فيه نقص عظيم، فلما حصل فيه

نقص حصلت هذه العبودية، فالعبودية لغير الله تُنقص الإخلاص، **فإذا نقص الإخلاص حل محله العبودية لغير الله**، عبودية للصور، وعبودية للشرف، وعبودية للدرهم والدينار، وعبودية لهوى، **وإذا أخلص الإنسان عمله لله لم يحصل له نقص في العبودية لله.**

○ وقوله: (وَمن لم يكن خَالِصا لله عبدا لَهُ) في النسخة الثانية: (ومن لم يكن مخلصا لله، عبداً له) وهو أوضح.

والمعنى: أن من لم يكن قلبه معبّدًا لله صار قلبه معبّدًا لغير الله من المخلوقات ولابد، **فالقلب لا يكون فيه فراغ؛ إما أن فيه عبودية لله أو عبودية لغير الله**، فإذا كانت العبودية لله كاملة لم يكن فيها محل لعبودية غير الله، وإذا كانت العبودية لله ناقصة حل محلها عبودية لغير الله، وإذا كان القلب خال من عبودية الله امتلأ بعبودية الله كالمشرك؛ خلا قلبه من عبودية الله فحّل محلّها عبودية غير الله، حتى ولو عبد الله وهو يعبد غيره فلا يُفيده.

والناس في هذا يتفاوتون تفاوتا عظيماً على حسب إخلاصهم وعلى حسب أعمالهم وعلى حسب الشرك الذي يحل في قلوبهم، والمخلصون الذين أخلصوا لله هؤلاء ليس فيهم عبودية لغير الله.

والمراد بالشرك هنا: الشرك الأصغر والمعاصي وغيرها، ليس المراد الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجامع التوحيد، فإذا وجد الوحيد والإخلاص زال الشرك، وإذا وجد الشرك الأكبر زال التوحيد والإخلاص، فلا يجتمعان في القلب، ولكن يجتمع في القلب عبودية لله وعبودية لغير الله، لكن فيما هو دون الشرك الأكبر.

فالشرك الأكبر لا يجتمع في القلب مع التوحيد والإخلاص، بل هما ضدان إذا وجد أحدهما زال الآخر، فلا يجتمعان: الشرك الأكبر مع التوحيد، لكن الشرك الأصغر مع التوحيد أو المعاصي مع التوحيد قد يجتمعان.

○ وقوله: (فالقلب إن لم يكن حَنِيفا مُقبلا على الله معرضًا عَمَّا سواهُ وَإِلَّا كَانَ مُشْرِكًا): فهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فلا يمكن أن يكون القلب فارغاً، فمن لم يكن حنيفاً مقبلا على الله معرضا عما سواه صار مشركًا، وليس هناك بيْن بيْن، إلا كما سبق أن المعاصي والشرك الأصغر قد تجتمع في القلب مع توحيد الله، لكنها تُضعِف التوحيد والإخلاص.

وَقد جعل الله سُبْحَانَهُ إِبْرَاهِيم وَآل إِبْرَاهِيم أَئِمَّة لهَؤُلَاء الحنفاء المخلصين أهل محبَّة الله وعبادته وإخلاص الدِّين لَهُ كَمَا جعل فِرْعَوْن وَآل فِرْعَوْن أَئِمَّة الْمُشْركين المتبعين أهواءهم قَالَ تَعَالَى فِي إِبْرَاهِيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

وَقَالَ فِي فِرْعَوْن وَقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١-٤٢]، **وَلِهَذَا يصير أَتبَاع فِرْعَوْن أَولا إِلَى أَلا يميزوا بَين مَا يُحِبهُ الله ويرضاه وَبَين مَا قدر الله وقضاه بل ينظرُونَ إِلَى الْمَشِيئَة الْمُطلقَة الشاملة ثمَّ فِي آخر الْأَمر لَا يميزون بَين الْخَالِق والمخلوق بل يجْعَلُونَ وجود هَذَا وجود هَذَا.**

الشَّرْح

○ قوله: (وَقد جعل الله سُبْحَانَهُ إِبْرَاهِيم وَآل إِبْرَاهِيم أَئِمَّة لهَؤُلَاء الحنفاء المخلصين): ونبينا محمد ﷺ من آل إبراهيم، فآل إبراهيم، مقدَّمهم محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ثم سائر الأنبياء كلهم أئمة للناس.

قوله تعالى: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾): أي: أئمة هدى.

قوله تعالى: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾): أي: أئمة ضلال، فإبراهيم وآل إبراهيم أئمة هدى، وفرعون وآل فرعون أئمة ضلال.

○ وقوله: (وَلِهَذَا يصير أَتبَاع فِرْعَوْن أَولا إِلَى أَلا يميزوا...): هؤلاء أتباع فرعون فهم أولا لا يميزون بين القدر وبين الشرع، لا

يميزون بين ما قدره الله وما شرعه الله، أي: لا يميزون بين القدر وبين الشريعة، فيقولون: كل ما قدره الله من الزنا ومن السرقة وغيرها يحبه ويرضاه، يقولون: هذه قدَّرها الله إذاً يحبها الله، لا فرق عندهم بين القدر وبين الشريعة أعرضوا عن الشريعة، ثم بعد ذلك في نهاية الأمر يصلون إلى أنهم لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، يقولون المخلوق هو الخالق والخالق هو المخلوق فكل شيء تراه هو الله لا يميزون، فيصلون إلى القول بوحدة الوجود الذي هو النهاية والغاية في الكفر ـ والعياذ بالله ـ.

وَيَقُول محققوهم: الشَّرِيعَة فِيهَا طَاعَة ومَعْصِيَة والحقيقة فِيهَا طَاعَة بِلا مَعْصِيَة، وَالتَّحْقِيق لَيْسَ فِيهِ طَاعَة وَلَا مَعْصِية. وَهَذَا تَحْقِيق مَذْهَب فِرْعَوْن وَقَومه الَّذين أَنْكَرُوا الْخَالِق وأنكروا تكليمه لعَبْدِهِ مُوسَى وَمَا أرْسلهُ بِهِ من الْأَمر وَالنَّهْي.

الشَّرْح

الصوفية يقسمون الناس إلى ثلاث طبقات:

١ ـ عامة.

٢ ـ خاصة.

٣ ـ خاصة خاصة.

الطبقة الأولى: **العامة**، هم أهل الشريعة عندهم طاعات ومعاص، ومن العامة عندهم: جميع الأنبياء والمرسلين يسمونهم عامة لأن عندهم طاعات ومعاص.

الطبقة الثانية: **الخاصة**، وهم أهل الحقيقة، وهؤلاء ليس عندهم معاص كل ما يصدر منهم فهو طاعات ولو صدر الزنا يكون طاعة أو السرقة تكون طاعة، أو شرب الخمر يكون طاعة، لا توجد المعاصي عندهم، ولكن المعاصي عند أهل الشريعة، أما أهل الحقيقة فلا؛ لأنهم ألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفات لله فصار كل ما يصدر من الواحد يعتبره طاعة حقاً كان أو باطلاً حتى الكفر ـ والعياذ بالله ـ.

الطبقة الثالثة: **خاصة الخاصة**، وليس عندهم معاص ولا طاعات لأنهم وصلوا إلى القول بوحدة الوجود، صار الوجود واحداً هو الرب وهو العبد فلا طاعات ولا معاصي، الطاعات والمعاصي عند أهل الشريعة، وأما أهل الحقيقة فليس عندهم إلا طاعات بدون معاصي، وأهل التحقيق هم خاصة الخاصة فليس عندهم لا طاعات ولا معاصي لأنهم وصلوا إلى القول بوحدة الوجود وهو غاية الكفر ـ نعوذ بالله ـ.

وَأما إِبْرَاهِيم وَآل إِبْرَاهِيم الحنفاء من الْأَنْبِيَاء وَالْمُؤمنِينَ بهم فهم يعلمُونَ أَنه لَا بُد من الْفرق بَين الْخَالِق والمخلوق وَلَا بُد من الْفرق بَين الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة وَأَن العَبْد كلما ازْدَادَ تَحْقِيقا لهَذَا الْفرق ازدادت محبته لله وعبوديته لَهُ وطاعته لَهُ وإعراضه عَن عبَادَة غَيره ومحبة غَيره وَطَاعَة غَيره.

وَهَؤُلَاء الْمُشْركُونَ الضالون يسوون بَين الله وَبَين خلقه والخليل يَقُول: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٥-٧٧].

ويتمسكون بالمتشابه من كَلَام الْمَشَايِخ كَمَا فعلت النَّصَارَى.

مِثَال ذَلِك: اسْم (الفناء) فَإِن الفناء ثَلَاثَة أَنْوَاع:

نوع للكاملين من الْأَنْبِيَاء والأولياء.

وَنَوع للقاصدين من الْأَوْلِيَاء وَالصَّالِحِينَ.

وَنَوع لِلْمُنَافِقين الْمُلْحِدِينَ المشبهين.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَؤُلَاء الْمُشْركُونَ الضالون يسوون بَين الله وَبَين خلقه): هم الاتحادية؛ يسوون بين الله وخلقه، ويجعلون الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق.

○ وقوله: (والخليل يَقُول: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾): فالخليل عليه الصلاة والسلام فرَّق وجعل ما يعبدون من دون الله عدواً له، وجعل محبوبه وخليله هو رب العالمين.

○ وقوله: (مِثَال ذَلِك: اسْم (الفناء)): بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة الفناء، وتقسيم الناس للفناء عند الصوفية.

وأصل كلمة الفناء في اللغة: إفناء احدى المادتين في الأخرى مثل الدقيق والطحين إذا وضعتها في الماء فنيت إحدى المادتين فإذا وضعت الدقيق في ماء ثم ذاب صار مادة أخرى، فأفنيت مادة في مادة.

واصطلح الصوفية على أن المراد بالفناء هو: تجريد شهود الحقيقة الكونية والغيبية عن شهود الكائنات.

فالحقيقة الكونية: ربوبية الله الشاملة لكل شيء ومشيئته النافذة.

والغيبة أي: يغيب ويتناسى ما سوى الله من المخلوقات فلا يشهدها، فليس لها وجود بل يتناسها حتى لا تشوش عليه، **ويجعلون الفناء ثلاثة أقسام**:

١ ـ الفناء عن وجود السوى.

٢ ـ الفناء عن شهود السوى.

٣ ـ الفناء عن مراد السوى.

فالأول: **الفناء عن وجود السوى**، أي: يفنى عن وجود ما سواه، **معناه**: أن ينكر ما سوى الله، وهذا هو مذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، يُفنون المخلوق في الخالق فليس هناك خالق ولا مخلوق بل الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، فهذا فناء الملاحدة.

والثاني: **الفناء عن شهود السوى**: **بمعنى**: أنه يغيب عن المخلوقات ولا ينظر إلا إلى الله؛ أي: يتناسى ما سوى الله من الشهود ولا يذكره؛ لئلا تشوِّشَ عليه طريقه وسلوكه إلى الله، **فهذا لا ينكر المخلوقات من الوجود، وإنما ينكرها من الشهود**؛ حتى لا تشوش عليه، وتحصل لبعضهم غيبة ويسمون هذا اصطلام وسكر ومحو وجمع، وهذا نوع للقاصرين.

وأما **الثالث**: **الفناء عن مراد السوى**، بمعنى أنه يلغى مراد نفسه لمراد الله، ويلغى ما يريده وترغبه نفسه لمراد الله، **بمعنى**: أنك تقدم مراد الله ومحبة الله على مراد نفسك، فتحب ما يحبه الله وتبغض ما

يبغضه الله وتوالي من يوالي الله وتعادي من يعادي الله وتعطي لله وتمنع لله وتخاف الله، فيكون دينك ومحبتك لله، فيقدم محبة الله على محبة النفس ويقدم مراد الله ومحبوبات الله على مراد النفس ومحبوبتها وشهواتها، وهذا فناء خواص الكاملين الأولياء والمقربين، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: إن كان هناك فناء صحيح فهو هذا الفناء.

ومن ذلك: كلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها فناء وبقاء، لا إله هذا نفي، إلا الله هذا بقاء، فأنت تُفني من لم يكن وهو المخلوق، وتُبقي من لم يزل وهو الله، بمعنى أنك تنفي عبودية ما سوى الله وتثبت العبودية لله.

فَأَما الأول: فَهُوَ الفناء عَن إِرَادَة مَا سوى الله.

بِحَيْثُ لَا يحب إِلَّا الله وَلَا يعبد إِلَّا إِيَّاه وَلَا يتوكل إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يطْلب من غَيره.

وَهُوَ الْمَعْنى الَّذِي يجب أَن يقْصد بقول الشَّيْخ أبي يزِيد حَيْثُ قَالَ: (أُرِيد ألّا أُرِيد إِلَّا مَا يُرِيد) أَي المُرَاد المحبوب المرضي وَهُوَ المُرَاد بالإرادة الدِّينِيَّة.

وَكَمَال العَبْد أَلا يُرِيد وَلَا يحب وَلَا يرضى إِلَّا مَا أَرَادَهُ الله ورضيه وأحبه وَهُوَ مَا أَمر بِهِ أَمر إِيجَاب أَو اسْتِحْبَاب وَلَا يحب إِلَّا مَا يُحِبهُ الله كالملائكة والأنبياء وَالصَّالِحِينَ وَهَذَا معنى قَوْلهم فِي قَوْله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩].

قَالُوا: هُوَ السَّلِيم مِمَّا سوى الله أَو مِمَّا سوى عبَادَة الله أَو مِمَّا سوى إِرَادَة الله أَو مِمَّا سوى محبَّة الله فَالْمَعْنى وَاحِد وَهَذَا الْمَعْنى إِن سمي فنَاء أَو لم يسم هُوَ أول الْإِسْلَام وَآخره وباطن الدَّين وَظَاهره.

وَأما النَّوْع الثَّانِي: فَهُوَ الفناء عَن شُهُود السوى.

الشَّرْح

○ قوله: (فأما الأول): هذا هو الفناء الصحيح، وتسميته فناء هذا على سبيل الإصطلاح.

○ وقوله: (وَهُوَ الْمَعْنى الَّذِي يجب أَن يقْصد بقول الشَّيْخ أبي يزِيد) أي: أريد أن يكون مرادي موافقاً لمراد الله ومحبتى موافقة لمحبة الله، وهذا المعنى صحيح، يقول المؤلف: يجب أن يُحمل كلام أبي يزيد البسطامي على هذا فيكون كلامه صحيحاً، فهو يقول أريد أن إلا أريد إلا ما يريده الرب، فالذي يريده الرب أنا أريده، والذي لا يريده الرب فأنا لا أريده، فالله تعالى يريد من العبد أن يخلص عمله لله، وأن

يؤدي فرائض الله، وأن ينتهي عن محارم الله، وأن يقف عند حدود الله، وأن يستقيم على دين الله، فأنا أريد هذا. والذي لا يريده الله لا أريده.

○ وقوله: (وَكَمَال العَبْد أَلا يُرِيد وَلَا يحب وَلَا يرضى إِلَّا مَا أَرَادَهُ الله ورضيه وأحبه) أي: أن كونك توافق الله في محبوباته ومرضياته هذا هو باطن الدين وظاهره وهو دين الإسلام، سواء سميته فناء أو لم تسمَّه فناء.

وَهَذَا يحصل لكثير من السالكين فَإِنَّهُم لفرط انجذاب قُلُوبهم إِلَى ذكر الله وعبادته ومحبته وَضعف قُلُوبهم عَن أَن تشهد غير مَا تعبد وَترى غير مَا تقصد لَا يخْطر بقلوبهم غير الله بل وَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا بِهِ كَمَا قيل فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ [القَصَص: ١٠].

قَالُوا فَارغًا من كل شَيْء إِلَّا من ذكر مُوسَى .

وَهَذَا كثيرا مَا يعرض لمن دهمه أَمر من الْأُمُور: إِمَّا حب، وَإِمَّا خوف، وَإِمَّا رَجَاء يبْقى قلبه منصرفا عَن كل شَيْء إِلَّا عَمَّا قد أحبه أَو خافه أَو طلبه بِحَيْثُ يكون عِنْد استغراقه فِي ذَلِك لَا يشْعر بِغَيْرِهِ.

فَإِذا قوي على صَاحب الفناء هَذَا فَإِنَّهُ يغيب بموجوده عَن وجوده وبمشهوده عَن شُهُوده وبمذكوره عَن ذكره وبمعروفه عَن مَعْرفَته حَتَّى يفنى من لم يكن وَهِي الْمَخْلُوقَات العَبْد فَمن سواهُ وَيبقى من لم يزل وَهُوَ الرب تَعَالَى وَالْمرَاد فناؤها فِي شُهُود العَبْد وَذكره وفناؤه عَن أَن يُدْرِكهَا أَو يشهدها وَإِذا قوي هَذَا ضعف الْمُحب حَتَّى يضطرب فِي تَمْيِيزه فقد يظنّ أَنه هُوَ محبوبه كَمَا يذكر أَن رجلا أَلْقى نَفسه فِي اليم فَأَلْقى محبه نَفسه خَلفه فَقَالَ: أَنا وَقعت فَمَا أوقعك خَلْفي؟ قَالَ: غبت بك عني فَظَنَنْت أَنَّك أَنِّي.

الشَّرْح

○ قوله: (وهذا يحصل لكثير من السالكين): بمعنى أن شهوده لله ينسيه ما سوى الله، فهو ينسى وجود الله بموجوده، وينسى شهود الله بمشهوده، وينسى ذكر الله بمذكوره، فينسى ذكر الله والعبادة لأن قلبه مشغول بشهود مذكوره وهو الله، وهذا كما سبق نوع للقاصرين.

○ وقوله: (وَإِذا قوي هَذَا ضعف الْمُحب حَتَّى يضطرب فِي تَمْيِيزه فقد يظنّ أَنه هُوَ محبوبه): قد يقوى شهود القلب وتقوى الغيبوبة عند بعضهم حتى ينسى كلَّ شيء فينسى نفسه ولا ينظر إلا إلى محبوبه حتى يظن أنه اتحد بمحبوبه وامتزج به، فهذا الذي ذكر المؤلف خبره من شدة ولَعِه بمحبوبه صار كأنه مغناطيس يجذبه، فسقط المحبوب في الماء فسقط المحب وراءه، فقال: أنا سقطت فما الذي أوقعك في الماء؟ قال: غبت بك عني فظننت أنك أني، أي: جذبتني فلا أستطيع فأنا في غيبوبة. فصار هذا ينجذب إليه فإذا قام قام، وإذا قعد قعد، وإذا سقط سقط؛ بسبب انجذاب القلب.

وَهَذَا الْموضع زلت فِيهِ أَقوام وظنوا أَنه اتِّحَاد وَأَن الْمُحب يتحد بالمحبوب حَتَّى لَا يكون بَينهمَا فرق فِي نفس وجودهما وَهَذَا غلط فَإِن الْخَالِق لَا يتحد بِهِ شَيْء أصلا بل لَا يُمكن يتحد شَيْء بِشَيْء إِلَّا إِذا استحالا وفسدت حَقِيقَة كل مِنْهُمَا وَحصل من اتحادهما أَمر ثَالِث لَا هُوَ هَذَا وَلَا هَذَا كَمَا إِذا اتَّحد المَاء وَاللَّبن وَالْمَاء وَالْخمر وَنَحْو ذَلِك وَلَكِن يتحد الْمُرَاد والمحبوب وَالْمرَاد وَالْمَكْرُوه ويتفقان فِي نوع الْإِرَادَة وَالْكَرَاهَة فيحب هَذَا مَا يحب هَذَا وَيبغض هَذَا مَا يبغض هَذَا ويرضى مَا يرضى ويسخط مَا يسْخط وَيكرهُ مَا يكره ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي.

وَهَذَا الفناء كُله فِيهِ نقص.

وأكابر الْأَوْلِيَاء ـ كَأبي بكر وَعمر والسابقين الْأَوَّلين من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار ـ لم يقعوا فِي هَذَا الفناء فضلا عَمَّن هُوَ فَوْقهم من الْأَنْبِيَاء وَإِنَّمَا وَقع شَيْء من هَذَا بعد الصَّحَابَة.

وَكَذَلِك كل مَا كَانَ من هَذَا النمط مِمَّا فِيهِ غيبَة الْعقل وَعدم التَّمْيِيز لما يرد على الْقلب من أَحْوَال الْإِيمَان.

فَإِن الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم كَانُوا أكمل وَأقوى وَأثبت فِي الْأَحْوَال الإيمانية من أَن تغيب عُقُولهمْ أَو يحصل لَهُم غشي أَو صعق أَو سكر أَو فنَاء أَو وَله أَو جُنُون.

وَإِنَّمَا كَانَ مبادئ هَذِه الْأُمُور فِي التَّابِعين من عباد الْبَصْرَة فَإِنَّهُ كَانَ فيهم من يغشى عَلَيْهِ إِذا سمع الْقُرْآن وَمِنْهُم من يَمُوت كَأبي جهير الضَّرِير وزرارة بن أوفى قَاضِي الْبَصْرَة.

وَكَذَلِك صَار فِي شُيُوخ الصُّوفِيَّة من يعرض لَهُ من الفناء وَالسكر

مَا يضعف مَعَه تَمْيِيزه حَتَّى يَقُول فِي تِلْكَ الْحَال من الْأَقْوَال مَا إِذا صَحا عرف أَنه غالط فِيهِ كَمَا يحْكى نَحْو ذَلِك عَن مثل أبي يزِيد وَأبي الْحُسَيْن النوري وَأبي بكر الشبلي وأمثالهم بِخِلَاف أبي سُلَيْمَان الدَّارَانِي ومعروف الْكَرْخِي والفضيل بن عِيَاض بل وَبِخِلَاف الْجُنَيْد وَأَمْثَاله مِمَّن كَانَت عُقُولهمْ وتمييزهم يصحبهم فِي أَحْوَالهم فَلَا يقعون فِي مثل هَذَا الفناء وَالسكر وَنَحْوه.

الشَّرْح

الفناء عن شهود السوى لم يحصل للأنبياء ولا للصحابة ولا لأكابر الأولياء؛ لأن المشاهدة هذه كلها نقص.

لكنه حصل لكثير من التابعين لما كان عندهم ضعف تمييز، حتى بلغت بهم الحال للغشيان والغيبوبة، أما الصحابة فعندهم ثبات وقوة وكما قال الله توجل قلوبهم عند ذكر الله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: ٢]، ولكن لا يحصل لهم غيبوبة، ولكن هذا النقص حصل لبعض العباد في البصرة إذا سمع آية سقط وأغمى عليه، فلا يكون عنده تمييز، وإن كان هذا بغير استطاعته واختياره لكن من كان عنده ثبات وتجلد فيقشعر جلده ويلين قلبه من ذكر الله فهذا أثبت ممن يغمى عليه ولا يميز.

بل الكمل تكون قُلُوبهم لَيْسَ فِيهَا سوى محبَّة الله وإرادته وعبادته وَعِنْدهم من سَعَة الْعلم والتمييز مَا يشْهدُونَ [بِهِ] الْأُمُور على مَا هِيَ عَلَيْهِ بل يشْهدُونَ الْمَخْلُوقَات قَائِمَة بِأَمْر الله مُدبرَة بمشيئته بل مستجيبة لَهُ قانتة لَهُ فَيكون لَهُم فِيهَا تبصرة وذكرى وَيكون مَا يشهدونه من ذَلِك مؤيدا وممدا لما فِي قُلُوبهم من إخلاص الدَّين وَتَجْرِيد التَّوْحِيد لَهُ وَالْعِبَادَة لَهُ وَحده لَا شريك لَهُ.

الشَّرْح

هذه طريقة الكُمَّل من عبادة الله، ومقدَّمُهم: الأنبياء والرسل، ثم الصحابة والتابعون، والأئمة والعلماء، كلهم لم يكن عندهم هذا الشهود الذي يقوله الصوفية؛ بل عقولهم سليمة ليس فيها سوى محبة الله وإرادته، ويميزون بين الخالق والمخلوق، ويشهدون الخالق على أنه الخالق المدبِّر، ويشهدون المخلوقات على أنها مخلوقة مدبَّرة مسبِّحة بقدس الله، ويتبصرون ويعتبرون بها، وتكون مقوِّية لما في قلوبهم من إخلاص الدين، بخلاف الصوفية، فإنهم لضعفهم يقولون: أنا لا أتحمل مشاهدة المخلوقات شمس وقمر وليل ونهار وسموات وأرضين؛ كل هذه تشوش عليّ، بل أنساها ولا أنظر إلا إلى الله، **وهذا ضعف وعدم ثبات**، أما الصحابة والأئمة والعلماء يشهدون الخالق، ويشهدون المخلوق ولا يكون هناك تشويش وهم أكمل، هذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن والتي قام بها أهل التحقيق من الرسل والأنبياء والصحابة والتابعون.

أما طريقة الصوفية ومسألة الشهود فهذه طريقة حصلت لهم بسبب ضعف قلوبهم وضعف تمييزهم وضعف إيمانهم فحصل لهم ما حصل.

وَهَذِه هِيَ الْحَقِيقَة الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْقُرْآن وَقَامَ بهَا أهل تَحْقِيق الْإِيمَان والكمل من أهل الْعرْفَان وَنَبِينَا صلى الله عَلَيْهِ وَسلم إِمَام هَؤُلَاءِ وأكملهم وَلِهَذَا لما عرج بِهِ إِلَى السَّمَاوَات وعاين مَا هُنَاكَ من الْآيَات وأوحي إِلَيْهِ مَا أُوحِي من أَنْوَاع الْمُنَاجَاة أصبح فيهم وَهُوَ لم يتَغَيَّر حَاله وَلَا ظهر عَلَيْهِ ذَلِك بِخِلَاف مَا كَانَ يظْهر على مُوسَى من التغشي صلى الله عَلَيْهِم وَسلم أَجْمَعِينَ.

الشَّرْح

يُبَيِّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن حال نبينا ﷺ أكمل من حال موسى عليه السلام ولا شك، وكلاهما من أولي العزم، لكن نبيُّنا محمد ﷺ هو أكمل أولي العزم ثم يليه جده إبراهيم عليه والسلام ثم يليه موسى عليه السلام.

وموسى عليه السلام حصل له تغشّي، أما نبينا ﷺ رأى من الآيات العظيمة لمّا أسري به وعرج به إلى السموات السبع ورأى سدرة المنتهى وغشيها ما غشيها، فحصل له أمور عظيمة ثم نزل بعد الإسراء والمعراج وحاله لم يتغير، ولا ظهر عليه شيء؛ لكمال ثباته عليه الصلاة والسلام.

وَأما النَّوْع الثَّالِث مِمَّا قد يُسمى فنَاء: فَهُوَ أَن يشْهد أَن لَا مَوْجُود إِلَّا الله وَأَن وجود الْخَالِق هُوَ وجود الْمَخْلُوق فَلَا فرق بَين الرب وَالْعَبْد فَهَذَا فنَاء أهل الضلال والإلحاد الواقعين فِي الْحُلُول والاتحاد.

الشَّرْح

وهذا فناء الملاحدة وهو بأن يشهد ألا موجود إلا الله فيقول كل ما تراه هو الله، فالشمس يقولون هي الله، والقمر يقولون هو الله، والجدار هو الله، فهذه مظاهر لتجلى الحق، يتجلى في صورها، هكذا يقولون، لما ألغوا عقولهم ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

وهؤلاء الملاحدة من أعظم الناس كفرًا، فإنهم يقولون: الوجود واحد؛ فكل شيء تراه واحد،لكن التعدد وهْم هكذا يقولون ـ والعياذ بالله ـ فألغوا عقولهم، فإذا قيل لهم، قالوا: هذه أسماء وصفات لله، وهذه مظاهر لتجلّي الله؛ فهو شيء واحد وإنما يتجلى في صورة كذا وفي صورة كذا يتجلى في صورة معبود كما تجلى في صورة فرعون ويتجلى في صورة هادي كما تجلى في صورة الرسل وهو واحد، وكل هذا من كلام هؤلاء الملاحدة.

وَهَذَا يبرأ مِنْهُ الْمَشَايِخ، إِذا قَالَ أحدهم: مَا أرى غير الله أَو لَا أنظر إِلَى غير الله وَنَحْو ذَلِك، فمرادهم بذلك مَا أرى رَبًّا غَيره وَلَا خَالِقًا وَلَا مُدبرا غَيره وَلَا إِلَهًا لي غَيره وَلَا أنظر إِلَى غَيره محبَّة لَهُ أَو خوفًا مِنْهُ أَو رَجَاء لَهُ؛ فَإِن الْعين تنظر إِلَى مَا يتَعَلَّق بِهِ الْقلب فَمن أحب شَيْئا أَو رجاه أَو خافه الْتفت إِلَيْهِ وَإِذا لم يكن فِي الْقلب محبَّة لَهُ وَلَا رَجَاء لَهُ وَلَا خوف مِنْهُ وَلَا بغض لَهُ وَلَا غير ذَلِك من تعلق الْقلب لَهُ لم يقْصد الْقلب أَن يلْتَفت إِلَيْهِ وَلَا أَن ينظر إِلَيْهِ وَلَا أَن يرَاهُ وَإِن رَآهُ اتِّفَاقًا رُؤْيَة مُجَرّدَة كَانَ كمن لَو رأى حَائِطا وَنَحْوه مِمَّا لَيْسَ فِي قلبه تعلق بِهِ.

والمشايخ الصالحون رَضِي الله عَنْهُم يذكرُونَ شَيْئا من تَحْرِيد التَّوْحِيد وَتَحْقِيق إخلاص الدَّين كُله بِحَيْثُ لَا يكون العَبْد ملتفتا إِلَى غير الله وَلَا نَاظرا إِلَى مَا سواهُ لَا حبا لَهُ وَلَا خوفًا مِنْهُ وَلَا رَجَاء لَهُ بل يكون الْقلب فَارغًا من الْمَخْلُوقَات خَالِيا مِنْهَا لَا ينظر إِلَيْهَا إِلَّا بِنور الله، فبالحق يسمع وبالحق يبصر، وبالحق يبطش وبالحق يمشي فيحب مِنْهَا مَا يُحِبهُ الله وَيبغض مِنْهَا مَا يبغضه الله ويوالي مِنْهَا مَا وَالَاهُ الله ويعادي مِنْهَا مَا عَادَاهُ الله وَيخَاف الله فِيهَا وَلَا يخافها فِي الله ويرجو الله فِيهَا وَلَا يرجوها فِي الله فَهَذَا هُوَ الْقلب السَّلِيم الحنيف الموحد الْمُسلم الْمُؤمن الْمُحَقق الْعَارِف بِمَعْرِفَة الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ وتحقيقهم وتوحيدهم.

فَهَذَا النَّوْع الثَّالِث الَّذِي هُوَ الفناء فِي الْوُجُود هُوَ تَحْقِيق آل فِرْعَوْن ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة وأمثالهم.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهَذَا يبرأ مِنْهُ الْمَشَايِخ، إِذا قَالَ أحدهم: مَا أرى غير الله...): أي: أن المشايخ المستقيمين إذا صدر منهم كلمات موْهِمة فهي محمولة على معنى صحيح، هذا هو الحق؛ فإذا قال أحدهم: ما

أرى إلا الله، **فإنما يعني**: أنه ما رأى غير الله ربا ولا خالقا ولا مدبراً، **وليس المراد**: أنه ينكر المخلوقات.

○ وقوله: (والمشايخ الصالحون ﷺ يذكرُونَ شَيْئا من تَجْرِيد التَّوْحِيد وَتَحْقِيق إخلاص الدَّين كُله...): هذا هو تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين لله سبحانه وتعالى، بأن يكون العبد ملتفتاً لله ﷻ ولا يلتفت إلى غيره، ولا ينظر إلى ما سواه حباً له وخوفا ورجاءً، ولا ينظر إليها دون الله ﷻ ولا ينكر المخلوقات كما يقول الصوفية، بل يراها ويشهدها على أنها مخلوقة مدبرة، ولكنه في تصرفه بالحق يسمع وبالحق يبصر وبالحق يبطش وبالحق يمشي، يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي ما يواليه الله ويعادي ما يعاديه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله.

○ وقوله: (هُوَ الْقلب السَّلِيم الحنيف الموحد الْمُسلم الْمُؤمن الْمُحَقق الْعَارِف بِمَعْرِفَة الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ وتحقيقهم وتوحيدهم): فالقلب السليم الحنيف، لا ينكر المخلوقات ولكنه يثبتها على أنها مدبرة، ويعمل فيها وفق ما شرع الله، فالشيء الذي أحبه الله منها يحبه والشيء الذي أبغضه الله منها يبغضه وهكذا، أما إنكارها فهذا فناء الملاحدة، وأما نسيانها من الشهود فهذا نقص فيها عظيم حصل للصوفية.

والطريقة المثلى والطريقة الصحيحة هو أن يشاهد الخالق على أنه خالق ويشهد المخلوق على أنه مخلوق ولا ينكر المخلوقات ولكن يحب منها ما أحبه الله ويبغض منها ما أبغضه الله، هذا هو القلب السليم المؤمن الموحد.

فبين المؤلف رحمه الله أن فناء الملاحدة والزنادقة هو الفناء في الوجود، وهو تحقيق آل فرعون وتوحيدهم من القرامطة وأمثالهم.

وَأما النَّوْع الَّذِي عَلَيْهِ أَتبَاع الْأَنْبِيَاء فَهُوَ الفناء الْمَحْمُود الَّذِي يكون صَاحبه بِهِ مِمَّن أثنى الله عَلَيْهِم من أوليائه الْمُتَّقِينَ وَحزبه المفلحين وجنده الغالبين.

وَلَيْسَ مُرَاد الْمَشَايِخ وَالصَّالِحِينَ بِهَذَا القَوْل أَن الَّذِي أرَاهُ بعيني من الْمَخْلُوقَات هُوَ رب الأَرْض وَالسَّمَاوَات فَإِن هَذَا لَا يَقُوله إِلَّا من هُوَ فِي غَايَة الضلال وَالْفساد إِمَّا فَسَاد الْعقل وَإِمَّا فَسَاد الِاعْتِقَاد فَهُوَ مُتَرَدّد بَين الْجُنُون والإلحاد.

الشَّرْح

○ قوله: (وَأما النَّوْع الَّذِي عَلَيْهِ أَتبَاع الْأَنْبِيَاء فَهُوَ الفناء الْمَحْمُود): هذا تسميته فناء من باب المقابلة مع الأنواع الأخرى، **وإلا فمعناه**: أن يلغي الإنسان مراده لمراد الله، بمعنى أن تقدم مراد ربك وتلغي مراد نفسك، فإذا كانت نفسك وهواك تهوى شيئاً والله تعالى أمر بشيء أو أمرك رسوله بشيء فإنك تلغي مرادك وهواك لمراد الله، فتقدم مراد الله على مرادك، فمثلاً الله تعالى أمرك أن تؤدي الصلاة في وقتها، فإذا كان مرادك أن تنام، وعندك الرغبة في النوم في وقت الصلاة؛ فإنك تلغي هذا المراد وتبطله لمراد الله، وهكذا.

فتوافق الله في محابه ومراده، فهذا سمي فناء؛ لأن الإنسان يفني ويلغي مراده لمراد الله، وهذا من الفناء المحبوب.

○ وقوله: (وَلَيْسَ مُرَاد الْمَشَايِخ وَالصَّالِحِينَ بِهَذَا القَوْل أَن الَّذِي أرَاهُ بعيني من الْمَخْلُوقَات...): هذا بيان لقوله فيما سبق إن بعض المشايخ يقول: ما أرى غير الله، يريد بيان أن مراده إنكار المخلوقات، بل مراده ما أرى غير الله ربا أو خالقاً أو مدبراً.

وكل الْمَشَايِخ الَّذين يقْتَدى بهم فِي الدَّين متفقون على مَا اتّفق عَلَيْهِ سلف الْأمة وأئمتها من أَن الْخَالِق سُبْحَانَهُ مباين للمخلوقات وَلَيْسَ فِي مخلوقاته شَيْء من ذَاته وَلَا فِي ذَاته شَيْء من مخلوقاته وَأَنه يجب إِفْرَاد الْقَدِيم عَن الْحَادِث وتمييز الْخَالِق عَن الْمَخْلُوق وَهَذَا فِي كَلَامهم أَكثر من أَن يُمكن ذكره هُنَا.

الشَّرْح

الله ﷻ منفصل عن المخلوقات، فهو سبحانه فوق السماوات مستو على العرش بعد أن تنتهي المخلوقات التي سقفها عرش الرحمن، فهو ﷻ متميز لم يختلط بالمخلوقات كما يقول هؤلاء، فالمخلوقات تحت والله تعالى فوق، والله سبحانه منفصل عن المخلوقات لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، والمخلوقات سقفها عرش الرحمن هذا نهايتها تنتهي وإذا انتهت المخلوقات فالله تعالى فوقها مستو على العرش بائن من خلقه، وهو سبحانه الحامل لحملة العرش بقوته وقدرته لا يحتاج إلى شيء سبحانه وتعالى.

○ وقوله: (يجب إِفْرَاد الْقَدِيم عَن الْحَادِث): القديم هو: الله؛ يعني: الأول؛ (عَن الْحَادِث): الذي هو: المخلوق، يتمييز الخالق عن المخلوق، فالجهمية الذين قالوا: إن الله حالٌّ في المخلوقات ما أفردوا القديم عن الحادث ولا ميزّوا الخالق عن المخلوق بل جعلوا الخالق مختلطاً بمخلوقاته، وهذا كفر وضلال، ـ نسأل الله العافية ـ.

وهم قد تكلمُوا على مَا يعرض للقلوب من الْأَمْرَاض والشبهات فَإِن بعض النَّاس قد يشْهد وجود الْمَخْلُوقَات فيظنه خَالق الأَرْض وَالسَّمَاوَات لعدم التَّمْيِيز وَالْفرْقَان فِي قلبه بِمَنْزِلَة من رأى شُعَاع الشَّمْس فَظن أَن ذَلِك هُوَ الشَّمْس الَّتِي فِي السَّمَاء.

وهم قد يَتَكَلَّمُونَ فِي الْفرق وَالْجمع وَيدخل فِي ذَلِك من الْعبارَات الْمُخْتَلفَة نَظِير مَا دخل فِي الفناء.

فَإِن العَبْد إِذا شهد التَّفْرِقَة وَالْكَثْرَة فِي الْمَخْلُوقَات يبْقى قلبه مُتَعَلقا بهَا مشتتا نَاظرا إِلَيْهَا وتعلقه بهَا إِمَّا محبَّة وَإِمَّا خوفًا وَإِمَّا رَجَاء فَإِذا انْتقل إِلَى الْجمع اجْتمع قلبه على تَوْحِيد الله وعبادته وَحده لَا شريك لَهُ.

الشَّرْح

○ قوله: (فَإِن العَبْد إِذا شهد التَّفْرِقَة وَالْكَثْرَة فِي الْمَخْلُوقَات يبْقى قلبه مُتَعَلقا بهَا مشتتا نَاظرا إِلَيْهَا): هكذا يزعم بعض الصوفية فيقولون: أن الواحد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات من أرضين وسماوات وبحار وأنهار وأشجار صار ذهنه مشتتًا، فإذا تناساها ولم يشهدها صار قلبه موحَّدًا على الله ـ هكذا يزعمون ـ ثم يتوصل بهم الشيطان ويتدرج إلى أن ينكروا المخلوقات ويقولوا بوحدة الوجود ـ نسأل الله العافية ـ

فَالْتَفت قلبه إِلَى الله بعد التفاته إِلَى المخلوقين فَصَارَت محبته إِلَى ربه وخوفه من ربه ورجاؤه لرَبه واستعانته بربه وَهُوَ فِي هَذَا الْحَال قد لَا يسع قلبه النّظر إِلَى الْمَخْلُوق ليفرق بَين الْخَالِق والمخلوق فقد يكون مجتمعا على الْحق معرضًا عَن الْخلق نظرا وقصدا وَهُوَ نَظِير النَّوْع الثَّانِي من الفناء.

وَلَكِن بعد ذَلِك الْفرق الثَّانِي وَهُوَ أَن يشْهد أَن الْمَخْلُوقَات قَائِمَة بِاللَّه مدبره بأَمْره وَيشْهد كثرتها مَعْدُومَة بوحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنه سُبْحَانَهُ رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فَيكون ـ مَعَ اجْتِمَاع قلبه على الله إخلاصا ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فِيهِ ومعاداة فِيهِ وأمثال ذَلِك ـ نَاظرا إِلَى الْفرق بَين الْخَالِق والمخلوق مُمَيّزا بَين هَذَا وَهَذَا يشْهد تفرق الْمَخْلُوقَات وَكَثْرَتهَا مَعَ شَهَادَته أَن الله رب كل شَيْء ومليكه وخالقه وَأَنه هُوَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ.

وَهَذَا هُوَ الشُّهُود الصَّحِيح الْمُسْتَقيم وَذَلِكَ وَاجِب فِي علم الْقلب وشهادته وَذكره ومعرفته وَفِي حَال الْقلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته.

وَذَلِكَ تَحْقِيق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله فَإِنَّهَا تَنْفِي عَن قلبه ألوهية مَا سوى الْحق وَتثبت فِي قلبه ألوهية الْحق.

الشَّرْح

○ قوله: (وَهُوَ فِي هَذَا الْحَال قد لَا يسع قلبه النّظر إِلَى الْمَخْلُوق ليفرق بَين الْخَالِق والمخلوق فقد يكون مجتمعا على الْحق معرضًا عَن الْخلق نظرا وقصدا وَهُوَ نَظِير النَّوْع الثَّانِي من الفناء): والنوع الثاني من الفناء هو: الفناء عن شهود السوى، **بمعنى**: أنه يشهد الخالق ويتناسى المخلوقات، فلا ينكرها لكن يتناسها حتى لا تشوش عليه ـ هكذا يزعمون ـ.

○ وقوله: (وَلَكِن بعد ذَلِك الْفرق الثَّانِي): العبارة كأن فيها سقط أو تحريف، ولعل الصواب: (ولكن أكمل من ذلك).

○ وقوله: (وَهَذَا هُوَ الشُّهُود الصَّحِيح الْمُسْتَقيم): هذا هو الكمال، وهو أكمل من شهود أهل الفناء الثاني، فيشهد الله على أنه الرب الخالق المدبر المعبود المالك، ويشهد المخلوقات على أنها كانت معدومة، ولكن الله أوجدها وأنه سبحانه ربها وإلهها وخالقها ومالكها.

○ وقوله: (وَذَلِكَ تَحْقِيق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله فَإِنَّهَا تَنْفِي عَن قلبه ألوهية مَا سوى الْحق وَتثبت فِي قلبه ألوهية الْحق): تنفي عن قلبه إلوهية ما سوى الحق: في قول **(لا إله)**.

وتثبت في قلبه ألوهية الحق: في قول **(إلا الله)**.

فصدرها: ينفي إلهية ما سوى الله.

وعجزها: يثبت إلهية الحق، فقول: **(لا إله إلا الله)** نفي وإثبات.

فَيكون نافيا لألوهية كل شَيْء من الْمَخْلُوقَات مثبتا لألوهية رب الْعَالمين وَرب الأَرْض وَالسَّمَاوَات وَذَلِكَ يتَضَمَّن اجْتِمَاع الْقلب على الله وعَلى مُفَارقَة مَا سواهُ فَيكون مفرقا فِي علمه وقصده فِي شَهَادَته وإرادته فِي مَعْرفَته ومحبته بَين الْخَالِق والمخلوق بِحَيْثُ يكون عَالما بِاللَّه تَعَالَى ذَاكِرًا لَهُ عَارِفًا بِهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِك عَالم بمباينته لخلقه وانفراده عَنْهُم وتوحده دونهم وَيكون محبا لله مُعظما لَهُ عابدا لَهُ راجيا لَهُ خَائفًا مِنْهُ محبا فِيهِ موَاليا فِيهِ معاديا فِيهِ مستعينا بِهِ متوكلا عَلَيْهِ مُمْتَنعا عَن عبَادَة غَيره والتوكل عَلَيْهِ والاستعانة بِهِ وَالْخَوْف مِنْهُ والرجاء لَهُ والموالاة فِيهِ والمعاداة فِيهِ وَالطَّاعَة لأَمره وأمثال ذَلِك مِمَّا هُوَ من خَصَائِص إلهية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَإِقْرَاره بإلوهية الله تَعَالَى دون مَا سواهُ يتَضَمَّن إِقْرَاره بربوبيته وَهُوَ أَنه رب كل شَيْء ومليكه وخالقه ومدبره فَحِينَئِذٍ يكون موحدا لله.

الشَّرْح

○ قوله: (فَحِينَئِذٍ يكون موحدا لله): هذا هو التوحيد السليم الصحيح، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم. وهو التفرقة بين الخالق والمخلوق، فالله تعالى له قدره وعظمته، والمخلوق له مكانته، فالمخلوق مدبر مصرَّف مقهور ـ وهو من أدلة قدرة الله ووحدانيته ـ والله تعالى هو الخالق المستحق للعبادة، وهو المتفرد بالتصرف والتدبير.

وَيبين ذَلِك أَن أفضل الذّكر لَا إِلَه إِلَّا الله كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن أبي الدُّنْيَا وَغَيرهمَا مَرْفُوعا إِلَى النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه قَالَ: «أفضل الذّكر لَا إِلَه إِلَّا الله وَأفضل الدُّعَاء الْحَمد الله»(١).

وَفِي "الْمُوَطَّأ" وَغَيره عَن طَلْحَة بن عبيد الله بن كريز أَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «أفضل مَا قلت أَنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد وَهُوَ على كل شَيْء قدير»(٢).

الشَّرْح

يبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الصوفية لما قسَّموا الناس إلى ثلاثة أقسام: العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة، جعلوا لكل طائفة ذكرًا، فقالوا إن ذكر العامة: لا إله إلا الله وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، هذا هو ذكر العامة عندهم، العامة عندهم جميع الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم محجوبون عن الوصول إلى ما وصلت إليه الخاصة.

أما الخاصة فإنهم خرقوا الحجاب ووصلوا إلى المعرفة التامة وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة الله، فصاروا خاصة، ارتقوا عن درجة العامة إلى درجة الخاصة، فصار ذكرهم قصيرا ولا يحتاجون إلى الذكر الطويل: لا إله إلا الله، بل يأخذون لفظ الجلالة فقط، فذكر

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣)، سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (٣٨٠٠)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٨٢٩)، المستدرك للحاكم (١٨٣٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.ا.هـ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.ا.هـ

(٢) انظر: موطأ الإمام مالك، كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء (١/ ٢١٤)، وعنه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٤/ ٣٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى(٤/ ٤٧٠) و (٥/ ١٩٠)، وقال: هذا مرسل.ا.هـ وقال أبو عمر ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٩): لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندا من وجه يحتج بمثله.ا.هـ. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات (٣٥٨٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.ا.هـ

الخاصة: الله الله الله الله. هكذا، وهذا موجود الآن في هذا العصر في كثير من البلاد الإسلامية غير بلدنا، موجود في إفريقيا وفي باكستان وفي غيرها، يقول بعض الإخوان إنه مر على جماعة في المسجد من بعد العصر إلى المغرب وهم يذكرون بلفظ الجلالة: (الله الله الله) هكذا، حتى يغمى على الإنسان فيسقط، وهذا ذكر الخاصة.

أما خاصة الخاصة ـ والعياذ بالله ـ فهم الذين يصلون إلى القول بوحدة الوجود، فالذكر عندهم أقصر من ذكر الخاصة فهم يأخذون حرف الهاء فقط من لفظ الجلالة يقول أحدهم: هو هو هو هو، أو: يا هو يا هو، يجلسون يوهوهون كالكلاب، ـ نسأل الله العافية ـ هذا ذكرهم، حتى إن ابن عربي رئيس وحدة الوجود صنف كتابًا سماه كتاب (الهو) كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن العجيب أن هؤلاء يستدلون على باطلهم من القرآن وهم لا يؤمنون بالله ولا بالقرآن فيستدلون على ذكر الخاصة (الله) بقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذا الدليل على ذكر الخاصة مع أن هذه الآية جاءت في جواب سؤال: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] **فالمعنى**: قل الله أنزله، فقالوا: ﴿ٱللَّهُ﴾ يعني هذا ذكر الخاصة. كما أن خاصة الخاصة استدلوا على باطلهم وبأن ذكر خاصة الخاصة (هو) يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عِمرَان: ٧] وما يعلم تأويل هو إلا الله، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فقلت لهم لو كان الأمر كما تقولون لكتب الآية: وما يعلم تأويل هو يفصل هو عن الفعل، لكن الهاء في الآية لم تفصل عن الفعل ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾.

مع أن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ لا يعترفون بالقرآن ولا بالسنة حتى قيل، لبعض هؤلاء الملاحدة الزنادقة: إن القرآن يخالف ما تقولون، فقال: (إن القرآن من أوله إلى آخره شرك والحق ما نقوله) هكذا يقول

هؤلاء الملاحدة، فعندهم أن من يقول بوجودين خالق ومخلوق فهو مشرك عندهم، والقرآن فرق بين الخالق والمخلوق فيكون شركاً عندهم، فماذا يكون الحكم على هؤلاء الملاحدة الزنادقة؟ نسأل الله السلامة والعافية.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد أفاض في هذا وبيَّن أن الكلمة الواحدة (الله) أو الضمير (هو) لا يفيد القلب إيماناً ولا معرفة ولا توحيداً؛ إذا ليست بجملة تامة تفيد معني، إذ الفائدة في الجملة التامة **(لا إله إلا الله)** فهي نفي وإثبات، **(سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)** هذه كلها جمل مفيدة.

والإنسان حينما يقول: **(بسم الله)**، فهي متعلقة في فعل مقدر بحسب المقام فإذا كان يأكل يقدر بسم الله آكل. إذا كان يقرأ فقدر بسم الله أقرأ، فهي جملة مفيدة، وقد ظهر المقدر في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ [هُود: ٤١].

وفي قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقِعَة: ٧٤]، وليس المراد الذكر بالاسم المفرد، ولم يأت نص واحد بالأمر بالذكر بالاسم المفرد أو المضمر لأنه لا يفيد القلب توحيداً ولا إيماناً ولا معرفةً وليس فيه فائدة، إذ الفائدة إنما تكون في الجملة التامة.

وجماع الدين أصلان ألا يعبد إلا الله وهذا هو تحقيق شهادة **(إلا إله إلا الله)**، وألا يعبد إلا بما شرع، وهذا تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله: قول ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله» هذا صريح في أفضل الذكر؛ فأفضل ما تكلم به الناس كلمة التوحيد: لا إله إلا الله؛ لأن معناها لا معبود حقٌّ إلا الله.

وأفضل الكلام على الإطلاق هو: كلام الله ﷻ.

وَمن زعم أَن هَذَا ذكر الْعَامَّة وَأَن ذكر الْخَاصَّة هُوَ الِاسْم الْمُفْرد وَذكر خَاصَّة الْخَاصَّة هُوَ الِاسْم الْمُضمر فهم ضالون غالطون واحتجاج بَعضهم على ذَلِك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعَام: ٩١].

من أبين غلط هَؤُلَاءِ فَإِن الِاسْم [الله] مَذْكُور فِي الْأَمر بِجَوَاب الِاسْتِفْهَام فِي الْآيَة قبله وَهُوَ قَوْله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، أَي: الله هُوَ الَّذِي أنزل الْكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى فالاسم [الله] مُبْتَدأ وَخَبره قد دلّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَام كَمَا فِي نَظَائِر ذَلِك؛ تَقول: من جَاره؟ فَيَقُول: زيد.

الشَّرح

هؤلاء هم الصوفية يزعمون أن ذكر العامة: **(لا إله إلا الله)**، وأن ذكر الخاصة: الاسم المفرد **(الله)**، وأن ذكر خاصة الخاصة: الاسم المضمر (هو) ـ من لفظ الجلالة ـ فهم ضالون غالطون، ولا شك في أن هذا ضلالة فإن **خاصة الخاصة على الحقيقة هم**: الأنبياء والمرسلون، **وأفضلهم**: أولو العزم، وذكرهم: **(لا إله إلا الله)** فإنهم أمروا قومهم بأن يقولوا: لا إله إلا الله، وهم خاصة الخاصة، ولما سأل موسى ربه ذكراً يذكره به، قال الله له يا موسى: قل لا إله إلا الله، قال: يا ربي كل عبادك يقولون هذا، يعني يريد شيئاً يختص به، فقال الرب سبحانه وتعالى: يا موسى. لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع كانت في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله[1].

(١) صحيح ابن حبان (٦٢١٨)، السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٣٠٧)، المستدرك للحاكم (١٩٣٦)، مسند أبي يعلى (١٣٩٣)، حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٢٧)، =

○ وقوله: (فالاسم [الله] مُبْتَدأ وَخَبره قد دلّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَام): والآية خبرها: قل الله أنزله، وهم يحتجون بهذه الآية لإثبات باطلهم مع أنهم لا يعترفون بالقرآن.

لأنهم تجاوزوا القرآن ولو كانوا يؤمنون بالقرآن لم يقسِّموا الناس هذه الأقسام، ولا زعموا أن الخاصة فوق الأنبياء والمرسلين، وأن المرسلين من العامة.

= المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٧)، الأسماء والصفات للبيهقي (١٨٥).
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.ا.هـ
وصحح ابن حجر إسناد النسائي، فتح الباري: (١١/ ٢٠٨).

وَأما الِاسْم الْمُفْرد مظْهرا أَو مضمرا فَلَيْسَ بِكَلَام تَامّ وَلَا جملَة مفيدة.

وَلَا يتَعَلَّق بِهِ إِيمَان وَلَا كفر وَلَا أَمر وَلَا نهي.

وَلم يذكر ذَلِك أحد من سلف الْأمة وَلَا شرع ذَلِك رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَلَا يُعْطي القلبَ بِنَفسِهِ معرفَة مفيدة وَلَا حَالا نَافِعًا وَإِنَّمَا يُعْطِيهِ تصورا مُطلقًا وَلَا يُحكم عَلَيْهِ بِنَفْي وَلَا إِثْبَات

الشَّرْح

○ قوله: (وَأما الِاسْم الْمُفْرد مظْهرا أَو مضمرا فَلَيْسَ بِكَلَام تَامّ وَلَا جملَة مفيدة): أي: أن الاسم المفرد (الله) أو (هو) لا يتعلق به إيمان أي: توحيد، إذ التوحيد في الجملة التامة: **(لا إله إلا الله)**، أما قول: (الله الله) أو (هو هو) فليس فيها توحيد ولا إيمان ولا كفر ولا حق ولا باطل ولا يزيد القلب إيماناً ولا معرفة وليس فيه فائدة إنما ضياع أوقات، بل إنها ـ كما سيبين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سبب في تصورات باطلة وسبب للوقوع في أنواع وفنون من الإلحاد والاتحاد.

فَإِن لم يقْتَرن بِهِ من معرفَة الْقلب وحاله مَا يُفِيد بِنَفسِهِ وَإِلَّا لم يكن فِيهِ فَائِدَة والشريعة إِنَّمَا تشرع من الْأَذْكَار مَا يُفِيد بِنَفسِهِ لَا مَا تكون الْفَائِدَة حَاصِلَة بِغَيْرِهِ.

وَقد وَقع بعض من واظب على هَذَا الذّكر فِي فنون من الْإِلْحَاد وأنواع من الِاتِّحَاد كَمَا قد بسط فِي غير هَذَا الْمَوْضُوع.

وَمَا يذكر عَن بعض الشُّيُوخ من أَنه قَالَ: أَخَاف أَن أَمُوت بَين النَّفْي وَالْإِثْبَات، حَال لَا يقْتَدى فِيهَا بصاحبها فَإِن فِي ذَلِك من الْغَلَط مَا لَا خَفَاء بِهِ إِذْ لَو مَاتَ العَبْد فِي هَذِه الْحَال لم يمت إِلَّا على مَا قَصده ونواه إِذْ الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ

الشَّرْح

○ قوله: (وَقد وَقع بعض من واظب على هَذَا الذّكر فِي فنون من الْإِلْحَاد): أي: أن الصوفية يواظبون على هذا الذكر، مستمرون عليه، لكنهم بسبب مواظبتهم على هذا الذكر وقعوا في فنون من الإلحاد وأنواع من الاتحاد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ والاتحاد هو ـ كما سبق ـ: القول باتحاد الخالق مع المخلوق.

وكما سبق فبعضهم يواظب على هذا الذكر من بعد العصر إلى المغرب يردد لفظ الجلالة (الله الله الله) أو الهاء: (هو هو هو) فإذا استمرعلى ذلك ساعتين أو ثلاث أو أربع ساعات فماذا يكون حاله؟

الجواب: أنه في الغالب يغمى عليه.

○ وقوله: (وَمَا يذكر عَن بعض الشُّيُوخ من أَنه قَالَ: أَخَاف أَن أَمُوت بَين النَّفْي وَالْإِثْبَات): فبعض شيوخ الصوفية لما قيل له: لماذا لا تقول: **(لا إله إلا الله)**، قال: أخاف إذا قلت لا إله أموت وأنا لم أصل الله، فأخاف أن أموت بين النفي والإثبات فأكون مشركاً، فأنا أكتفى بواحدة وهي: الله؟

وقد رد عليهم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ **ـ ما ملخصه ـ**: أنه لو فرض أنه مات، فالعبرة بنيته، فإذا كان موحدًا فلا يضره؛ لأنه مات بدون اختياره وهو موحد، وإنما الأعمال بالنيات، فهذا كله تعليل باطل.

وَقد ثَبت أَن النَّبِي ﷺ أَمر يتلقين الْمَيِّت: «لَا إِلَه إِلَّا الله»(١).

وَقَالَ: «من كَانَ آخر كَلَامه: لَا إِلَه إِلَّا الله دخل الْجنَّة»(٢).

وَلَو كَانَ مَا ذكره محذورا لم يلقن الْمَيِّت كلمة يخَاف أَن يَمُوت فِي أَثْنَائِهَا موتا غير مَحْمُود بل كَانَ يلقن مَا اخْتَارَهُ من ذكر الِاسْم الْمُفْرد.

وَالذكر بِالِاسْم الْمُضمر الْمُفْرد أبعد عَن السّنة وَأدْخل فِي الْبِدْعَة وَأقرب إِلَى ضلال الشَّيْطَان فَإِن من قَالَ: يَا هُوَ يَا هُوَ أَو هُوَ هُوَ وَنَحْو ذَلِك لم يكن الضَّمِير عَائِدًا إِلَّا إِلَى مَا يصوره قلبه وَالْقلب قد يَهْتَدِي وَقد يضل.

وَقد صنف صَاحب "الفصوص" كتابا سَمَّاهُ كتاب "الهو" وَزعم بَعضهم أَن قَوْله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٧].

مَعْنَاهُ: وَمَا يعلم تَأْوِيل هَذَا الِاسْم الَّذِي هُوَ الهو، وَإِن كَانَ هَذَا مِمَّا اتّفق الْمُسلمُونَ بل الْعُقَلَاء على أَنه من أبين الْبَاطِل فقد يظنّ ذَلِك من يَظُنّهُ من هَؤُلَاءِ، حَتَّى قلت مرّة لبَعض من قَالَ شَيْئا من ذَلِك: لَو كَانَ هَذَا مَا قلته لكُتبت الْآيَة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥ﴾ (هُوَ) مُنْفَصِلَة.

ثمَّ كثيرا مَا يذكر بعض الشُّيُوخ أَنه يحْتَج على قَول الْقَائِل: (الله) بقوله معناه، وما يعلم تأويله هذا الاسم الذي هو الهو، وإن كان هذا مما اتفق المسلمون بل العقلاء على أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا ما قلته لكتبت الآية (هو) منفصلة.

ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: (الله)

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز (٩١٦-٩١٧).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)،مسند الإمام أحمد (٢٢٠٣٤)، المستدرك للحاكم (١٢٩٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .ا.هـ.

بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١]، ويظن أَن الله أَمر نبيه بِأَن يَقُول الِاسْم الْمُفْرد.

الشَّرْح

○ قوله: (وَلَو كَانَ مَا ذكره محذورا لم يلقن الْمَيِّت كلمة يخَاف أَن يَمُوت فِي أَثْنَائِهَا موتا غير مَحْمُود): أي لو كان في هذا الذِّكر محذور لم يأمر النبي ﷺ أن يلقن الميت لا إله إلا الله؛ لأنه أيضاً يخشى أن يموت الميت في أثنائها، فلو كان في هذا محذور ما أمر به النبي ﷺ، فلما أمر به دلَّ على أنه ليس فيه محذور.

○ وقوله: (وَالذكر بِالِاسْمِ الْمُضمر الْمُفْرد) الصواب: (والذكر بالاسم المفرد أو المضمر) يعني: هذا وهذا، فالمفرد: (الله)، والمضمر: (هو) كل منهما باطل.

○ وقوله: (وَأقرب إِلَى ضلال الشَّيْطَان) لعل الصواب: (وَأقرب إِلَى إضلال الشيطان) كما في النسخة الثانية.

○ وقوله: (فَإِن من قَالَ: يَا هُوَ يَا هُوَ أَو هُوَ هُوَ وَنَحْو ذَلِك لم يكن الضَّمِير عَائِدًا إِلَّا إِلَى مَا يصوره قلبه وَالْقلب قد يَهْتَدِي وَقد يضل) الضمير في قوله (هو) يعود إلى ما يصوره قلبه وينحته فكره من معبوده الذي يعبده.

○ قوله: (وَقد صنف صَاحب "الفصوص"): صاحب كتاب فصوص الحكم، هو محمد ابن عربي، صنف كتابًا سماه: "الهو".

○ قوله: (الضمير في قوله تعالى: ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾): فسروه بـ: وما يعلم تأويل هذا الاسم وهو (الهو) إلا الله، ولا ينظرون إلى ما قبل الآية وإلى ما بعدها وإلى سياقها، وهذا من جهلهم وضلالهم.

○ قوله: (حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا ما قلته) الصواب: (لو كان هذا كما قلته).

وَهَذَا غلط بِاتِّفَاق أهل الْعلم فَإِن قَوْله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ مَعْنَاهُ: الله الَّذِي أنزل الْكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهُوَ جَوَاب لقَوْله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] أَي: الله الَّذِي أنزل الْكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، رد بذلك قَول من قَالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ﴾ فَقَالَ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾. أنزلهُ ثمَّ ذر هَؤُلَاءِ المكذبين: ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

وَمِمَّا يبين مَا تقدم مَا ذكره سِيبَوَيْهِ وَغَيره من أَئِمَّة النَّحْو: أَن الْعَرَب يحكون بالْقَوْل مَا كَانَ كلَاما لَا يحكون بِهِ مَا كَانَ قولا.

فَالْقَوْل لَا يحْكى بِهِ إِلَّا كَلَام تَامّ أَو جملَة اسمية أَو جملَة فعلية وَلِهَذَا يكسرون (إِن) إِذا جَاءَت بعد القَوْل، فَالْقَوْل لَا يحْكى بِهِ اسْم.

الشَّرْح

يبيّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بحثًا لغويًا، وأن سيبويه ـ إمام النحاة ـ وكذلك غيره من أئمة النحو يقررون أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً، لا يحكون به جملة أو كلمة واحدة، وكلمة ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذه قول يُحكى به كلام، فدل على أن قوله هذا ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزله: جملة وليس كلمة واحدة.

و ﴿قُلِ﴾ يأتي بعدها جملة مفيدة لا تأتي بعدها كلمة واحدة: قل الله أنزله.

○ قوله: (وَلِهَذَا يكسرون (إِن) إِذا جَاءَت بعد القَوْل، فَالْقَوْل): فتقول: قال محمد إنه صائم، ولا يقال: أنه، فتكون (إن) بعد القول مكسورة.

وَالله تَعَالَى لَا يَأْمر أحدا بِذكر اسْم مُفْرد وَلَا شرع للْمُسلمين.

وَالِاسْم الْمُجَرّد لَا يُفِيد شَيْئا من الْإِيمَان بِاتِّفَاق أهل الْإِسْلَام وَلَا يُؤمر بِهِ فِي شَيْء من الْعِبَادَات وَلَا فِي شَيْء من المخاطبات.

وَنَظِير من اقْتصر على الِاسْم الْمُفْرد مَا يذكر: أَن بعض الْأَعْرَاب مر بمؤذن يَقُول: (أشهد أَن مُحَمَّدًا رسولَ الله) بِالنّصب فَقَالَ: مَاذَا يَقُول هَذَا؟ هَذَا الِاسْم، فَأَيْنَ الْخَبَر عَنهُ الَّذِي يتم بِهِ الْكَلَام؟

وَمَا فِي الْقُرْآن من قَوْله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المُزّمل: ٨]، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: ١].

الشَّرْح

○ قوله: (وَلَا شرع للْمُسلمين) في النسخة سقط، والجملة هكذا: (ولا شرع للمسلمين اسمًا مفردًا مجردًا).

○ وقوله: (وَالِاسْم الْمُجَرّد لَا يُفِيد شَيْئا من الْإِيمَان): يقصد المؤلف أن الاسم المفرد الكلمة الواحدة لا تفيد، حتى تضيف إليها كلمة أخرى أو كلمتان، فكلمة (الله) أو كلمة (محمد) وحدها، لا بد أن تضيف لها كلمة أخرى حتى تكون جملة مفيدة مثل: (الله أكبر)، و(سبحان الله)، وهكذا فهي لا تفيد شيئًا، ولا يؤمر بها، ولا يستفاد منها في المخاطبات حتى تضم إليها كلمة أخرى أو كلمتان فتكون جملة مفيدة.

○ وقوله: (وَنَظِير من اقْتصر على الِاسْم الْمُفْرد مَا يذكر: أَن بعض الْأَعْرَاب...): أشهد أن محمداً رسول الله: (أن) حرف توكيد ونصب، (محمداً) اسمها منصوب، (رسولُ) خبر، فأنت تشهد أن محمداً رسولُ الله.

فإذا فتحت رسول وقلت: (أشهد أن محمد رسولَ الله) لم يأت الخبر، فأين هو؟

يحتمل أنه يأتي بعد فتقول: (أشهد أن محمدا رسولَ الله صادقٌ) فيكون (صادقًا) هو الخبر.

فإذا نصبت رسولَ الله فما جاء الخبر، وإذا رفعتها صار هو الخبر، **على أن هناك توجيه لها**، يعني لو وجدنا مؤذنا يلحن ويقول: **(أشهد أن محمداً رسولَ الله)** فلها توجيه، فهناك من يرى فتح الجزئين ويرى أن الخبر قد يفتح يعني: على قول ـ وإن كان غير مشهور ـ.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] ونَحْو ذَلِك لَا يقتضى ذكره مُفردا. بل فِي "السّنَن"[(١)] أَنه لما نزل قَوْله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي ركوعكم» وَلما نزل قَوْله: ﴿۞ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١] قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودكُمْ». فشرع لَهُم أَن يَقُولُوا فِي الرُّكُوع: (سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيم) وَفِي السُّجُود (سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى).

وَفِي "الصَّحِيح"[(٢)] أَنه كَانَ يَقُول فِي رُكُوعه: «سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيم» وَفِي سُجُوده «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» وَهَذَا هُوَ معنى قَوْله: «اجْعَلُوهَا فِي ركوعكم وسجودكم» بِاتِّفَاق الْمُسلمين.

فتسبيح اسْم ربه الْأَعْلَى وَذكر اسْم ربه وَنَحْو ذَلِك هُوَ بالْكَلَام التَّام الْمُفِيد كَمَا فِي "الصَّحِيح"[(٣)] عَنهُ ﷺ: أَنه قَالَ: «أفضل الْكَلَام بعد الْقُرْآن أَربع وَهن من الْقُرْآن: سُبْحَانَ الله وَالْحَمْد لله وَلَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر».

الشَّرْح

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] يعني: هذه الآيات ليس

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما يقال الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، سنن ابن ماجه، كتاب الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، صحيح ابن خزيمة (٦٠٠)، صحيح ابن حبان (١٨٩٨)، سنن الدارمي (١٣٤٤)، المستدرك للحاكم (٣٧٨٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.ا.هـ ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٢).

(٣) كما في صحيح مسلم (٢١٣٧)، بلفظ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**» وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم، فصلى، أو قرأ، أو سبح، أو كبر، أو حمد، أو هلل، فهو على نيته.

المراد بها اذكر ربك: (الله الله) فقط، فليس المراد كلمة واحدة، بل المراد يقول اذكر ربك وهكذا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقِعَة: ٧٤] المراد الجملة التامة المفيدة؛ قل سبحان ربي العظيم، أو قل سبحان ربي الأعلى، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**اجعلوها في ركوعكم واجعلوها في سجودكم**»[(١)] لا بكلمة واحدة، وإنما هي جملة.

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده "٨٦٩"، وابن ماجه كتاب الإقامة، باب التسبيح في الركوع والسجود "٨٨٧"، وأحمد (١٧٤١٤) وابن خزيمة (٦٠١ و٦٧٠) وصححه الحاكم (١/ ٢٢٥) و (٢/ ٤٧٧) وابن حبان (١٨٩٨).
وقال الشيخ ابن باز في تعليقه على شروط الصلاة وأركانها وواجباتها لمحمد بن عبدالوهاب: لا بأس بإسناده، حسن.

وَفِي "الصَّحِيح"[١] عَنهُ ﷺ أَنه قَالَ: «كلمتان خفيفتان على اللِّسَان ثقيلتان فِي الْمِيزَان حبيبتان إِلَى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ الله الْعَظِيم».

وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ"[٢] عَنهُ ﷺ أَنه قَالَ: «من قَالَ فِي يَوْمه مائَة مرّة: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد وَهُوَ على كل شَيْء قدير، كتب الله لَهُ حرْزا من الشَّيْطَان يَوْمه ذَلِك حَتَّى يُمْسِي وَلم يَأْتِ أحد بِأَفْضَل مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رجل قَالَ مثل مَا قَالَ أَو زَاد عَلَيْهِ».

و«من قَالَ فِي يَوْمه مائَة مرّة: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ الله الْعَظِيم، حطت عَنهُ خطاياه وَلَو كَانَت مثل زبد الْبَحْر»[٣].

وَفِي "الْمُوَطَّأ" وَغَيره عَن النَّبِي ﷺ أَنه قَالَ: «أفضل مَا قلته أَنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد وَهُوَ على كل شَيْء قدير»[٤].

وَفِي "سنَن ابْن مَاجَه" وَغَيره عَنهُ ﷺ أَنه قَالَ: «أفضل الذّكر لَا إِلَه إِلَّا الله وَأفضل الدُّعَاء الْحَمد لله»[٥].

وَمثل هَذِه الْأَحَادِيث كَثِيرَة فِي أَنْوَاع مَا يُقَال من الذّكر وَالدُّعَاء.

الشَّرْح

كل ما مضى من الآيات والأحاديث جمل مفيدة، أي: أسبح الله،

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٤).
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٣)، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩١).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٥)، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩١).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

أحمد الله، وقصْد المؤلف في هذا: الرد على الصوفية الذين يزعمون أن ذكر الخاصة كلمة واحدة، وهي (الله) وذكر خاصة الخاصة حرف، وهو: (هو) كل هذه النصوص ردت عليهم.

وقوله: «كلمتان خفيفتان» يعني: أن كل كلمة جملة مفيدة، والكلمة تطلق على الكلام المفيد، ولهذا يقال فلان ألقى كلمة، وهي خطبة.

وقوله: (وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «من قال في يومه مائة مرة...» هذا الحديث في الصحيحين كما ذكر المؤلف، لكن جاء في تتمة الحديث أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»**.

وفي الحديث الآخر: **«مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»**[1].

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل (٦٤٠٤)، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار(٢٦٩٣).

وَكَذَلِك مَا فِي الْقُرْآن من قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وَقَوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] إِنَّمَا هُوَ قَول: بِسم الله، وَهَذِه جملَة تَامَّة، إِمَّا اسمية على أظهر قولي النُّحَاة، أَو فعلية وَالتَّقْدِير: ذبحي بِسم الله أَو أذبح بِسم الله.

وَكَذَلِك قَول الْقَارئ: بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، فتقديره قراءتي بِسم الله أَو اقْرَأ باسم الله.

وَمن النَّاس من يضمر فِي مثل هَذَا: ابتدائي بِسم الله أَو ابتدأت بِسم الله، وَالْأول أحسن؛ لِأَن الْفِعْل كُله مفعول باسم الله لَيْسَ مُجَرّد ابْتِدَائه، كَمَا أظهر الْمُضمر فِي قَوْله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١]، وَفِي قَوْله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هُود: ٤١].

وَفِي قَول النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: «من كَانَ ذبح قبل الصَّلَاة فليذبح مَكَانهَا أُخْرَى وَمن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله»(١).

وَمن هَذَا الْبَاب قَول النَّبِي ﷺ فِي الحَدِيث الصَّحِيح لربيبه عمر بن أَبى سَلمَة: «يَا غُلَام سم الله وكل بيمينك وكل مِمَّا يليك»(٢) فَالْمُرَاد أَن يَقُول: باسم الله، لَيْسَ الْمُرَاد أَن يذكر الِاسْم مُجَردا.

وَكَذَلِك قَوْله فِي الحَدِيث الصَّحِيح لعدي بن حَاتِم: «إِذا أرْسلت كلبك الْمعلم وَذكرت اسْم الله فَكل»(٣).

وَكَذَلِك قَوْله ﷺ: «إِذا دخل الرجل منزله فَذكر اسْم الله عِنْد

(١) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «**فليذبح على اسم الله**» (٥٥٠٠)، وصحيح مسلم، كتاب الأضاحي (١٩٦٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٣٧٦)، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة (٢٠٢٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٥)، وصحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٢٩).

دُخُوله وَعند خُرُوجه وَعند طَعَامه قَالَ الشَّيْطَان: لَا مبيت لكم وَلَا عشَاء»[١] وأمثال ذَلِك كثير.

الشَّرْح

يعني: إذا قدّرت ذبحي باسم الله صارت جملة اسمية، وإذا قدرت أذبح باسم الله صارت جملة فعلية، **فالمقصود** أنه حين يقول الإنسان: (بسم الله) أنها جملة مفيدة لأنها متعلقة بالمحذوف، لأن المقدر إذا كنت تذبح تقول: ذبحي بسم الله، أو أذبح بسم الله، إذا كنت تأكل تقول: أكلي بسم الله، أو آكل بسم الله، وإذا كنت تقرأ تقول: قراءتي بسم الله أو أقرأ بسم الله، **وهكذا تُقدَّر المحذوف من جنس الفعل الذى تريده.**

ـ **المتعلِّق باسم الله هو: المقدَّر**، فهنا أظهر: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١] فدل على أنه إذا جاءت باسم الله فهي متعلقة بمقدَّر، ومثل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هُود: ٤١].

○ قوله: (ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله): الشاهد: (فليذبح باسم الله): فيقول: باسم الله ذبحي، فتكون جملة مفيدة.

○ وقوله: (وَمن هَذَا الْبَاب قَول النَّبِي ﷺ فِي الحَدِيث الصَّحِيح لربيبه عمر بن أَبى سَلمَة): ربيبُه أي: ابن زوجته، فأم سلمة لها ابنٌ اسمه: عمر، فيكون ربيبا للنبي ﷺ، كما أن البنت تكون ربيبة لزوج أمها، كزينب بنت أم سلمة.

وهنا لما كان عمر بن أبي سلمة ـ ربيب النبي ﷺ ـ تطيش يده في الصحفة يعني: في الأكل.

(١) صحيح مسلم، كتاب الأشربة (٢٠١٨).

وَكَذَلِكَ مَا شرع لِلْمُسلمين فِي صلَاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ بِالْجُمْلَةِ التَّامَّة كَقَوْل الْمُؤَذّن: (الله أكبر الله أكبر أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله أشهد أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله) وَقَول الْمُصَلِّي: (الله أكبر سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيم سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى سمع الله لمن حَمده رَبنَا وَلَك الْحَمد التَّحِيَّات لله) وَقَول الملبي: (لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك) وأمثال ذَلِك.

فَجَمِيع مَا شَرعه الله من الذّكر إِنَّمَا هُوَ كَلَام تَامّ لَا اسْم مُفْرد وَلَا مظهر وَلَا مُضْمر.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسمى فِي اللُّغَة (كلمة) كَقَوْلِه: «كلمتان خفيفتان على اللِّسَان ثقيلتان فِي الْمِيزَان حبيبتان إِلَى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ الله الْعَظِيم»[1] وَقَوله: «أفضل كلمة قَالَهَا الشَّاعِر كلمة لبيد: أَلا كل شَيْء مَا خلا الله بَاطِل».[2]

الشَّرْح

○ قوله: (فَجَمِيع مَا شَرعه الله من الذّكر إِنَّمَا هُوَ كَلَام تَامّ لَا اسْم مُفْرد وَلَا مظهر وَلَا مُضْمر): فالذكر جمل مفيدة لا كما يقول الصوفية، فليس باسم مفرد مظهر (الله)، ولا باسم مفرد مضمر (هو).

○ قوله: (وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسمى فِي اللُّغَة (كلمة)): **فالذي يسمى في اللغة كلمة هو**: الجملة التامة، لا الكلمة المفردة، فيسمى في اللغة كلمة كقولنا: فلان ألقى كلمة، وهو قد تكلم بجمل مفيدة، والمراد: أن الكلمة قد تكون جملة واحدة أو عدة جمل.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (٣٨٤١)، صحيح مسلم، كتاب الشعر (٢٢٥٦).

قوله عليه الصلاة والسلام: «**كلمتان خفيفتان على اللسان**» فسماهما كلمتان مع أنهما جملتان.

وقوله: («**أفضل كلمة قالها الشاعر...**»): فسماها كلمة وهي: شطر بيت.

ويروى أنه لما قال: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، قيل: صدقت.

ولمّا قال: وكل نعيم لا محالة زائل، قيل: كذبت؛ فنعيم الجنة لا يزول.

وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] الآية. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وأمثال ذَلِك مِمَّا اسْتعْمل فِيهِ لفظ (الْكَلِمَة) من الْكتاب وَالسّنة بل وَسَائِر كَلَام الْعَرَب فَإِنَّمَا يُرَاد بِهِ الْجُمْلَة التَّامَّة كَمَا كَانُوا يستعملون الْحَرْف فِي الِاسْم فَيَقُولُونَ: هَذَا حرف غَرِيب أَي لفظ الِاسْم غَرِيب.

وَقسم سِيبَوَيْهِ الْكَلَام إِلَى اسْم وَفعل وحرف جَاءَ لِمَعْنى لَيْسَ باسم وَلَا فعل، وكل من هَذِه الْأَقْسَام يُسمى حرفا لَكِن خَاصَّة الثَّالِث أَنه حرف جَاءَ لِمَعْنى لَيْسَ باسم وَلَا فعل.

وسمى حُرُوف الهجاء باسم الْحَرْف وَهِي أَسمَاء.

وَلَفظ الْحَرْف يتَنَاوَل هَذِه الْأَسْمَاء وَغَيرهَا كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «من قَرَأَ الْقُرْآن فأعربه فَلهُ بِكُل حرف عشر حَسَنَات أما إِنِّي لَا أَقُول ﴿الٓمٓ﴾ حرف وَلَكِن ألف حرف وَلَام حرف وَمِيم حرف»[(١)].

وَقد سَأَلَ الْخَلِيل بن أَحْمد أَصْحَابه عَن النُّطْق بِحرف الزَّاي من زيد؟ فَقَالُوا: (زَاي) فَقَالَ: جئْتُمْ بِالِاسْمِ وَإِنَّمَا الْحَرْف (زَ).

ثمَّ إِن النُّحَاة اصْطَلحُوا على أَن هَذَا الْمُسَمّى فِي اللُّغَة بالحرف يُسمى كلمة وَأَن لفظ الْحَرْف يخص لما جَاءَ لِمَعْنى لَيْسَ باسم وَلَا فعل كحروف الْجَرّ وَنَحْوهَا.

وَأما أَلْفَاظ حُرُوف الهجاء فيعبر تَارَة بالحرف عَن نفس الْحَرْف من اللَّفْظ وَتارَة باسم ذَلِك الْحَرْف وَلما غلب هَذَا الِاصْطِلَاح صَار يتَوَهَّم من اعتاده أَنه هَكَذَا فِي لُغَة الْعَرَب ومنم من يَجْعَل لفظ الْكَلِمَة فِي اللُّغَة

(١) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر (٢٩١٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.ا.هـ

لفظا مُشْتَركا بَين الِاسْم مثلا وَبَين الْجُمْلَة وَلَا يعرف فِي صَرِيح اللُّغَة من لفظ (الْكَلِمَة) إِلَّا الْجُمْلَة التَّامَّة.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] هذه الكلمة التي قالوا، هي قولهم: إن الله له ولد، وهي جملة مفيدة؛ لذا سماها الله كلمة.

○ وقوله: (وسمى حُرُوف الهجاء باسم الْحَرْف وَهِي أَسمَاء.): تسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهي أسماء، فمثلا: (الزاي) اسم ل: (ز) وهكذا: (الباء) اسم ل: (ب).

يعبر بالحرف فيقال: (ز) ويعبر بالاسم، فيقال: (زاي).

○ وقوله: (فيعبر تَارَة بالحرف عَن نفس الْحَرْف من اللَّفْظ وَتارَة باسم ذَلِك الْحَرْف): فتارة يقال: (ج) وتارة يقال: (جيم) فإذا أريد الحرف قيل: (ج) وإذا أريد الاسم قيل: (جيم)، وهكذا: حرف الميم، فإذا أريد الحرف قيل: (م) وإذا أريد الاسم قيل: (ميم)، وهكذا ...

وَالْمَقْصُود هُنَا أَن الْمَشْرُوع فِي ذكر الله سُبْحَانَهُ هُوَ ذكره بجملة تَامَّة وَهُوَ الْمُسَمّى بالْكَلَام وَالْوَاحد مِنْهُ بِالْكَلِمَةِ وَهُوَ الَّذِي ينفع الْقُلُوب وَيحصل بِهِ الثَّوَاب وَالْأَجْر ويجذب الْقُلُوب إِلَى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وَغير ذَلِك من المطالب الْعَالِيَة والمقاصد السامية.

وَأما الِاقْتِصَار على الِاسْم الْمُفْرد مظْهرا أَو مضمرا فَلَا أصل لَهُ فضلا عَن أَن يكون من ذكر الْخَاصَّة والعارفين.

بل هُوَ وَسِيلَة إِلَى أَنْوَاع من الْبدع والضلالات وذريعة إِلَى تصورات وأحوال فَاسِدَة من أَحْوَال أهل الْإِلْحَاد وَأهل الِاتِّحَاد.

كَمَا قد بسط الْكَلَام عَلَيْهِ فِي غير هَذَا الْموضع.

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الكمّ الهائل من النصوص الرد على الصوفية الذين يقولون: ذكر الخاصة (الله) وذكر خاصة الخاصة (هو)، فهذه كلمة مفردة لا تفيد معنى ولا يثاب عليها حتى يُضم إليها كلمة أو كلمات، فتكون جملة مفيدة.

وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم خاصة الخاصة، هم: أهل وحدة الوجود، أهل الإلحاد والاتحاد، الذين يعتقدون أن الوجود واحد، وأن الخالق عين المخلوق، والرب عين العبد.

○ قوله: (وَأما الِاقْتِصَار على الِاسْم الْمُفْرد مظْهرا أَو مضمرا فَلَا أصل لَهُ): الاقتصار على الاسم المفرد لا أصل له في الشريعة، فالصوفية خرجوا عن الشريعة، ولم يعملوا بها؛ لتقسيمهم الناس ثلاثة مراتب، وجعلوا المرتبة الثانية والثالثة تجاوزت الشريعة لذا كان لهم ذكر خاص.

○ وقوله: (فضلا عَن أَن يكون من ذكر الْخَاصَّة والعارفين): هذا الذكر فضلا عن أنه لا أصل له في الشريعة ولا يعطي القلب إيمان ولا معرفة ولا توحيد؛ فهو وسيلة شر إلى كثير من أنواع من البدع والضلالات، ووسيلة إلى تصورات فاسدة، ووسيلة إلى الوقوع في الإلحاد والانحراف، ووسيلة إلى الوقوع في القول بوحدة الوجود؛ وأن المخلوق هو الخالق.

فالواجب الحذر والتحذير من هذه الأذكار الباطلة، والالتزام بما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله من الأذكار الصحيحة والجمل المفيدة.

فصل

وجماع الدِّين أصلان: أَلا نعْبد إِلَّا الله وَلَا نعبده إِلَّا بِمَا شرع لَا نعبده بالبدع.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وَذَلِك تَحْقِيق الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَشَهَادَة أَن مُحَمَّد رَسُول الله.

فَفِي الأولى: أَلا نعْبد إِلَّا إِيَّاه.

وَفِي الثَّانِيَة: أَن مُحَمَّدًا هُوَ رَسُوله الْمبلغ عَنهُ فعلينا أَن نصدق خَبره ونطيع أمره.

وَقد بَين لنا مَا نعْبد الله بِهِ ونهانا عَن محدثات الْأُمُور وَأخْبر أَنَّهَا ضَلَالَة قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البَقَرَة: ١١٢].

الشَّرح

قد بين الله عز وجل هذين الأصلين في كتابه:

قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]؛ **فالعمل الصالح هو:** ما كان صوابا موافقا للشريعة.

والعمل الذي ليس فيه شرك هو: الخالص لله.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ **وإسلام الوجه هو**: بالإخلاص لله.

والإحسان هو: بالموافقة.

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

وثبت في الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى**»(١)؛ فالأعمال بالنيات، فمن أخلص لله عمله لله فله ما نوى.

وهذا الأصل ـ وهو: الإخلاص لله ـ هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وإذا تخلف هذا الأصل حل محله الشرك.

ودل على الأصل الثاني من السنة ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

وهذا الأصل ـ وهو المتابعة للنبي ﷺ والموافقة لأمر الله ـ هو تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله، وإذا تخلف هذا الأصل حل محله البدعة.

وبتحقيق هذين الأصلين يحقق المسلم الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله، وهذا الأصلان هما أصل الدين وأساس الملة، وبهما يدخل الإنسان في الإسلام، وبهما يخرج من الدنيا، و«**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاريّ، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، (١٧١٨).

(٣) أخرجه أبو داود، في كتاب الجنائز: باب في التلقين،(٣١١٦) والإمام أحمد(٢٢٠٣٤) وابن حبان في صحيحه (٣٠٠٤) والحاكم في المستدرك (١٢٩٩).
وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.ا هـ.
وأخرجه بنحوه ابن ماجه (٣٧٩٦)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٩٠٩ - ١٠٩١١).

○ قوله: (فعلينا أَن نصدق خَبره ونطيع أمره): لأن هذا من تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله، فنصدقه في أخباره الماضية والمستقبلة، ونطيع أوامره، ونجتنب نواهيه، ونتعبد لله بما شرعه.

وكما أننا مأمورون أَلا نَخَاف إِلَّا الله وَلَا نتوكل إِلَّا على الله وَلَا نرغب إِلَّا إِلَى الله وَلَا نستعين إِلَّا بِاللَّه وَألا تكون عبادتنا إِلَّا لله فَكَذَلِك نَحن مأمورون أَن نتبع الرَّسُول ونطيعه ونتأسى بِهِ فالحلال مَا حلله وَالْحرَام مَا حرمه. وَالدّين مَا شَرعه قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، فَجعل الإيتاء لله وَلِلرَّسُولِ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَجعل التَّوَكُّل على الله وَحده بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾. وَلم يقل: وَرَسُوله ـ كَمَا قَالَ فِي وصف الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم فِي الْآيَة الْأُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وَمثله قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤] أَي: حَسبك وَحسب الْمُؤمنِينَ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

ثمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فَجعل الإيتاء لله وَلِلرَّسُولِ وَقدم ذكر الْفضل لله لِأَن ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وَله الْفضل على رَسُوله وعَلى الْمُؤمنِينَ وَقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩] فَجعل الرَّغْبَة إِلَى الله وَحده كَمَا فِي قَوْله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧-٨].

وَقَالَ النَّبِي ﷺ لِابْنِ عَبَّاس: «إِذا سَأَلت فاسأل الله وَإِذا استعنت فَاسْتَعِنْ بِاللَّه»(١).

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱللَّهُ﴾ يعني: أن هذه الآية اشتملت على ما هو لله، وعلى ما هو مشترك، **فمن المشترك:**

الإيتاء، فالله هو الذي يقدر من الأسباب ما يأتيك من هذا المال، والرسول ﷺ يعطي.

أما الحسب فهو خاص بالله، ولاتقل: حسبي الله والرسول؛ فالكفاية خاصة بالله.

قوله تعالى: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤] الله كافيك وكاف المؤمنين، وهذا هو المعنى، لا كما توهم بعضهم من أن المعنى: الله يكفيك والمؤمنون، إنما المعنى: الله يكفيك ويكفي أتباعك من المؤمنين.

وكذلك الرغبة من خصائص الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التوبة: ٥٩] فهذه الرغبة خاصة بالله، فلم يقل: إنا إلى الله ورسوله راغبون.

قوله: ("إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"): وذلك فيما هو من خصائص الله، فقد يستعان بالمخلوق الحي فيما يقدر عليه، فتقول للحي القادر الحاضر ساعدني على إصلاح مزرعتي أو أقرضني، أما الميت والغائب فلا يُسأل، وكذلك الحي غير القادر.

وَالْقُرْآن يدل على مثل هَذَا فِي غير مَوضِع.

فَجعل الْعِبَادَة والخشية وَالتَّقوى لله وَجعل الطَّاعَة والمحبة لله وَرَسُوله كَمَا فِي قَول نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نُوح: ٣].

وَقَوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: ٥٢] وأمثال ذَلِك.

الشَّرْح

○ قوله: (فَجعل الْعِبَادَة والخشية وَالتَّقوى لله): فالعبادة والخشية والتقوى خاصة بالله لا تكون لغير الله، فلا يعبد إلا الله ولا يخشى إلا الله، والتقوى لا تكون إلا لله.

○ وقوله: (وَجعل الطَّاعَة والمحبة لله وَرَسُوله): فالطاعة والمحبة مشتركة؛ فتطيع الله وتطيع الرسول، وتحب الله وتحب الرسول، وإن كانت طاعة الرسول ومحبته من طاعة الله ومحبته.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نُوح: ٣] فجعل العبادة والتقوى لله، وجعل الطاعة لنوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النُّور: ٥٢] فجعل الطاعة والخشية والتقوى لله وحده.

فالرسل أمروا بِعِبَادَتِهِ وَحده وَالرَّغْبَة إِلَيْهِ والتوكل عَلَيْهِ وطاعته وَالطَّاعَة لَهُم فأضل الشَّيْطَان النَّصَارَى وأشباههم فأشركوا بِاللَّه وعصوا الرَّسُول فـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ فَجعلُوا يرغبون إِلَيْهِم ويتوكلون عَلَيْهِم يَسْأَلُونَهُمْ مَعَ معصيتهم لأمرهم ومخالفتهم لسنتهم. وَهدى الله الْمُؤمنِينَ المخلصين لله أهل الصِّرَاط الْمُسْتَقيم الَّذين عرفُوا الْحق واتبعوه فَلم يَكُونُوا من المغضوب عَلَيْهِم وَلَا الضَّالّين فأخلصوا دينهم لله وَأَسْلمُوا وُجُوههم لله وأنابوا إِلَى رَبهم وأحبوه ورجوه وخافوه وسألوه وَرَغبُوا إِلَيْهِ وفوضوا أُمُورهم إِلَيْهِ وتوكلوا عَلَيْهِ وأطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم وأحبوهم ووالوهم واتبعوهم واقتفوا آثَارهم واهتدوا بمنارهم. وَذَلِك هُوَ دين الْإِسْلَام الَّذِي بعث الله بِهِ الْأَوَّلين والآخرين من الرُّسُل وَهُوَ الدَّين الَّذِي لَا يقبل الله من أحد دينا إِلَّا إِيَّاه وَهُوَ حَقِيقَة الْعِبَادَة لرب الْعَالمين.

فنسأل الله الْعَظِيم أَن يثبتنا عَلَيْهِ ويكمله لنا ويميتنا عَلَيْهِ وَسَائِر إِخْوَاننَا الْمُسلمين.

وَالْحَمْد لله وَحده وَصلى الله على سيدنَا مُحَمَّد وَآله وَصَحبه وَسلم.

الشَّرْح

○ قوله: (فالرسل أمروا بِعِبَادَتِهِ وَحده وَالرَّغْبَة إِلَيْهِ والتوكل عَلَيْهِ وطاعته): هكذا الرسل أمروا بعبادة الله والرهبة والتوكل لأنها من خصائص الله، والطاعة تكون لله وتكون للرسول.

مع أن هذه من خصائص الله، فصرفوا لأحبارهم ورهبانهم حقَّ الله.

○ قوله: (فأخلصوا دينهم لله وَأَسْلمُوا وُجُوههم لله وأنابوا إِلَى رَبهم): هذه طريقة المنعم عليهم الموفقين يخصون الله بالعبادة والتوحيد

والرجاء والرهبة وتفويض الأمور والتوكل، ورسل الله لهم الطاعة التعزير والتأدب معهم والنصرة والتوقير والاتباع.

خاتمة

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في خاتمة هذه الرسالة المباركة القيّمة أن جماع الدين أصلان:

الأصل الأول: تحقيق الله بالعبادة.

الأصل الثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرع لا بالبدعة.

وبين أنه هذين الأصلين في تحقيق شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وفي الشهادة الأولى: إخلاص الدين لله، فلا نعبد إلا إياه.

وفي الشهادة الثانية: أن محمدًا ﷺ هو المبلغ عنه، فوجب علينا تصديق خبره وطاعة أمره.

وهذا الدين هو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل والذي لا يقبل دينا سواه.

وطاعة الله وطاعة رسوله فيما جاء به من الشريعة، هذا دين **الإسلام بمعناه العام**: الذي عليه الرسل من أولهم: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، ومن بعده حتى ختم الله أنبياء بني إسرائيل بعيسى، فلما بُعث نبينا محمد ﷺ كان **الإسلام بمعناه الخاص**:

١ ـ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ.

٢ ـ اتباع محمد ﷺ.

٣ ـ العمل بشريعة القرآن.

وليس على هذا الإسلام ـ بمعناه الخاص ـ إلا محمدٌ ﷺ وأمتُه.

وأما الإسلام بمعناه العام فهو دين الأنبياء جميعا، وهو دين الله في الأرض وفي السماء، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

فنسأل الله أن يحيينا على الإسلام، وأن يثبتنا عليه، وأن يكمِّله لنا، ويتوفانا عليه غير مغيرين ولا مبدلين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع	الصفحة
مقدمة الشارح ـ حفظه الله ـ	٥
مقدمة	٧
تعريف العبادة	٩
منزلة العبادة عند الله	١٢
جعل الله العبودية لازمة لرسوله ولعباده حتى الموت	١٥
الملائكة لا يخرجون عن العبودية	١٨
المسيح عبد أنعم الله عليه	١٩
نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله	٢٠
الدين كله داخل في العبادة	٢٢
الدين يتضمن معنى الخضوع والذل	٢٤
العبادة أصل معناها الذل	٢٤
آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة	٢٥
الحقوق الخاصة بالله والحقوق المشتركة بين الله وبين الرسول	٢٨
معاني العبودية	٣٠
العبودية بالحق إذا كانت عن استكبار	٣٢
توضيح العبودية العامة	٣٤
العبودية العامة لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار	٣٥
لا ينفع الاعتراف بالربوبية العامة وحدها	٣٥
الاعتراف بربوبية الله يشترك فيها المؤمن والكافر	٣٦
إبليس مثل البر والفاجر معترف بالربوبية	٣٦
أهل النار اعترفوا بالربوبية العامة	٣٧
الصوفية من أشر أهل الكفر والإلحاد	٣٧
ظن الصوفية في الخضر	٣٨
العبادة الخاصة المتعلقة بإلهية الله	٣٩
توضيح معنى العبودية الخاصة	٤٠

الموضوع | الصفحة

الفرق بين العبودية العامة والعبودية الخاصة ٤٠
كثير من شيوخ الصوفية وقفوا عند الربوبية العامة ٤١
الشيخ عبد القادر الجيلاني والقضاء والقدر ٤١
الإنسان لا يستسلم للقدر ٤٢
الرضا بالقضاء والقدر ٤٣
القصة التي وقعت بين آدم وموسى ٤٤
ردُّ المعتزلة لهذا الحديث ٤٥
الصبر على المصائب ٤٦
وجوب الأمر بالمعروف ٤٧
الموالاة في الله والمعاداة في الله ٤٨
الفرق بين المؤمنين والكفار ٤٩
من شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية ٥١
مذهب الاتحادية ٥٢
الخلاصة لما سبق ٥٣
أقسام الذين يشهدون الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية ٥٤
بيان القسم الأول ٥٥
المؤمنون شهود للحقيقة الكونية والدينية ٥٨
حال المؤمنين العابدين لله حق عبادته ٦٠
لا احتجاج بالقدر في مخالفة الشريعة ٦٢
الذين يحتجون بالقدر في كل شيء متناقضون ٦٣
الذين يحتجون بما يناسبهم ٦٤
الذين يدعون التحقيق والمعرفة ٦٥
الذين يفرقون بين من يعلم فقط ومن يشهد ٦٧
المعتزلة والجبرية ٦٩
الجبرية أثبتوا القضاء والقدر فهم ضد المعتزلة ٦٩
الجبرية لا يعظمون الأوامر والنواهي ٧٠
لم يكن من السلف جبري يحتج بالقدر ٧١
ضلال بعض المذاهب ٧٣
بطلان تأويل واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ٧٣
من بدع المشركين ٧٤
مشابهة الصوفية في احتجاجهم بالقدر للمشركين ٧٥

الموضوع | الصفحة

المشركون يترددون بين البدعة والاحتجاج بالقدر ٧٦
مشابهة الصوفية للجهمية ٧٦
تقديم القياس على النص أصل ضلال الضلال ٧٨
أهل الإيمان وأهل الكفر والبدع والشهوات ٨٠
الله تعالى أمر باتباع الشريعة ونهى عن اتباع الأهواء ٨٢
الله تعالى ربط المسببات بأسبابها ٨٤
الذين يتركون المستحبات دون الواجبات ٨٦
الذين يشتغلون بما يحصل لهم من خرق العادات ٨٦
سبب النجاة ٨٧
أصول العبادة ٨٨
العمل الصالح ٨٩
عطف بعض الواجبات أو بعض المستحبات على العبادة ٩١
تنوع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران ٩٣
ذكر الخاص مع العام ٩٣
أقسام التلاوة ٩٤
كلما كان الإنسان أكمل في تحقيق العبودية كان أقرب إلى الله ٩٥
دفع توهم أن أحدا يخرج عن العبودية ٩٦
المستكبرون عن عبادة الله أذلة صاغرون ٩٧
أرسل الله الرسل تأمر الناس بعبادة الله وتوحيده وطاعته ٩٩
رسول الله أكمل الخلق مأمور بعبادة الله ١٠٠
كل نبي يأمر قومه بعبادة الله وتوحيده ١٠٠
نعت كل المصطفين بالعبودية ١٠٢
خلاصة ما سبق ١٠٤
فصل في التفاضل بالإيمان ١٠٦
الشرك أخفى من دبيب النمل ١٠٦
المنافق يغضب ويرضى من أجل الدنيا ١٠٧
العبودية عبودية القلب ١٠٨
القناعة تجعل الإنسان حرا ١٠٨
الطمع غل في العنق، وقيد في الرجل ١٠٩
مسألة المخلوق فيها ميل إلى المخلوق ١١٠
كل ما أمكن الاستغناء عن الناس فهو أولى ١١١

الموضوع | الصفحة

تحريم المسألة بغير حق ١١٣
ارغب إلى الله ولا ترغب إلى غيره ١١٥
الرزق من الصور التي يقع فيها نوع من الإلهية ١١٦
الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل ١١٧
الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل ١١٨
من كان بالله أعرف كان منه أخوف ١١٩
من دعاء موسى: اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ٢٠
النبي ﷺ اشتكى إلى الله ١٢١
استغن عمن شئت تكن نظيره ١٢١
من احتاج إلى أحد تعلق قلبه به ١٢٢
المحبوس من حبس قلبه عن الله ١٢٤
العبرة في عبودية القلب ١٢٤
حديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض...» ١٢٥
تأكيد الكلام بـ: (لعمرو الله) ١٢٦
السكر نوعان: ١٢٧
العشق أشد من الجنون ١٢٨
اليقين الفاسد الذي في القلب إنما يخرج باليقين الصالح ١٢٩
الحكمة من مشروعية الصلاة ١٣٠
زكاة النفوس ١٣١
أعظم أسباب صلاح القلب ١٣١
أمور الدنيا تنقسم إلى قسمين: ١٣٣
من عبد الله على الحقيقة ١٣٤
حلاوة الإيمان ولذته ١٣٥
محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب ١٣٦
آية المحنة ١٣٦
علامات محبة الله لأهله ١٣٦
المحبة الواجبة ١٣٨
حقيقة المحبة ١٤٠
المحبة إذا كانت تامة تستلزم الإرادة الجازمة ١٤١
قلب الإنسان فقير بالذات ١٤٣
عبادة الله لا تحصل للإنسان إلا بإعانة الله وتوفيقه ١٤٤

الموضوع | الصفحة

كل شيء محبوب سوى الله فإنما يحب لأجل الله ١٤٥
العبادة حق الله لا يشاركه فيها أحد ١٤٥
الأمر كله لله ١٤٦
طبقات الناس في حقيقة الإسلام ١٤٨
الكبر ضد الإيمان ١٥٠
الاستكبار عن عبادة الله يلزم منه الإشراك ١٥١
الكائنات كلها مسلمة لله ١٥٣
قاعدة عامة: ليس هناك أحد ليس له معبود ١٥٤
عادة أهل الباطل يرمون أهل الحق بدائهم ـ كتسميتهم المصلحين مفسدين ـ ١٥٥
لن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه ١٥٦
الغالب على فرق اليهود: العلم وتخلف العمل ١٥٧
دين الأنبياء جميعا دين الإسلام ١٥٨
كل سبب لا بد له من أسباب تعينه ١٦٠
أنواع الظلم ١٦٢
الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام كلهم بعثوا بملته ١٦٤
الخلة كمال المحبة ١٦٧
الخلة والمحبة صفتان لله ١٦٨
وجه كون الرافضة أعظم المنتسبين إلى القبلة كفرًا ١٦٩
الخلة تستلزم من العبد...وتستلزم من الرب ١٧١
الخلة لا تحتمل الشِّرْكة ١٧٢
محمد وإبراهيم كلاهما خليل الله ١٧٤
الحلاوة التي تتبع المحبة تكون بثلاثة أمور ١٧٥
تكميل المحبة وتفريغها من إرادة غير الله ودفع ضدها ١٧٦
الخلة نهاية المحبة وكمالها ١٧٧
أقسام الناس في مسألة المحبة ١٧٨
رعونة الصوفية ١٨٠
مما وقع فيه شيوخ الصوفية ١٨٠
ضعف تحقيق العبودية عند الصوفية ١٨٠
من غرور الشيطان زعم بعض الصوفية أن الذنوب لا تضره ١٨٢
الأنبياء أرفع الناس مقاما ومع ذلك أخبر الله أنهم محصوا وطهروا ١٨٢
من كان يعمل بمقتضى هواه لم يكن محبا لله ١٨٤

الموضوع | الصفحة

من أقوال الصوفية الكفرية ١٨٥
أحوال الصوفية ١٨٦
إذا سقط التمييز عن الإنسان صار مجنونا ١٨٧
الصوفية وسماع القصائد المتضمنة للحب ١٨٨
لا يكون محبا لله إلا من يتبع رسوله ١٨٨
أساس محبة الله ومحبة رسوله الجهاد في سبيله ١٨٩
محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها من الأمم ١٩٠
المحبة بدون عمل واتباع وجهاد لا تنفع ١٩١
مقصود الإرادة عند الصوفية ١٩٢
الإرادة الكونية في كل الموجودات عند الصوفية ١٩٢
من يدعي محبة الله نظر إلى عموم الربوبية ١٩٣
قد تكون دعوى الصوفية شر من دعوى اليهود والنصارى ١٩٤
الله يحب المتقين والمحسنين والصابرين ١٩٧
الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه ١٩٨
العمل لا بد أن يكون خالصا لله وموافقا لشرع الله ١٩٩
أصل الدين: الإخلاص لله ٢٠٠
العمل الحسن هو الموافق لشرع الله ٢٠٠
تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله ٢٠١
الأعمال لا تعتبر إلا بالنيات ٢٠١
الشرك كثير وخفي ٢٠٢
من الشرك الخفي ٢٠٣
حرص الإنسان على المال والشرف والجاه يفسد دينه ٢٠٤
المحبة الصادقة يلزم منها الخوف والرجاء ٢٠٦
لا يكون عبدالله على الحقيقة حتى يكون محبا لله خائفا راجيا ٢٠٧
إذا نقص الإخلاص حل محله العبودية لغير الله ٢٠٩
إذا كانت العبودية لله كاملة لم يكن فيها محل لعبودية غير الله ٢٠٩
المعاصي والشرك الأصغر تضعف التوحيد والإخلاص ٢٠٩
الأنبياء كلهم أئمة هدى للناس ٢١١
تقسيم الصوفية للناس ثلاث طبقات ٢١٣
الاتحادية المشركون الضالون يسوون بين الله وخلقه ٢١٤
أصل كلمة الفناء ٢١٥

الموضوع | الصفحة

أقسام الفناء ٢١٥
الفناء الصحيح ٢١٦
يريد الله من العبد أن يخلص عمله لله ٢١٧
كمال العبد أن يوافق الله في محبوباته ومرضياته ٢١٨
الفناء عن شهود السوى ٢١٩
قوة الشهود ٢٢٠
الفناء عن شهود السواء لم يحصل للأنبياء ٢٢٢
ما يرد على القلب من أحوال الإيمان ٢٢٣
الصحابة ﷺ كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية ٢٢٣
مراتب أولي العزم من الرسل، ووجه كمال محمد ﷺ في الإسراء ٢٢٤
فناء الملاحدة ٢٢٥
المستقيمون إذا صدر منهم كلمات فهي محمولة على معنى صحيح ٢٢٦
تجريد التوحيد وتحقيقه ٢٢٧
النوع الذي عليه أتباع الأنبياء من أنواع الفناء ٢٢٨
الله سبحانه منفصل عن المخلوقات ٢٢٩
إفراد القديم عن الحادث ٢٢٩
الصوفية وما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات ٢٣٠
الفناء عن شهود السوى ٢٣١
المخلوقات قائمة بالله ٢٣٣
الشهود الصحيح المستقيم ٢٣٣
أفضل الذكر ٢٣٤
ذكر العامة والخاصة عند الصوفية ٢٣٤
خاصة الخاصة على الحقيقة هم...وذكرهم...وأفضلهم ٢٣٧
الاسم المفرد: الله ٢٣٩
الصوفية يواظبون على ذكر معين ٢٤٠
ليس في الذكر محذور ٢٤٣
الذكر بالاسم المفرد أو المضمر أقرب إلى إضلال الشيطان ٢٤٣
الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ٢٤٣
العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ٢٤٤
لا يشرع للمسلمين اسم مجرد مفرد ٢٤٥
لطيفة في مؤذن نصب لفظ الجلالة في: (أشهد أن محمدا رسول الله) ٢٤٥

الموضوع | الصفحة

الدليل من القرآن للذكر بالجمل المفيدة ٢٤٧
الدليل من السنة للذكر بالجمل المفيدة ٢٤٩
إذا جاءت باسم الله، فهي متعلقة بمقدر ٢٥١
الذكر جمل مفيدة لا كما يقول الصوفية ٢٥٣
الكلمة في اللغة الجملة التامة ٢٥٣
قول الله تعالى: كبرت كلمة تخرج من أفواههم ٢٥٦
حروف الهجاء تسمى باسم الحرف ٢٥٦
مقصود المؤلف من هذا الكم الهائل من النصوص ٢٥٧
الذكر بالكلمة الواحدة: الله وسيلة إلى الوقوع في الإلحاد ٢٥٨
الواجب الحذر والتحذير من أذكار الصوفية الباطلة ٢٥٨
فصل: وجماع الدين أصلان: ٢٥٩
بيان الله ﷻ لأصلي الدين في كتابه ٢٥٩
بتحقيق المسلم هذين الأصلين يحقق المسلم الشهادتين ٢٦٠
من تحقيق شهادة: أن محمدا رسول الله ٢٦١
قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ اشتملت على ما هو لله وعلى ما هو مشترك ٢٦٣
بيان معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٦٣
الرغبة خاصة بالله ٢٦٣
قد يستعان بالمخلوق الحي فيما يقدر عليه ٢٦٣
العبادة والخشية والتقوى لله ٢٦٤
الطاعة والمحبة مشتركة لله وللرسول ٢٦٤
أمر الرسل بعبادة الله والرهبة والتوكل لأنها من خصائص الله ٢٦٥
طريقة المنعم عليهم الموفقين ٢٦٦
خاتمة ٢٦٧
فهرس الموضوعات والفوائد ٢٦٩